

أجاثار خيديس الكنيدي

عن البحر الإريثري

ترجمة و تعليق

د. الحسين أحمد عبد الله

ABBREVIATIONS

ANRW	Hildegard Temporini and Wolfgang Haase, Aufsteig und Niedergang der römischen Welt (Berlin, 1972-)
BIFAO	*Bulletin de I'lnstitut franfaise d'archeologie orientale*
BSOAS	*Bulletin of the School of Oriental and African Studies*
FGrH	Felix Jacoby, *Die Fragmente der griechischen Historiker* (Leiden, 1926-1958)
GGM	C. Muller, *Geographi Graeci Minores* (Paris, 1855-1861)
Grzimek	Bernhard Grzimek, *Grzimek's Animal Life Encycopedia* (New York, 1975)
HN	Pliny, *Historia Naturalis*
HP	Theophrastus, *Historia Plantarum*
JAOS	*Journal of the American Oriental Society*
JEA	*Journal of Egyptian Archaeology*
LSJ	Henry George Liddell and Robert Scott, *A Greek-English Lexicon,* rev. by Sir Henry Stuart Jones (Oxford, 1940)
NA	Aelian, *De Natura Animalium*
OGIS	W. Dittenberger, *Orientis Graeci inscriptions Selectae* (Leipzig, 1905)
PME	*Periplus of the Erythraean Sea*
PSAS	*Proceedings of the Seminar for Arabian Studies*
RE	Pauly's *Realencyclopddie der klassischen Altertumswissenschaft* (Stuttgart, 1894-1980).
SNR	*Sudan Notes and Records*
Vantini	Fr Giovanni Vantini, *Oriented Sources Con-cerning Nubia* (Heidelberg and Warsaw, 1975)
ZÄS	*Zeitschrift fur Egyptische Sprache und Altertumswissenschaft*

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة العربية

للأقدار تصاريف لا يعلمها إلاّ الله، فقد يُثاب المرء رغم أنفه. وقد يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير. وقد تضيف المحن إنسانية إلى إنسانيتك، وقد يدفعك ظلم البشر إلى اعتزال الناس أو قد يزيد إيمانك بأنها هي الدنيا، وأن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. وكذلك الحال قد يجد المرء نفسه خارج دائرة الصراط الذي اتسقت عليه اهتماماته البحثية.

هكذا كانت بداية قصة ترجمة هذا المصدر المهم بسؤال استنكاري من أحد الزملاء، **هل البحر الأحمر يسمى الخليج العربي؟** وكانت إجابتي **نعم كل المصادر الكلاسيكية كانت تسميه الخليج العربي**، هكذا كانت البداية، فكان بحثي الأول بعنوان «**ميناء برينيقى ونشاطه التجارى فى القرن الميلادى الأول**» ونشر في حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية بدولة الكويت عام ٢٠١١م ثم كان البحث الثاني بعنوان....

«Seven Remarks upon Brenecie-Coptos Route in Roman Period». ARAM Thirtieth International Conference: Trade Routes & Seafaring in the Ancient Near East (The Oriental Institute, Oxford) 04-06 July 2011.

وأخيراً حصلت على نسخة مترجمة إلى الإنجليزية من كتاب أجاثارخيديس «**عن البحر الإريثري**» ترجمة ستانلي بورشتين[1] S. Burstein، التى نقدمها للقارئ العربي بصفة عامة وللمهتمين بدراسة تاريخ البحر الأحمر وظهيره في العصر الهيللينستي بصفة خاصة.

ويبدأ الكتاب بمقدمة مطولة عن نشاط مملكة البطالمة في حوض البحر الأحمر وخاصة مع مملكة الأنباط في شمال غرب الجزيرة العربية وإن كانت بداية هذه العلاقة بداية عسكرية بحملة قام بها بطلميوس الثاني عام ٢٧٨ق.م ثم بدأ نفس الملك يهتم بإنشاء الموانئ على سواحل البحر الأحمر المصرية بداية من أرسينوي شمالاً وصولاً إلى برينيقي جنوباً بل إن الأمر قد امتد إلى جنوب مصر حيث تم إنشاء ميناء بطلمية الوحوش (بطلمية الصيادين) واستمر اهتمام البطالمة بساحل البحر الأحمر وصولاً إلى

(1) Agatharchides of Cnidus *on the Erythraean Sea,* translated and edited by Stanley M. Burstein, The Hakluuyt society, London, 1989

أدوليس ومنها إلى مضيق باب المندب وما وراءه. ولم يقتصر الأمر على الساحل الغربي للبحر الأحمر بل امتد اهتمام البطالمة إلى الساحل الشرقي وخاصة مع ممـاليـك جنـوب الجزيرة العربية في اليمن.

والمعلومات عن حياة أجاثارخيديس قليلة، فقد أشار سترابون في النصف الثـاني من القرن الأول قبل الميلاد إلى أن أجاثارخيديس كـان واحـداً مـن المـشائين. أمـا أجاثارخيديس نفسه فقد أورد إشارات قليلة عن نفسه في كتابه *«عن البحـر الإريثـري»*. ومن هنا لا نجد سوى ثلاث حقائق مؤكدة حول حياته، **الأولى** تخص مولده في كنيـدوس جنوب غرب الأناضول، **والثانية** أن كتابه *«عن البحر الإريثري»* هـو آخـر أعمالـه، **والثالثة** أنه كُتب قبل عام ١٠٠ق.م حيـث كـان أرتيميـدوروس Artemidorus مـن إفسوس قد نقل عنه في كتابه الحادي عشر عن جغرافية العالم.

ويبدو أن أصول أجاثارخيديس كانت متواضعة. فوفقاً لرواية فوتيوس فإنـه كـان موضوعاً تحت الحماية Threptos، بل لعله من عبيد كينياس Cineas ثم عمل سكرتيراً وقارئاً لهيراكليديس ليمبوس Heracleides Lembus وكلاهمـا كـان مـن الرمـوز السياسية في مصر خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل المـيلاد. ورغـم جـذوره المتواضعة، فقد تمكن أجاثارخيديس من أن يكون في معية مجموعة من النخبة السياسية فـي مصر خلال عهد بطلميوس السادس، وهو ما أدى إلى تسهيل عمله الأدبـي وتمكينـه مـن الوصول إلى المصادر الرسمية والحكومية، وقد كان هذا عاملاً في غاية الأهمية حيث ساعده في كتابة مؤلفه *«عن البحر الإريثري»* وأعماله الأخرى.

ولسوء الحظ، فإذا كانت العلاقات السياسية هي التى منحت أجاثارخيديس فرصـة الكتابة فإنها هي نفسها التى وضعت نهاية آخر أعماله *«عن البحر الإريثـري»* دون أن يكتمل. ففي مقدمة ذلك الكتاب يقول أجاثارخيديس إنه اضطر لقطع تواصلـه مـع هـذا العمل نتيجة الضغوط التى تعرض لها بسبب الشيخوخة وبسبب الاضطرابات في مـصر والتى جعلت من المستحيل له أن يستخدم الأرشيف الملكي.

وثمة مناسبتان ممكنتان لهذا النفي، أما الأولى فهي سـنة ١٤٥ق.م حـين طـرد بطلميوس الثامن (١٤٥-١١٦ق.م) فقد طارد مثقفي الإسكندرية بسبب تأييـدهم لـشقيقته

كليوباترا الثانية أرملة بطلميوس السادس وابنهـا بطلميـوس الـسابع (١٤٥/١٤٤ق.م) والثانية في سنة ١٣٢ق.م عندما طُرد بطلميوس الثامن نفسه من مـصر عقـب ثـورة الإغريق في الإسكندرية تأييداً لكليوباترا الثانية، ثم عاد واتخذ إجراءات انتقاميـة ضـد سكان المدينة. ويرى معظم الباحثين أن أحداث عام ١٣٢ق.م هي التـي كـان يقـصدها أجاثارخيديس في حديثه عن الاضطرابات في مصر، ومن هنا يرجعون تـاريخ كتابـه «*عن البحر الإريثري*» إلى ما بعد ذلك التاريخ بقليل.

وفيما يخص كتاب أجاثارخيديس «عن البحر الإريثري» فإنه يقول:

«ينقسم العالم المعروف بأكمله إلى أربعة اتجاهات، الـشرق والغـرب والـشمال والجنوب. وقد قام ليكوس Lycus وتيمايوس Timaeus بدراسة الغـرب، وهيكـاتيوس Hecataeus وبـازيليس Basilis بدراسـة الـشرق، وديوفـانتوس Diophanus وديمتريوس Demetrius بدراسة الشمال، في حين أتولى استكمال دراسـة المعمـورة بالاتجاه إلى الجنوب».

والكتّاب الخمسة الذين ذكرهم أجاثارخيديس تدور أعمالهم في إطار التاريخ الإقليمي، ومن هنا يمكن اعتبار كتاب «*عن البحر الإريثري*» عملاً في التخصص ذاته. وهناك ثـلاث حقائق تؤكد ذلك، أولها وجود أحاديث ومكاتبات تتميـز بهـا الكتابـات التاريخيـة ولـيس الجغرافية، وثانيها أن وصف عمليات ومناطق صيد الفيلة في عهد بطلميـوس الثـاني تبـدو دراسة جغرافية على طريقة السرد التاريخي، أما ثالثها فهو ما ورد في الكتاب الخامس فقـرة ٣٠ حيث تقتصر المادة الإثنوجرافية على هذا الكتاب فقط حيث يقول:

«هناك أربع قبائل رئيسية في الإقليم المتاخم لمصر من جهة الجنـوب، إحـداها ترتبط بالنهر وتعمل في زراعة الدخن والسمسم، وتعيش الثانية بالقرب مـن البحيـرات وتتغذى على ألياف النباتات الرخوة وتتجول الثالثة في عشوائية وتتغذى علـى اللحـوم والألبان، وتعيش الرابعة على صيد الأسماك».

وينقسم الكتاب الأول إلى مجموعتين، **أولهما** تضم الفقرات من الأولى إلى التاسعة حيث تتناول بداية النشاط البطلمي في البحر الأحمر، **أمـا المجموعـة الثانيـة** فتـضم الفقرات من العاشرة إلى العشرين وتتحدث عن وادي النيل الأعلى.

وينتقل المؤلف في الكتاب الخامس من فصل إلى آخر وفق الموضوع الفرعي. فالخريطة الإثنوجرافية (ف٣٠) تفصل بين المقدمة وفصل عن السكان (ف٦٥-٦٧) ثم جاءت مناقشة العالم الآهل بالسكان والحدود المناخية بين فصلي السكان والأرض. وبنفس الطريقة عالج أجاثارخيديس الساحل الشرقي للبحر الأحمر، حيث وصف ساحل شبه الجزيرة العربية (ف٨٧-٩٨) فبدأ المقدمة بإثنوجرافيا السبأيين في اليمن ثم ذكر أقسام الأرض (ف٩٩-١٠٠) والناس (ف١٠١-١٠٤) بالإضافة إلى Thoumasia في الفقرات (١٠٥-١٠٦) وملحق عن الظواهر غير الطبيعية أو غير المعتادة في البحر الأحمر ككل (ف١٠٧-١١١) ثم ملحق عن السيرة الذاتية الخاصة بالمؤلف في الفقرة الأخيرة من الكتاب (ف١١٢).

وبعد فإن كتاب «*عن البحر الإريثري*» يعد أكثر أعمال أجاثارخيديس شهرة مثل معظم الأعمال التى تتناول تاريخ الممالك الهللينستية عقب دخول الشرق الأدنى في الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الأول قبل الميلاد ولم ترد أية إشارة عن كتبه الأربعة الأولى عند أي من الكتاب الكلاسيكيين وذلك على عكس الكتاب الخامس.

بقي أن أشير إلى أمرين:

أولهما: أن لغة المترجم كانت جافة وركيكة وخاصة في فقرات الكتابين الأول والخامس ولعله كان مهموماً بأن يترجم النص ترجمة حرفية فأبقى على الكلمة وضاع المعنى، ومن ثم لم يكن لي أن أُبق على هذا الغموض فما أُقدمه إلى القارئ، والباحث بصفة خاصة، هو الحقيقة التاريخية بلغتها ومعناها وقد تطلب الأمر الرجوع إلى النص الأصلي في كثير من الأحيان وتفسير التاريخ بالتاريخ وذلك بالرجوع إلى المصادر التاريخية السابقة على أجاثارخيديس، أو اللاحقة له وخاصة فيما يتعلق بما ذكره المؤلف، وسار وراءه المترجم، حول أسماء القبائل على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر وأسماء الموانئ والأنهار والجبال بل والمناخ أيضاً وكذلك الحال فيما يخص الممالك العربية في شمال غرب الجزيرة العربية وخاصة مملكة الأنباط وقبائل ثمود. أو الممالك العربية الجنوبية وخاصة سبأ وحمير ومعين قتبان.

وكذلك الحال فإن نظام تقسيم الكتاب إلى عمودين هي ليست بدعة ابتدعها أجاثارخيديس لكن معظم المصادر الكلاسيكية كانت تتبع المنهج نفسه، بيد أن الجديد هنا ربما يكون قد ابتدعه فوتيوس الذي حفظ نص الكتاب. فلم يكن هذا البطريرك حريصاً على نقل النص أو حفظه كما هو؛ بل كان معنياً بتلخيص المصادر وفق اهتماماته ووفق عقيدته أيضاً، ومن ثم فإنه من الجائز أن تكون الفقرة (أ) هي النص كما ورد عن أجاثارخيديس وتكون الفقرة (ب) هي تعليق أضافه فوتيوس عليها. وقد آثرت أن أترجم الحواشي والهوامش التى أضافها صاحب الترجمة الإنجليزية ووضعها وفق أرقام متتالية في نهاية كل فصل. أما ما قمت به بإضافته من تعليقات وحواشي شرحاً وتوضيحاً لما جاء في المتن فقد آثرت أن تكون في أسفل كل صفحة آخذة رمز النجمة تمييزاً لها عن تلك الخاصة بالترجمة الإنجليزية. وكذلك الحال فقد أضفت قائمة حديثة من المصادر والمراجع الخاصة بموضوع الكتاب حتى تكون الفائدة أعم وأشمل.

ثانياً: بعد حمد الله تعالى على فضله وكرمه أحب أن أشكر كل من تعاون معي في إنجاز هذا العمل وخاصة **د/ إبراهيم السايح** الذي ساعدني في مراجعة الترجمة على النص اليوناني **ود/ حاتم الطحاوي** الذي ساعدني في الحصول على نسخة من النص الإنجليزي لهذا الكتاب **ود/ جمال الدمرداش** الذي راجع اللغة العربية في هذا الكتاب، **والأستاذ/ محمود حسن** الذي تحمل مشكوراً عبء كتابة المسودات الخمس الأولى لهذا الكتاب فكلما أعطاني مسودة لأصوبها عادت إليه ترجمة جديدة وقراءة أخرى. وأخيراً. **أعتذر لكل من قصرت في حقهم أثناء ترجمة هذا الكتاب وخاصة زوجتي وأولادي.**

والله من وراء القصد

الحسين أحمد عبد الله

مقدمـــة

استخدم المؤرخون والجغرافيون الإغريق القدماء مصطلح البحر الإريثري للإشـــارة إلى الخضم المائي الكبير الذي يمتد من إفريقيا إلى الهند بالإضافة إلى خليجيه، وهــو مــا نعرفه الآن بالمحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج الفارسي[(١)]، وكانت للإغريـق صـلة بالجزء الثالث من هذا الكيان المائي الضخم، وهو البحر الأحمر، بداية من القرن الـسادس قبل الميلاد، وإن كان الاستكشاف الحقيقي للبحر الأحمر وسواحله يرجـع إلـى فتوحـات الإسكندر الأكبر (٣٣٦-٣٢٣ق.م) والتى لم تسفر عن غزو البحر الأحمر فقط ولكن غزو كل منطقة الشرق الأدنى والشرق الأوسط وسقوطهما أمام المشروع الإغريقي آنذاك علـى مدى قرن كامل استمرت الكشوف الجغرافية والاستغلال الحقيقي لهذه الأماكن في عـصر الملوك البطالمة الأربعة الأوائل الذين خلفوا الإسكندر في حكم مصر وحفظ أعمـالهم مـا تبقى من كتاب «***عن البحر الإريثري***» ذلك العمل الفريـد للمـؤرخ «**أجاثارخيـديس مـن كنيدوس**» الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد.

البطالمة والبحر الأحمر:

كان الإغريق هم آخر شعوب شرق البحر المتوسط القديمة الـذين تمكنـوا مـن الوصول إلى البحر الأحمر. وكان ما جذبهم إليه، مثلما جذب من قبلهم، هــو المنتجـات القادمة من هناك مثل الطيوب والتوابل والنباتات العطرية المختلفة، بيد أن ما كان يهمهم بصفة خاصة هو اللبان الذكر (البخور) والمر[(*)]، والتى يمكـن الحـصول عليهـا مـن الصومال وساحل أفريقيا الجنوبي الشرقي، وكانت من المواد الضرورية في الحياة الدينية والاجتماعية لسكان العالم القديم. ورغم أوجه التشابه الشديد بين ساحل البحـر الأحمـر الشرقي والغربي فإن تاريخ كل منهما يختلف عن الآخر بوضوح. ورغم أن ملوك مصر

(*) **هو نوع من التوابل** يسمى Cyperus وكان يصدر من ميناء برينيقى إلى أفريقيا وكانـت بعـض الموانىء المصرية تستوردها من بلاد العرب. **عصارة صمغية** Storax وكان يصدر من برينيقـى إلى سواحل أفريقيا الشرقية. وكان نبات الدريان Dryan الذى يسمى بعد تجفيفه Benjoin معروفا عند العرب باسم بخور أو لبان جاوه. (المترجم)

كانوا يقومون بتنظيم حملات بحرية عسكرية إلى بلاد بونت[٢](*)، وربما ساحل السودان أو إريتريا، خلال الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد فإن ساحل السودان الأفريقي للبحر الأحمر لم يكن مأهولاً بالسكان إلا من جماعات صغيرة من البدو وصيادي الأسماك في فترة قريبة من ظهور مملكة أكسوم(**) على مرتفعات إثيوبيا(***) في القرن الأول

(*) أرسلت الملكة حتشبسوت ثلاث حملات إلى بلاد بونت = الصومال وذلك لإحضار البخور وقد سُجلت هذه الحملات على معبد الدير البحري في الأقصر. وهناك اختلاف حول الطريق الذي سلكته هذه الرحلة إلى بلاد بونت (المنطقة الممتدة من دلتا جاش ومركزها كسلا والتي تمتد من نهر عطبرة إلى البحر الأحمر) **والرأي الأول** يقول إن الرحلة بدأت من طيبة واتجهت جنوباً إلى قفط ومنها عبر الصحراء إلى القصير على البحر الأحمر ثم إلى بلاد بونت **والرأي الثاني** يقول إن الرحلة بدأت من طيبة وصعدت شمالاً إلى الدلتا وعبرت قناة سيزوستريس إلى القلزم ومنها بدأت الرحلة عبر البحر الأحمر إلى بلاد بونت بيد أن هذا الرأي غير صحيح ذلك أن تلك القناة لم تكن موجودة في عصر حتشبسوت بل إنها ترجع إلى عصر دارا أثناء احتلال الفرس لمصر. **والرأي الثالث** يقول إن الرحلة كانت عبر نهر النيل جنوباً إلى عطبرة عابرة الشلالات الخمسة، وعادة السفن من هناك حاملة اللبان العطري، والمر والصبر، وبخور الجبال وحيوانات كاسرة وزراف وأفيال ووحيد القرن وفهود بالإضافة إلى الذهب والأحجار النفيسة مثل العقيق واللازورد وقرود البابون والعاج والتوابل التي تنقل عن الجزيرة العربية. عن تفاصيل الرحلة إلى بلاد بونت راجع كريستيان ديروش نوبلكور، حتشبسوت، ترجمة فاطمة عبد الله محمود، المجلس الأعلى للثقافة، مشروع الترجمة، عدد ٩٢٤، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ص ١٦٥-٢١٢ (المترجم).

(**) أشار صاحب كتاب الطواف إلى مملكة أكسوم في الفقرتين الرابعة والخامسة PME. 4-5 وربما يرجع وجود هذه المملكة إلى أواخر القرن الثاني وبدايات القرن الأول قبل الميلاد.

Radolfo Fattovitch, Pre-Aksumite Civilization of Ethiopii: A Provisional Review *PSAS* VIII (1977) PP: 73-78.

ويتكون كتاب «الطواف في البحر الإريثري» من قسمين كبيرين، من دون أن يراعى ذلك في الكتاب ذاته أو يقصد، ويتوزع القسم الأول منهما في ١٨ فقرة تتضمن الحديث عن الرحلة بدءاً من الميناء المصري ميوس هورموس الواقع على البحر الأحمر، وبمحاذاة الساحل الأفريقي حتى رابتا (بنجاني ٥,٢٥° شمالاً، ٣٨,٣٩° شرقاً، أو بجامويو ٦,٣١° شمالاً، ٣٨,٥° شرقاً، أو دار السلام ٦,٤٢° شمالاً، ٣٩,٥° شرقاً) بينما يقدم القسم الثاني، ويتألف من ٤٨ فقرة، وصفاً للطريق الذي يبدأ من ميوس هورموس ثم يتجه إلى لويكي كومي ومنها بمحاذاة ساحل الجزيرة العربية حتى خليج عُمان ومنه إلى سواحل الهند الغربية والشرقية حتى مصب نهر الجانجا تقريباً، ويقدم وصفاً لذلك كله. ويتألف بذلك الكتاب من ٦٦ فقرة إجمالاً، ويختلف حجم الفقرات، فبينما ترد معلومات بتفصيلات كثيرة وذات مضمون متعدد في بعضها انسجاماً مع ما يراه المؤلف من فائدة، فهناك ثمة فقرات لا تشتمل إلا على بعض الملاحظات.

(***) أطلق الإغريق اسم إثيوبيا أو الإثيوبيين (الذين أحرقت بشرتهم الشمس) على المنطقة الواقعة جنوب مصر، ويحدد بلينيوس حدودها بقوله (إن طول بلاد الإثيوبيين بما فيها البحر الأحمر هو ٢١٧٠ ميل وعرضها بما فيها مصر ١٢٠٩٨ ميل والمسافة من مروى حتى المحيط الإثيوبي مسيرة ٦ أيام والمسافة من مروى حتى المحيط ٦٠٢٥ ميل. عن ذلك راجع Herodotus, II, 146. III, 114; Pliny, NH, VI. xxxiv. 172, xxxv, 187-197; Ptolemy, IV, vii. (المترجم).

الميلادي. في حين كان الجنوب الغربي للجزيرة العربية، والمعروف حالياً باسم اليمن، في الألفية الأولى قبل الميلاد يضم ممالك عربية قوية تقوم بأعمال الوساطة بين الصومال وجنوب الجزيرة العربية والبحر المتوسط في التجارة ومن هذا المنطلق يمكننا أن نتفهم الاسم القديم للبحر الأحمر بأنه الخليج العربي[٣]، ذلك أن الساحل العربي هو الذي جذب انتباه الإغريق ومصالحهم، وبدأ ذلك في الرحلة الاستكشافية والتى كان يقودها أناكسيقراتس[٤] أحد ضباط أسطول عام ٣٢٤ق.م.

وكانت حملة أناكسيقراتس قد نجحت في مسح كل شاطئ الجزيرة العربية قبل أن تعبر مضيق باب المندب إلى المحيط الهندي ثم تعود إلى مصر وبحوزتها تقريرٌ كاملٌ عن الظروف السياسية في غرب الجزيرة العربية. واستمرت الحملات الاستكشافية هذه بعد ذلك على نطاق أوسع في القرن الثالث قبل الميلاد ولكن في اتجاه آخر. فباستثناء حملة يقودها بحار يدعى أريستون Ariston الذي سلك طريق أناكسيقراطس نفسه أثناء حكم بطلميوس الثاني فيلادلفوس (٢٨٢/٢٤٦ق.م) فإن تركيز البطالمة كان على الشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر[٥].

ففي فقرة مهمة من كتابه *«عن البحر الإريثري»* يلاحظ أجاثارخيديس أن جوف سوريا، التى تضم حالياً لبنان وفلسطين، زادت مواردها من حركة التبادل التجاري مع جنوب شبه الجزيرة العربية. وهذه الملاحظة نالت الاهتمام في نظرية تارن[٦] التى تؤكد أن البطالمة في القرن الثالث كانوا يهدفون إلى تحويل تجارة البخور[*] إلى مصر، وأن هذا الهدف كان يمثل خطأ والتباساً واضحاً في المفاهيم فسواء كانت هذه التجارة تستخدم الطريق البري أو البحري، فإن القوافل كانت تصل إلى غزة أو إلى غيرها من موانى شرق البحر المتوسط، حيث يتم شحن البضاعة إلى مصر أو أي مكان آخر عبر البحر

(*) وكانت الرحلة عبر طريق البخور تبدأ من تمنع (عاصمة قتبان) إلى غزة ، وكانت هذه الرحلة تقطع فى ٧٠ يوماً ، وكانت القوافل التجارية تعبر مأرب ومنها إلى وادى الجوف، وتمر يثيل بحاضرة المعينيين ومنها إلى نجران ثم قرية الفاو (حاضرة كندة) ثم العلا (ددان) إلى البتراء ، وبعد ذلك إلى غزة ، وفى مرحلة من المراحل كان لهذا الخط التجارى فرعٌ امتد من البتراء شرقاً بإتجاه بادية الشام ومنطقة الفرات. عن ذلك راجع محبوب غالب أحمد "الصلات التجارية بين جنوب شبه الجزيرة العربية ومناطق الهلال الخصيب ومصر خلال الألف الأولى قبل الميلاد" ندوة اتحاد المؤرخين العرب، ٢٠٠٦ص ص ٦٩-٧٠.

المتوسط[٧]. وكانت سيطرة البطالمة على هذه الموانى حتى عام ١٩٧ق.م[*] تؤمن لهم كل حاجتهم من هذه السلعة بالإضافة إلى أرباحهم من رسوم التصدير والاستيراد المفروضة على مرور البضائع. ولم يكن استبعاد الوسطاء العرب من هذه الأنشطة ضروري لحماية مصالح البطالمة فقط، ولكن لأن مواقع الشحن في البحر الأحمر كان ينبغي استمرارها مفتوحة وتحت التأمين والسيطرة أيضاً، ومن ثم كان لابد من تنفيذ هذه السياسة والالتزام به.

وهكذا استمرت نقاط الحراسة والمحطات البحرية في البحر الأحمر وعندما بدأ الأنباط في التعرض للسفن التجارية ونهبها أثناء سيرها أو توقفها على شواطئ خليج العقبة شمال غرب الجزيرة العربية، أغارت فرقة من أسطول بطلميوس الثاني فيلادلفوس على هذه المنطقة وقابلت الأذى بمثله[٨].

بيد أن اهتمام البطالمة بأفريقيا كان لأسباب مختلفة تماماً وهذا ما أكده أجاثارخيديس في تناوله لدوافع بطلميوس الثاني للقيام بحملاته فالحماس العلمي لهذا

(*) كان بطلميوس الأول قد أورث خلفاءه من بعده مشكلة جوف سوريا التى كان قد فقدها بسبب عدم مشاركته في معركة الملوك عام ٣٠١ق.م (إيسوس) ضد أنتيجونوس الأعور فكان قرار الحلفاء إعطائها إلي سليوقس حاكم بابل الذي لم يشأ أن يدخل في صدام مع بطلميوس الأول حافظاً له الجميل عندما استضافه لاجئاً في مصر. بيد أن الحروب قد نشبت بين ملوك البطالمة في مصر والسلوقيين حول جوف سوريا فكانت الحرب السورية الأولى (٢٧٦-٢٧١ق.م) والحرب السورية الثانية (٢٦٠-٢٥٣ق.م) في عهد بطلميوس الثاني، وانهزم فيهما. أما بطلميوس الثالث فقد نجح في الحرب السورية الثالثة (٢٤٦-٢٤١ق.م) أو ما يعرف باسم حرب برينيقي ولاوديكي، في استعادة مناطق شاسعة من دولة السلوقيين. وكانت الحرب السورية الرابعة في عهد بطلميوس الرابع وذلك فيما عُرف بمعركة رفح عام ٢١٧ق.م ورغم انتصار البطالمة فيها إلا أنها كانت بداية النهاية لدولتهم حسب بوليبيوس Polybius. V. 63 and 65 وكانت الحرب السورية الخامسة في عصر بطلميوس الخامس (إبيفانيس) فيما عرف باسم معركة بانيون عام ١٩٩/١٩٨ق.م وهنا فقدت مصر جوف سوريا إلى الأبد. أما الحرب السورية السادسة فكانت ساحتها مصر ذاتها حيث غزا أنطيوخوس الرابع ملك سلوقيا مصر مرتين حيث كانت الأولى في عام ١٧٠ق.م أما الثانية فكانت عام ١٦٨ق.م وانتهت بانسحاب الأخير من مصر بعد دائرة بوبيليوس الشهيرة. ولم يكف البطالمة عن المطالبة بجوف سوريا وكانت آخر المحاولات تلك الحملة التى أرسلها بطلميوس السادس (فيلوميتور) عام ١٤٥ق.م بيد أنها انتهت مع وفاة هذا الملك. وتعرف باسم الحرب السورية السابعة. عن تلك الحروب راجع الحسين أحمد عبد الله، مصر والشرق الأدنى في العصر الهيلينستي، القاهرة، ٢٠١٠، الباب الأول، التاريخ السياسي (المترجم).

الملك ورغبته في جمع الحيوانات لحديقته في الإسكندرية بالإضافة إلى رغبته في تأمين مصادر الحصول على الفيلة الحربية كانت أهم الأسباب وراء هذه الحملة[٩].

وإذا كان الهنود قد استخدموا الفيلة في الحروب منذ بداية حضارتهم فإن الإغريق عرفوا هذا الأمر للمرة الأولى في كتابات كيتسياس الكنيدي، وكان هذا المؤرخ قد عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، بيد أن استخدام الإغريق الفعلي للفيلة كان في حملات الإسكندر، وبصفة خاصة في موقعة جوجا ميلا عام ٣٣٦ق.م، ثم أثناء غزو الإسكندر للهند عام ٣٢٦ق.م، ورغم الخلافات التي نشبت بين قادة الإسكندر في مختلف الممالك الهيللينستية، فإنهم جميعاً قد اتفقوا على الأهمية المطلقة لامتلاك الفيلة الحربية.

وفي سباق التسلح في العالم القديم للحصول على هذا النوع من الأسلحة، كان وضع البطالمة الجغرافي يفرض عليهم مثالب وأخطار منذ أن نجح منافسوهم السلوقيون في السيطرة على الطريق المؤدي إلى الهند ورفض السماح للبطالمة بالمرور إلى مصدر الفيلة. ولم يكن ذلك يمثل مشكلة خطيرة في السنوات الأولى من العصر البطلمي، ذلك أن بطلميوس الأول (٣٠٥-٢٨٢ق.م) كان قد نجح في الحصول على بعض الفيلة الخاصة بالإسكندر نفسه في موقعة غزة ٣١٢ق.م[*] بيد أن الموقف كان قد اختلف في عام ٢٧٥ق.م مع بداية الحرب السورية الأولى، فعمر الفيل يقترب من عمر الإنسان أي حوالي سبعين عاماً[١٠]، وكان قد مضى خمسون عاماً منذ حصول بطلميوس الأول عليها أو منذ قدومها من الهند، ومن ثم كانت الفيلة التي بحوزة بطلميوس الثاني قد تقدمت في السن بدرجة لا تسمح لها بالمشاركة الفعالة في المعركة ومواجهة الفيلة الهندية القوية حديثة السن الموجودة في صفوف جيش أنطيوخوس الأول (٢٨١-٢٦١ق.م).

وقبل منتصف سبعينيات القرن الثالث قبل الميلاد تقلص النشاط البطلمي على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر لعدة عوامل لعل أهمها اكتشاف التوباز في جزيرة الزبرجد جنوب رأس باناس. ونظراً لحاجة بطلميوس الثاني فيلادلفوس للتوصل إلى مصدر آخر للفيلة بعيداً عن القبضة السليوقية فإنه عمد إلى التدخل في شئون الساحل

(*) حيث استطاع بطلميوس الأول هزيمة ديميتروس محاصر المدن بن أنتجونوس الأعور وأسر منه ٤٣ فيلاً من الفيلة الهندية فيما كان يعرف باسم حروب الخلفاء، عن ذلك راجع، Diodorus, XIX 82-4. (المترجم).

الغربي للبحر الأحمر ووادي النيل جنوب مصر. وعلى مدار نصف القرن التالي كان الاتجاه لتأسيس محطات الصيد ونقاط الحراسة في مواقع مختلفة على طول الساحل الأفريقي للبحر الأحمر وكذلك في الجزر المتاخمة للساحل المصري للبحر الأحمر وحتى مضيق باب المندب وما وراءه.

وكانت الخطوات الأولى في هذا الاتجاه هي إعادة تشغيل القناة القديمة(*) التي تربط بين النيل والبحر الأحمر عبر وادي طليمات والبحيرات المرة في أواخر سبعينات القرن الثاني قبل الميلاد وتأسيس ميناء أرسينوي بالقرب من رأس خليج السويس، كما تم تأسيس موانئ احتياطية في الجنوب عند ميوس هورموس وفيلوتيرا في موقع ميناء قديم للدولة الوسطى في مرسى جواسيس(**) عند مدخل وادي جاسوس وأخيراً مدينة الحراس أو برينيقي تروجودتيكا في أقصى شمال الخليج الملوث.

وكان ميناء برينيقي(***) هو أكثر هذه الموانئ أهمية وكان ينتظره مستقبل زاهر، فقد كان يمثل قاعدة لكل النشاط البطلمي جنوب البحر الأحمر ومركزاً تجارياً يفصل الطريق من البحر الأحمر إلى النيل عند قفط(****) تلك الطرق التى اكتشفها بطلميوس الثاني وزودها بمحطات المياه(١١). وفي نفس الوقت كانت الحملات أو الرحلات الاستكشافية تتجه إلى ما بعد ذلك جنوباً حيث سواحل السودان بحثاً عن مواقع إضافية تصلح للاستقرار وصيد الفيلة. ونجح ضابط يوناني يدعى يوميديس في تأسيس مركز بطلمي في عقيق على بعد نحو خمسين ستاداً جنوب بور سودان وعاد إلى مصر بأول قطيع من الفيلة حوالي سنة ٢٧٠ق.م، وتعد ستينات القرن الثالث قبل الميلاد هي بداية أول نشاط بطلمي ناجح في البحر الأحمر.

(*) هي قناة سيزوستريس الفرعونية بيد أن المصادر الكلاسيكية تتضارب فيما بينها حول وجود هذه القناة. عن ذلك راجع أبو اليسر فرح، النيل في المصادر الإغريقية، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٤ (المترجم).

(**) عن الموانى المصرية القديمة على البحر الأحمر، راجع عبد المنعم عبد الحليم، البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣ (المترجم).

(***) الحسين أحمد عبد الله، ميناء برينيقي ونشاطه التجاري في القرن الميلادي الأول، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، ٢٠١١م (المترجم).

(****) عن طريق قفط برينيقي راجع:

- Alhousein Abdulla, Seven Remarks Upon Brenecie-Coptos Route in Roman Period. ARAM Thirtieth International Conference: Trade Routes & Seafaring in the Ancient Near East (The Oriental Institute, Oxford) 04-06 July 2011 (المترجم).

وفي الوقت نفسه تمكن بطلميوس الثاني من القضاء على المقاومة الشعبية لمشروعاته في وسط وشرق السودان و شعوب سواحل البحر الأحمر مستخدماً الوسائل الدبلوماسية، بينما استخدم القوة العسكرية لمواجهة معارضة مملكة مروى في أعالي وادي النيل.

ولا نملك حتى وقتنا الحالي معلومات عن حملة بطلميوس الثاني على بلاد النوبة، ولكن نتائجها واضحة(١٢). فقد تمكن من ضم دوديكاسخوينوس = (١٢ فرسخاً(*)) ومناجم الذهب في وادي علاقي، ومع أن مروى نفسها ظلت مستقلة عن مصر، فإن النفوذ المصري كان يتغلغل بوضوح في سياستها وثقافتها، وكان ملك مروى المعاصر لبطلميوس الثاني يدعى إيرجامينيس الأول Ergamenes I وكان الأخير قد تلقى تعليمه في اليونان(١٣). وفي عهده كان المصريون يستوردون السلع الفاخرة ويخزّنونها ويحرصون على اقتنائها حتى بعد الموت، بينما كان حاملو الهدايا الإثيوبية والعبيد يتم استعراضهم في موكب بالإسكندرية تحت رعاية بطلميوس الثاني. وكان الإغريق من كل الفئات، وخاصة صيادو الفيلة، يسافرون في حرية تامة ويتجولون في كل بقاع مملكة مروى.

ونتيجة لذلك فقد شهد ما تبقى من عهد بطلميوس الثاني نشاطاً مكثفاً في صيد الفيلة، ربما بمساعدة أهل مروى، وذلك في وادي بركة، وفي المنطقة الواقعة بين كسلا الحالية وسينّار Sennar(**) ثم تنقل عن طريق البحر إلى مصر. وكانت الرحلة الطويلة التي وصف أجاثارخيديس أخطارها تنتهي في ميناء برينيقي (مدينة الحراس) ثم يقطعون الطريق بعد ذلك عبر الصحراء تحت إشراف شخص مكلف رسمياً بهذه المسئولية إلى

(*) الفرسخ: وحدة قياس طول تساوي ١٢ ألف ذراع أو ما يعادل ٣ أميال (المترجم).

(**) أشار إلى هذا الميناء صاحب كتاب الطواف في البحر الإريثري في الفقرة الرابعة ولكن تحت اسم كوانيون Kuaneion وتقع على الطريق بين كسلا وسواكن. (وبعد ميناء بطلمية الوحوش بثلاثة آلاف ستاد «ستة أيام إبحار» نصل إلى ميناء أدوليس وهو ميناء رسمي للتجارة يخضع لإدارة الملك وتحصل فيه رسوم تجارية، وتتردد عليه السفن وعلى بعد ٢٠ ستاد منه إلى الداخل تقع مدينة أدوليس ومنها نصل إلى بلدة كلوي بعدة مسيرة ثلاثة أيام «وهي أول سوق للعاج». وبعد مسير خمسة أيام أخرى نصل إلى مدينة الأكسوميين حيث يحضر العاج إليها من البلاد التي تقع وراء نهر النيل من إقليم كوانيون ومنها إلى ميناء أدوليس. وفي هذا الميناء يعرض العاج للبيع كما يحضر آكلو الأسماك دروع السلاحف إليه. ***PME***. 4 وراجع أيضاً الفقرات من ٥٤-٥٦ من هذا الكتاب (المترجم).

أن يصلوا إلى طيبة ثم تتجه الرحلة عبر النيل إلى المقر الرئيسي للفيلة بالقرب من ممفيس (ميت رهينة – الجيزة) وفي منتصف عام ٢٤٠ق.م كان قطيع الفيلة البطلمي يمثل قوة تكفى بطلميوس الثالث (٢٤٦-٢٢٢ق.م) أن يستخدمها بفاعلية أثناء حملته الآسيوية التى بدأ بها الحروب السورية الثالثة (٢٤٦-٢٤١ق.م).

واستمر صيد الفيلة في عهد بطلميوس الثالث (يورجتيس الأول) وبطلميوس الرابع فيلوباتور (٢٢٢-٢٠٥ق.م) ولكن بطرق جديدة وفي مناطق مختلفة. فقد كانت حملات الصيد في بعض الأحيان تضم أعداداً كبيرة من الرجال مثل الحملة التى كانت تضم ٢٣١ رجلاً وأشارت إليها بردية ترجع إلى عام ٢٢٤ق.م[١٤].

وتم إعادة تنظيم هذه الحملات في عهد بطلميوس الثالث والرابع فأصبحت تحت قيادة ضابط برتبة استراتيجوس (Strategos) ولم تعد تتوجه إلى إثيوبيا مثلما كان الحال في عهد بطلميوس الثاني، ولكن إلى سواحل البحر الأحمر في إريتريا وإثيوبيا وصولا إلى الصومال[١٥]. ولا يوجد تفسير لهذا الاتجاه الجديد في المصادر التاريخية، ولكن يمكن فهمه في ضوء أحداث الربع الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد حيث ارتفعت أسعار العاج في منطقة البحر الإيجي بنحو ٥٠% وهو ما يُفسر اتساع دائرة استغلال الفيلة ليس في الحروب فقط بل في إنتاج العاج أيضاً، وليس لدينا دليل قاطع في هذا الصدد، بيد أن الجهود المكثفة لاكتشاف مناطق جديدة للصيد في عهد بطلميوس الثالث والرابع تشير إلى أن الأراضي الإثيوبية لم تعد تكفي وحدها. وعلى أية حال فقد تضاعفت الجهود البطلمية على طول ساحل البحر الأحمر جنوب بطلمية في مجال صيد الفيلة، وقدم لنا سيبياس وصفاً لساحل البحر الأحمر من بطلمية الصيد (أو الوحوش) وسكانه حتى باب المندب ويعتبر هذا التقرير أحد المصادر الرئيسية التى اعتمد عليها أجاثارخيديس في تناوله للساحل الأفريقي للبحر الأحمر. وتم تأسيس ميناء جديد يصل إلى مناطق صيد هامة داخل إثيوبيا، وكان هذا الميناء يقع في أدوليس، مصوّع الحالية[١٦]، بالقرب من موقع تجاري قديم جنوب شبه الجزيرة العربية، وفي عهد بطلميوس الرابع تم تأسيس موانئ ومحطات صيد إضافية بعد مضيق باب المندب على طول الساحل الشمالي الشرقي للصومال[١٧]. وكما بدأت عمليات صيد الفيلة فجأة توقفت

فجأة أيضاً، ويظل هذا التراجع مثيراً للجدل وكانت عمليات الصيد هذه هي السبب الرئيسي للتواجد البطلمي في حوض البحر الأحمر لثلاثة أرباع قرن من الزمان.

وفي معركة رفح عام ٢١٧ق.م واجهت فيلة البطالمة تحدياً كبيراً وفشلت فيه أمام الفيلة الهندية الأقوى بدناً والأكبر حجماً والتى كان يمتلكها أنطيوخوس الثالث (٢٢٣-١٨٧ق.م) ذلك أن الفيلة الأفريقية، وعددها ٧٣ فيلاً وهو أكبر عدد ضمه جيش بطلمي، التى كان يمتلكها جيش بطليموس الرابع تراجعت أثناء المعركة وتسببت في كارثة للجيش البطلمي. وفي العقد التالي كان الوجود البطلمي نفسه في مصر يتعرض للتهديد لأول مرة فمنذ غزو الإسكندر الأكبر لمصر عام ٢٣١ق.م. شعر المصريون بدورهم في انتصار بطليموس الرابع في معركة رفح، وأعلنوا الثورة ضد الوجود البطلمي(*) بمساعدة من أركامان Arqaman ملك مروى. ففي الفترة من ٢٠٦ - ١٨٦ق.م أصبحت مصر العليا من طيبة إلى الشلال الأول مملكة مستقلة تحت حكم اثنين من الملوك المحليين، هما هورجونافور Hurgonaphor خاؤونوفريس Chaonnophris(**)، وتمكنت قوات مروى من احتلال دوديكاسيثنوس(***). وبدأ بطليموس الخامس في القتال لاستعادة السيطرة على مصر العليا، ولم يعد بوسعه تدبير تكاليف حملات صيد الفيلة، وخاصة بعد إخفاق هذا السلاح مع بطليموس الرابع في معركة رفح. ورغم سياسة بطليموس السادس فيلوميتور (١٨٠-١٤٥ق.م) ونشاطه في بلاد النوبة خلال الربع الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد ونجاحه في الوصول بالحدود المصرية الجنوبية من شمال النوبة إلى الشلال الثاني، فإن خلفاءه لم يتمكنوا من الحفاظ عليها(١٨).

(*) عن ثورات المصريين وحركة المقاومة الوطنية ضد حكم البطالمة راجع محمد عواد حسين وعبد اللطيف أحمد علي، كفاحنا ضد الغزاة، القاهرة، ب.ت.

(**) كانت منطقة طيبة أحد معاقل الثورة، إذ أنها بزعامة كل من أرماخيس (Armachis) وأنخماخيس (Anchmachis) اللذان اشتبكا فى صراع عنيف مع بطلميوس الرابع فيلوباتور ومن بعده مع ابنه بطلميوس الخامس (إيبفانيس) قد أعلنا الاستقلال بإقليم طيبة فى الفترة من (٢٠٦ - ١٨٦ ق.م) ويبدو أن ظهور وظيفة الإبستراتيجوس في مثل هذه الظروف العصيبة كان لمواجهة هذه الثورات، وأن أول من تولى هذه الوظيفة كان شخصاً يدعى هيبالوس Hippalos وذلك على عهد بطلميوس الخامس (إيبفانيس)، راجع: الحسين أحمد عبد الله، الإدارة والقانون في مصر الرومانية، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٨ (المترجم).

(***) عن دوديكاسيثنوس = ١٢ فرسخاً، راجع: عبد اللطيف أحمد علي، مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٨ (المترجم).

وفي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد عادت الحدود إلى جنوب دوديكاسثينوس، شمال الحدود الرومانية في هيراسكيموس (المحارقة حالياً) ومع نهاية الحكم البطلمي في مصر عام ٣٠ق.م تراجعت الحدود المصرية الجنوبية إلى أسوان. وخلال القرن الأخير من حكم البطالمة اقتصر نشاطهم في البحر الأحمر على تشجيع التجارة مع أقاليم إنتاج البخور في جنوب الجزيرة العربية والصومال(*)، والهند وخاصة بعد اكتشاف الرياح الموسمية ومعرفة سر الطريق إلى الهند في الربع الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد(**). كما اهتم البطالمة بطرق الصحراء الشرقية الواصلة بين طيبة وموانئ البحر الأحمر وزودها بالحراس، وأقاموا حاميات عسكرية لحماية ساحل البحر الأحمر من القراصنة. أما فيما يخص المنشآت على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، والتى أنشئت منذ عهد بطليموس الثاني وخلفائه، فقد بقي منها بطلمية الصيادين وأدوليس[١٩] أما المواقع الأخرى التى كانت مخصصة لصيد الفيلة الإفريقية وتعتمد في وجودها على الإمدادات التى تتلقاها من مصر فقد اختفت[٢٠].

هكذا انتهت سياسة بطلميوس الثاني الجنوبية. ورغم نتائجها غير الجيدة فقد ظلت تداعياتها قائمة فيما بعد. حيث بدأت العلاقات التجارية بين مصر والبلاد المطلة على البحر الأحمر وأصبحت هذه العلاقات رافداً مهماً في نمو التجارة بين حوض البحر المتوسط والهند وهو ما ميز القرون الأولى بعد الميلاد فضلاً عن دورها في إثراء المعارف الجغرافية.

ويبالغ أجاثارخيديس كثيراً عندما قال بأنه قبل حملة بطليموس الثاني على النوبة لم يكن الإغريق قادرين على الوصول إلى الحدود الجنوبية لمصر، ومن هنا كان سفره إلى السودان بمفرده نتيجة انعدام الأمن هناك وكان له مبرراته في ذلك، وكانت حملة

(*) عن تجارة المنتجات العطرية راجع مصطفى كمال عبد العليم، تجارة الجزيرة العربية مع مصر في المواد العطرية في العصرين اليوناني والروماني، كتاب تاريخ الجزيرة العربية، إعداد عبد الرحمن الأنصاري، الرياض، ١٩٨٢م، جـ٢، ص ص ٢٠١-٢١٣.

(**) عن أسطورة هيبالوس، راجع: حسن صالح شهاب، أسطورة هيبالوس والملاحة في المحيط الهندي، الجمعية الجغرافية، الكويت، ١٩٨٧، وراجع أيضاً، مصطفى العبادى، ميناء الإسكندرية وخطوط الملاحة العالمية فى العصرين البطلمى والرومانى، ندوة سواحل مصر الشمالية عبر العصور إعداد، عبد العظيم رمضان. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص٥٦ (المترجم).

الملك المصري بسماتيك الثاني (٥٩٥-٥٨٩ق.م) على النوبة في عام ٥٩٣ق.م هي أول معرفة الإغريق بالنوبة حيث شاركوا كمرتزقة في الجيش المصري(*) أما في القرون التالية كانت مشاركتهم في الحامية العسكرية الموجودة في أسوان أو زاروها كرحالة مثلما فعل هيرودوت(**) الذي زار أسوان في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد[٢١] وكانت حملة بطلميوس الثاني على أية حال تمثل بداية منهجية لعملية جمع معلومات حول الأقاليم التى تقع جنوبي مصر. وتبدو نتائجها في فقرات من كتاب «الجغرافيا» الذي ألفه إيراتوسثنيس القوريني في القرن الثاني قبل الميلاد، والذي يتضمن وصفاً دقيقاً لسواحل البحر الأحمر والنيل في مصر العليا والنوبة وكذلك الوصف التفصيلي للحياة السياسية في السودان، وإن كانت التقارير التى اعتمد عليها إيراتوسثنيس في رسم خريطته التى لم تصل إلينا، ولكن لحسن الحظ فإن معظم هذه التقارير بقيت في فقرات كتاب أجاثارخيديس *«عن البحر الإريثري»*.

(*) عن وجود مرتزقة إغريق في جيش بسماتيك الثاني، راجع جونتر فيتمان، مصر والأجانب في الألفية الأولى قبل الميلاد، ترجمة عبد الجواد مجاهد، المركز القومي للترجمة، عدد ١٣٢٩، القاهرة، ٢٠٠٩ (المترجم).

(**) عن ترجمة الكتاب الثاني من تاريخ هيرودوت راجع: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة أحمد فخري، مراجعة محمد صقر خفاجي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩م، وراجع كذلك، هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٧م.

السيرة الذاتية لأجاثارخيديس:

فيما يتعلق بمؤلفات أجاثارخيديس فإن لها أهمية كبرى فيما يخص الكشوف الجغرافية وإن كانت أعماله لم تقرأ كثيراً في العصر القديم ومعظمها الآن مفقود، ولم يتبق منها غير أجزاء من كتابه *«عن البحر الإريثري»* ظلت في القسطنطينية حتى القرن التاسع الميلادي حيث ظهرت إلى النور على يد أحد علماء الدراسات الكلاسيكية المميزين وهو بطريرك القسطنطينية المدعو فوتيوس، الذي أوضح أهمية كتاب أجاثارخيديس كأحد المصادر الخاصة بالتقارير الكلاسيكية عن النوبة والبحر الأحمر[٢٢].

ومعلوماتنا عن حياة أجاثارخيديس قليلة، وهذا القليل أشار إليه سترابون في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد حيث قال إن أجاثارخيديس كان واحداً من المشائين[٢٣] وكذلك الحال أورد فوتيوس مقالة موجزة عن حياته في الفقرة رقم ٢١٣ من كتابه «المكتبة» أما أجاثارخيديس نفسه فقد أورد إشارات قليلة عن نفسه في كتابه *«عن البحر الإريثري»*. ومن هنا لا نجد سوى ثلاث حقائق مؤكدة حول حياته، **الأولى** تخص مولده في كنيدوس جنوب غرب الأناضول، **والثانية** أن كتابه *«عن البحر الإريثري»* هو آخر أعماله، **والثالثة** أنه كُتب قبل عام ١٠٠ق.م حيث كان أرتيميدوروس Artemidorus من إفسوس قد نقل عنه في كتابه الحادي عشر عن جغرافية العالم.

وفي ظل هذه المعلومات غير المؤكدة فالخطأ وارد، ففي الاقتباس المطوّل الذي أخذه فوتيوس من الكتاب الأول من مؤلف أجاثارخيديس *«عن البحر الإريثري»* نجد حديثاً عن عمل عسكري في السودان موجه إلى بطلميوس (غير محدد) من أحد مستشاريه الأكبر سناً والذي يصف نفسه (بالوصي على جسدك وعلى كل المملكة) وعادة تفسّر هذه العبارة على أن المتحدث كان وصياً على ملك صغير السن.

وافترض الناشرون الأوائل لكتاب *«عن البحر الإريثري»* أن المتحدث هو «أجاثارخيديس» نفسه، وأن الملك هو بطلميوس التاسع ١١٦-١٠٧ق.م، حيث كان من المعتقد أن أجاثارخيديس رمزاً رئيسياً في التاريخ السياسي في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد في مصر.

ويبدو هذا التفسير مقنعاً لأول وهلة، بل إنه ظهر في مراجع مهمة من فترة إلى أخرى حتى في عصرنا الحديث رغم الحقيقة الواضحة بعدم صحة هذا الافتراض. ففي عام ١٨١٠م أوضح المؤرخ الدانمركي B.G. Niebuhr[٢٤] أن المستشار المشار إليه في كتاب أجاثارخيديس لا يمكن أن يكون هو أجاثارخيديس نفسه وإذا كانت آراء الباحثين قد تعددت في هذه المسألة فإن معظمهم يتفق على أن المتحدث هو أريستومينيس من أكارنانيا Aristomenes of Acarnania وأن الأخير كان وصياً على بطليموس الخامس إبيفانيس[*] في بداية تسعينات القرن الثاني قبل الميلاد، وأن الحارس الشخصي بطليموس الثاني[٢٥] كان يحمل نفس الاسم. وعلى كل حال فإن هذا الحديث لا يضيف جديداً فيما يتعلق بالسيرة الذاتية لأجاثارخيديس.

والدليل الفعلي على صحة ما ذكرناه آنفاً هو أن أصول أجاثارخيديس كانت متواضعة. فوفقاً لرواية فوتيوس فإنه كان موضوعاً تحت الحماية Threptos، بل لعله من عبيد كينياس Cineas ثم عمل سكرتيراً وقارئاً لهيراكليديس ليمبوس Heracleides Lembus[٢٦] وكلاهما كان من الرموز السياسية في مصر خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد. وكان كينياس مستشاراً لبطلميوس السادس في أواخر سبعينيات القرن الثاني قبل الميلاد وكان وصياً مساعداً للملك الصغير في ستينيات القرن الثاني قبل الميلاد وكان هيراكليديس مسئولاً عن المفاوضات الدبلوماسية التى أفضت إلى توقيع المعاهدة التى أنهت غزو أنطيوخوس الرابع لمصر في عام ١٦٩ق.م، ويبدو أن عمل أجاثارخيديس لدى هيراكليديس قد جاء نتيجة لتعاون الأخير مع كينياس خلال الحرب السورية السادسة (١٧٠-١٦٨ق.م).

(*) يعد بوليبيوس (Polybius) أهم مصادرنا عن العلاقات بين روما ومصر ، ذلك أن والده Lycortes كان على علاقة بالبلاط الملكى فى عصر بطلميوس الخامس إيبفانيس ، أما بوليبيوس نفسه فقد زار مصر فى عصر بطلميوس الثامن (يورجتيس الثانى) . وربما كان برفقة إسكيبيو اميليانوس فى عام ١٤٠/١٣٩ ق.م. ويغطى بوليبيوس أحداث الفترة من ١٦٨ – ١٥٢/١٥١ ق.م. فى كتبه Polyb . XXX-XXXIII. من أهم الدراسات عن بوليبيوس:

F.W. Walbank, A historical commentary on Polybius. Oxford. (1979) II 353-4.

– راجع: مصطفى العبادى: نشأة الفكر التاريخى عند الإغريق وتطوره ، عالم الفكر ٢٠٠٢ . ص ص ٣٤-٤٠ (المترجم).

ولم يكن هيراكليديس دبلوماسيا فحسب، بل كان أيضاً العضو الأصغر في المدرسة المشائية وإن كان مثل هذا الكاتب المميز، صاحب الأعمال السبعة والثلاثين كتاباً في التاريخ فضلاً عن بعض الكتب الأقل حجماً أو شأناً، لم يتبق من كل أعماله سوى مقتطفات مختصرة من مجموعة أرسطو لدراسات الدستور في مختلف المدن اليونانية. وربما كان أجاثارخيديس قد أخذ عن هيراكليديس اهتمامه بالجوانب الأدبية والأكاديمية أكثر من الفلسفية في التراث الأرسطي، وهو ما يبدو بوضوح فيما تبقى من أعماله. ففي ملاحظة فوتيوس حول عمل أجاثارخيديس كقارئ ومشرف أرشيف، يقول إن هيراكليديس كان السبب في شهرته أو على الأقل في انتشاره. هذه العبارة لا تحمل تفسيراً آخراً، ولكن حيث إن فوتيوس أشار أيضاً لأجاثارخيديس كلغوي، أي معلم للخطابة والأدب، فمن الممكن أن يكون هيراكليديس قد استخدم نفوذه وساعده لتأمين نجاحه في هذه الحرفة. ورغم جذوره المتواضعة، فقد تمكن أجاثارخيديس أن يكون قريباً من النخبة السياسية في مصر خلال عهد بطلميوس السادس، وهو ما أدى إلى تسهيل عمله الأدبي وتمكينه من الوصول إلى المصادر الرسمية والحكومية، وقد كان هذا عاملاً في غاية الأهمية ساعده في كتابة مؤلفه *«عن البحر الإريثري»* وأعماله الأخرى.

ولسوء الحظ، فإذا كانت العلاقات السياسية هي التى منحت أجاثارخيديس فرصة الكتابة فإنها هي نفسها التى وضعت نهاية آخر أعماله *«عن البحر الإريثري»* دون أن يكتمل. ففي مقدمة ذلك الكتاب يقول أجاثارخيديس إنه اضطر لقطع تواصله مع هذا العمل نتيجة الضغوط التى تعرض لها بسبب الشيخوخة وبسبب الاضطرابات في مصر والتى جعلت من المستحيل له أن يستخدم الأرشيف الملكي. فإذا أضفنا إلى ذلك ما ورد في الجزء الأول من نفس الكتاب من إشارات إلى شخص فارسي يعيش في أثينا ويدين بشدة أفعال البطالمة في مناجم الذهب في وادي علاقي كما جاء في الكتاب الخامس. كما تشير كلمات أجاثارخيديس حول «الاضطرابات في مصر» فإنه من المحتمل أن يكون أجاثارخيديس قد أنهى حياته كلاجئ سياسي في المنفى، ولكن متى[٢٧] ؟

ثمة مناسبتان ممكنتان لهذا النفي، أما الأولى فهي سنة ١٤٥ق.م حين طارد بطلميوس الثامن (١٤٥-١١٦ق.م) مثقفي الإسكندرية بسبب تأييدهم لشقيقته كليوباترا الثانية أرملة بطلميوس السادس وابنها بطلميوس السابع (١٤٥/١٤٤ق.م) والثانية في سنة

١٣٢ق.م عندما طُرد بطلميوس الثامن من مصر عقب ثورة الإغريق في الإسكندرية تأييداً لكليوباترا الثانية، ثم عاد واتخذ إجراءات انتقامية ضد سكان المدينة. ويرى معظم الباحثين أن أحداث عام ١٣٢ق.م هي التى كان يقصدها أجاثارخيديس في حديثه عن الاضطرابات في مصر، ومن هنا يرجعون تاريخ كتابه *«عن البحر الإريثري»* إلى ما بعد ذلك التاريخ بقليل[٢٨].

ويعتمد هذا التفسير في الأساس على إشارة أجاثارخيديس إلى «تقدمه في العمر» وهو سبب ضعيف في ظل عدم معرفتنا بتاريخ ميلاده، أو تاريخ نفيه، وثمة مناسبتان أشار إليهما أجاثارخيديس في كتابه *«عن البحر الإريثري»*[٢٩] ربما تساعدان في معرفة تاريخ نفيه، أما الأولى فيقول فيها إن تجارة البخور العربية قد أنعشت سوريا البطلمية وذلك حتى انتصار أنطيوخوس الثالث في الحرب السورية الخامسة (٢٠٠-١٩٧ق.م) وتعد هذه الملاحظة دليلاً على أن أجاثارخيديس قد اعتمد على مصادر من القرن الثالث أكثر من القرن الثاني، ولكن هذا يؤدي بدوره إلى تجاهل حقيقة هامة، وهي أنه مع أن نفوذ البطالمة في جوف سوريا قد انتهى عام ١٩٧ق.م فإن البطالمة لم يتوقفوا طوال القرن الثاني قبل الميلاد عن ادعاءاتهم بملكية هذه المنطقة بل إن بطلميوس السادس ختم عهده بمحاولة فاشلة لاستعادة المنطقة ولم تنتنه هذه المحاولة إلا بوفاته بينما كان على وشك تحقيق هذا الهدف[٣٠]. كما أن وجهة نظر أجاثارخيديس كانت انعكاساً لآراء أعضاء نافذين في حكومة بطلميوس السادس مثل كينياس وهيراكليديس ليمبوس وهذا ما يؤكد أن العمل الذي بين أيدينا كان في عهد هذا الملك. أما الإشارة الثانية فهي أن موضوع كتاب *«عن البحر الإريثري»* هو نشاط البطالمة جنوب مصر وأن هذا الأمر قد ظل توجهاً أساسياً طوال حكم بطلميوس السادس حيث اتسعت مناطق النفوذ المصري في النوبة للمرة الأولى منذ قرن كامل، ولكنها توقفت في العام التالي لوفاته سنة ١٤٥ق.م حيث كان الصراع الأسري المتصل بين مؤيدي بطلميوس الثامن وكليوباترا الثانية قد أدى إلى تقليص النشاط العسكري المصري خارج الحدود[٣١]. وإذا أخذنا في الاعتبار الحقيقتين السابقتين فإنه يمكننا القول بأن أجاثارخيديس كان قد أنجز كتابه *«عن البحر الإريثري»* بأكمله في عصر بطلميوس السادس ذلك أن أجاثارخيديس كان واحداً من مثقفي الإسكندرية الذين تم نفيهم في عام ١٤٥ق.م إلى اليونان وجزر البحر الإيجي وأحدثوا نهضة ثقافية هناك.

وهكذا فإن المعلومات المتاحة حول حياة أجاثارخيديس قليلة وغير مجدية، فليس ثمة ما يمكن إضافته سوى أنه قد تم نفيه وهو في سن متقدمة وربما كان ذلك عام ١٤٥ق.م وقد يسمح هذا بافتراض أن تاريخ ميلاده كان قبل عام ٢٠٠ق.م. وثمة حقيقة ذكرها أجارثاخيديس في مقدمة كتابه *«عن البحر الإريثري»* وهي أنه يترك هذا الموضوع الهام مفتوحاً أمام من يرغب في استكماله والتعامل مع تفاصيله. ومعنى ذلك أن استكمال الموضوع يتطلب دراية بالمصادر وموهبة حسن العرض بالإضافة إلى الرغبة في العمل الجاد، وهي نفس الصفات التى يجب توافرها في المؤرخ – بصفة عامة – وفق رؤية أجاثارخيديس. بينما لم يشر في رؤيته هذه إلى أهمية دقة الملاحظة وكثرة السفر والترحال مثلما كان يفعل مؤرخو الإغريق، وهي الخصائص التى كانت تنقص أجاثارخيديس(٣٢). ولذلك لم يشر إليها في هذا السياق. ومن ناحية أخرى فإن مخالطته للنخبة السياسية في مصر خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد قد منحته فرصة الحصول على مصادر رسمية واسعة النطاق لم تتح لغيره من مؤرخي الإغريق القدماء. ومن هنا كان تعامل أجاثارخيديس مع مادته ينحصر في إطار تبسيطها وعرضها وإن كان آخرون هم الذين قاموا بجمعها. وهكذا فإن القيمة الرئيسية لأعماله تعتمد أساساً على نوعية المصادر التى استخدمها والإخلاص والصدق الذي استخدمه في إعادة عرضها أو استنطاقها.

الأعمال المبكرة:

عندما بدأ أجاثارخيديس كتابه «*عن البحر الإريثري*» في مرحلة متأخرة من عمره، كان مؤلفاً على درجة كبيرة من الخبرة والنضج وله قائمة محترمة من الأعمال التى تزكيه. حيث ذكر في مقدمة كتابه أنه له عملان كبيران في التاريخ **الأول** عن «*الأحوال في آسيا*» ويقع في عشرة كتب، **والثاني** «*عن الأحوال في أوروبا*» ويقع في تسعة وأربعين كتاباً. ويُنسب له أيضاً من خلال فويتوس في الفقرة ٢١٣ الجزء التمهيدي من قصيدة أسطورية تسمى «Lydle» من القرن الرابع قبل الميلاد للشاعر أنتيماخوس من كولفن، ومجموعة من أعمال الكتاب الذين تناولوا الظواهر الطبيعية والبشرية في كتاب «*مقتطفات تاريخية*»، وكذلك كتاب عن الجوانب الأخلاقية للصداقة. وفيما عدا عناوين الكتب سالفة الذكر فلا يوجد ما يقال عنها سوى أنها تعكس نفس اهتمام المؤلف بالطبيعة والوجود الإنساني وهو نفس ما نجده في كتابه «*عن البحر الإريثري*». ولكن الأمر يختلف بالنسبة لكتابيه عن التاريخ، حيث يربط أجاثارخيديس بينهما وبين عمله الأخير في تقديمه لذلك الكتاب، وتؤكد هذه الصلة من خلال بعض الفقرات(٣٣).

ولم يلتفت أحد من الباحثين لكتابيه «*شئون آسيا*» و «*شئون أوروبا*» وذلك من خلال الأعمال الباقية مثل المكتبة التاريخية للمؤرخ ديودوروس الصقلي ولم يسلط الضوء على أعماله بوصفها أعمالاً تاريخية وهذا يوضح السبب في أن أعمال أجاثارخيديس لم تكن مقروءة على نطاق واسع في حينها. وهكذا فإنه من بين الفقرات الاثنتين والعشرين الباقية، هناك ست عشرة، أي ثلاثة أرباع الإجمالي، قد تم حفظها في القرن الثالث الميلادي بمعرفة مؤلف الموسوعات أثينايوس النقراطيسي، وفقرة واحدة فقط منها كانت تحتوي على بيان يشير إلى محتوياتها الأصلية. ولم يكن أمر إعادة صياغة هذين العملين مستحيلاً، ولكن الموضوعات التى يفترض أنها كانت تحتوي عليها لم تكن مؤكدة أيضاً. وهناك عدة شواهد تشير إلى أنها كانت ترتبط بعضها البعض من حيث الموضوع، ففي كتاب «**الأحوال في آسيا**» هناك سرد لتاريخ الممالك الآسيوية منذ دولة آشور حتى غزو الإسكندر لبلاد الفرس وتأسيس الممالك الهيللينستية في الشرق الأدنى بمعرفة خلفائه، وفي كتاب «**الأحوال في أوروبا**» يروى تاريخ الممالك حتى العصر الذي عاشه

أجاثارخيديس(*). والأهم من ذلك هو الكتاب الثاني *«عن شئون آسيا»* والذي يحتوي تقريراً مفصلاً عن مملكة مروى في وسط السودان وما حولها، وهناك فقرات مطولة منه مازالت باقية في الجزء الأول والثالث من المكتبة التاريخية لديودورس الصقلي وفي الكتاب السابع عشر من جغرافية سترابون[٣٤]، وهو ما يشير إلى أن أجاثارخيديس كان قد لفت الأنظار إلى إثيوبيا قبل أن يشرع في كتابه *«عن البحر الإريثري»*.

أما عن أسباب اهتمام أجاثارخيديس بهذه المنطقة فهي واضحة فنتيجة لغزو الإسكندر لإمبراطورية الفرس والحملات العسكرية والعلمية والبعثات الدبلوماسية التى كان يهتم بها هو وخلفاؤه فقد انتشرت المعرفة الجغرافية الإغريقية بشكل واسع خلال العصر الهللينستي وكان نمو المعرفة الجغرافية هو النتيجة الأكثر تأثيراً بالنسبة لآسيا حيث كانت المنطقة الممتدة من البحر المتوسط إلى الهند قد انفتحت تماماً أمام المسافرين والمستكشفين من اليونان. وكذلك الحال فإن المعارف الخاصة بالشمال الشرقي لأفريقيا في القرن الثالث قبل الميلاد، كان نتيجة لأنشطة ملوك البطالمة الأربعة الأوائل[٣٥]. وفي رأي أجاثارخيديس فإن شرق أفريقيا إقليم يختلف عن آسيا وقد أشار إلى هذا الأمر في إحدى فقرات كتابه *«عن البحر الإريثري»*[٣٦] وعلل ذلك بعدم وجود عمل كبير واضح يتناول الجانب الجنوبي من المعمورة.

وكان اختيار أجاثارخيديس لموضوع كتابه اختياراً موفقاً، فقد أحسن استغلال الفرصة حيث تجاوز هيرودوت في تقديم تقرير يوناني عن إثيوبيا، بيد أن هذا لا يعني عدم وجود نقاط ضعف في تقرير أجاثارخيديس عن إثيوبيا، فجغرافيته برغم أنها تقوم على أساس كتاب إيراتوستثيس، فإنها تفتقر إلى الدقة التى كان يتميز بها سلفه السكندري العظيم، وفي إحدى النقاط الهامة المتعلقة بحجم الشلالين الأول والثاني، كان تقديره خطأ[٣٧] وكذلك أخطأ أجاثارخيديس عند تحليله لعادات حضارة مروى، وهو التحليل الذي اكتنفه شيء من الخرافات والحساسية والعنصرية مثلما في ملاحظته بأن

(*) ترجع أهمية ما كتبه أجثارخيديس إلى ثلاثة أسباب: أ) اعتباره مؤرخاً لعصر خلفاء الإسكندر كما هو الحال في الفقرات ٢٠ب و ٨٦ف من كتاب عن شئون أوروبا. ب) إشارته إلى تتابع الممالك الزمني كما هو الحال في الفقرة ١٧ من كتابه *«عن البحر الإريثري»*. ج) استخدامه التسلسل الزمني في تأريخ الأحداث الخاصة بالممالك كما هو الحال في الفقرة رقم ٥ والفقرة رقم ٢٩أ من كتابه *«عن البحر الإريثري»*.

إيرجامينيس Ergamenes[٣٨] ملك مروى، بفضل تعليمه اليوناني، قد تعامل بالعقل مع العرف القديم الذي كان يسمح لملوك مروى بالقتل (الانتحار) بناءً على أوامر كهنة آمون وأنه أدار الأمور وفق إرادته هو[٣٩]. ورغم عيوبه ونقائصه فإن تقرير أجاثارخيديس يعد تقدماً هاماً في هذا الميدان يتفوق به على هيرودوت في أمرين:

أما الأول فهو جنوحه إلى الواقعية، فرغم أن هيرودوت كان يعلم الموقع الفعلي لمروى وأنها عاصمة المملكة وأنها تأثرت كثيراً بالثقافة المصرية، فإن تقريره لم يتضمن في ذلك الشأن سوى القليل من التفاصيل[٤٠]. وعلى العكس من ذلك كان أجاثارخيديس قادراً على تقديم معلومات كاملة وواضحة عن جوانب عديدة في مملكة مروى بما في ذلك الموقع الصحيح للمدينة وعمارتها ومبانيها، ومساحة الجزيرة ومواردها والتأثير المصري في المملكة وممارسات القرابين في الدفن الملكي. كما كان قادراً على وصف طقوس تتويج ملك مروى حتى لو لم يفهمها. **أما الأمر الثاني** وهو الأهم فهو دوره في تعديل الأفكار الإغريقية التى استمرت قروناً طويلة عن إثيوبيا.

وإحدى المشاكل المحورية للجغرافيا الإغريقية لمنطقة السودان هي كيفية التوفيق بين التصور الهوميري للإثيوبيين الذين يتمتعون بحب الآلهة ويعيشون بالقرب من المحيط وبين الحقائق الخاصة بمملكة مروى التى اتضحت بالاحتكاك المباشر معهم. وكان الحل الذي قدمه هيرودوت هو افتراض وجود دولتين متحضرتين جنوب مصر، هما مروى وإثيوبيا، حيث الحياة السوية على سواحل المحيط عند نهاية المعمورة جغرافياً في ذلك الوقت.

ورغم أهمية هيرودوت كمصدر لجغرافيا النوبة واستمراره كذلك حتى العصر الهيللينستي، إلا أن حركة الكشوف الجغرافية التى قام بها البطالمة جنوب حوض النيل قد أدت للتشكيك في رؤيته للإثيوبيين كشعب ذي حضارة عريقة، وهو الأمر الذي لم يأخذ به إيراتوستنيس في جغرافيته الرائدة. بيد أن كتاب إيراتوستنيس كان خريطة جغرافية لم يقرأها الكثيرون. وكان أجاثارخيديس أقل منه جرأة واندفاعاً ولم يتفق معه في الإنكار التام للدور الحضاري للإثيوبيين، ولكنه جمعهم مع باقي الشعوب الصغيرة في جنوب السودان[٤١] وركز اهتمامه على مروى والتى جعلها محوراً للاهتمام الإغريقي بالسودان في هذه المرحلة. فصب اهتمامه على دراسة قوة هذه الحضارة وضعفها وتأثيرها على ما حولها ومن هنا جاء كتاب أجاثارخيديس الأخير «*عن البحر الإريثري*» مركزاً على حضارة مروى.

كتاب «عن البحر الإريثري»:

على خلاف العملين التاريخيين الكبيرين لأجاثارخيديس يبدو كتابه *«عن البحر الإريثري»* أكثر وضوحاً في نسبته للكاتب وأكثر اكتمالاً فيضم كتاب فوتيوس المسمى «المكتبة» في الفقرة ٢٥٠، خمس وخمسين صفحة من هذا العمل، وهي على النحو التالي ١٢ فقرة من الكتاب الأول و ٤٣ فقرة من الكتاب الخامس. وهناك اتفاق منذ زمن طويل على أن تقارير البحر الأحمر التى أوردها ديودوروس في الكتاب الثالث من مكتبته التاريخية، بداية من الفقرات ١٢ حتى ٤٨، وما ذكره سترابون في الكتاب السادس عشر، الفصل الرابع، الفقرات من ٥-٢٠ منقولة من كتاب *«عن البحر الإريثري»*. حيث اعتمد عليها ديودورس بشكل مباشر، واعتمد عليها استرابون عبر مصدر وسيط، وهذا الوسيط هو كتاب جغرافية العالم لأرتيميدوروس(*) من إفسوس. وعلى كل حال بقيت من كتاب أجاثارخيديس أكثر من مائة فقرة في سياق متصل، وهي تشكل ٢٠% من إجمالي العمل وتعد أفضل مثال معروف لأدب النثر السكندري. ومن هنا يبدو مدهشاً رفض العلماء لأصل هذا العمل وفصله.

ولم يبد فوتيوس، الذي كان قادراً في حينه على قراءة الكتاب في صورته الأصلية، أي قدر من الشكوك حوله ككتاب في التاريخ، وهو الأمر الذي رفضه العلماء من بعده، حيث اعتبروا الكتاب عملاً في الجغرافية الإقليمية وصنّفوا أجاثارخيديس ضمن مجموعات الجغرافيين الإغريق الصغار[٤٢]. وفي نفس الوقت عبّروا عن دهشتهم من عدم اهتمام أجاثارخيديس بعمليات الجغرافيا الطبيعية والتحديد الدقيق للمواقع والبقاع التى حددها الجغرافيون السكندريون[٤٣].

وقد أثار هذا الجدل عاملان، أولهما عنوان الكتاب الذي يشير إلى طبيعته الجغرافية، بالإضافة إلى عدم ترابط الفقرات الاثنتا عشرة الباقية من الكتاب الأول وهو ما أدى إلى تجاهل الباحثين لها، أما العامل الثاني فهو ضياع الكتاب الثاني والثالث والرابع تماماً، بالإضافة إلى التفسير الجغرافي والإثنوجرافيا بدءاً من الجزء الخامس

(*) أرتيميدوروس من إفسوس، جغرافي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد (المترجم).

وهناك دلائل على صحة رأي فوتيوس بأن هذا الكتاب يمثل عملاً تاريخياً أكثر منه عملاً جغرافياً، وعلى رأسها ما يقوله أجاثارخيديس نفسه في هذا السياق:

«ينقسم العالم المعروف بأكمله إلى أربعة اتجاهات، الشرق والغرب والشمال والجنوب. وقد قام ليكوس Lycus وتيمايوس Timaeus بدراسة الغرب، وهيكياتيوس Hecataeus وبازيليس Basilis بدراسة الشرق، وديوفانتوس Diophanus وديمتريوس Demetrius بدراسة الشمال، في حين أتولى استكمال دراسة المعمورة بالاتجاه إلى الجنوب»(٤٤).

والكتّاب الخمسة الذين ذكرهم أجاثارخيديس تدور أعمالهم في إطار التاريخ الإقليمي، ومن هنا يمكن اعتبار كتاب *«عن البحر الإريثري»* عملاً من أعمال نفس هذا التخصص. وهناك ثلاث حقائق تؤكد ذلك، **أولهما** وجود أحاديث ومكاتبات تتميز بها الكتابات التاريخية وليس الجغرافية، **وثانيهما** أن وصف عمليات ومناطق صيد الفيلة في عهد بطلميوس الثاني تبدو دراسة جغرافية على طريقة السرد التاريخي، أما ثالثها فهو ما ورد في الكتاب الخامس فقرة ٣٠ حيث تقتصر المادة الإثنوجرافية على هذا الكتاب فقط حيث يقول:

«هناك أربع قبائل رئيسية في الإقليم المتاخم لمصر من جهة الجنوب، إحداها ترتبط بالنهر وتعمل في زراعة الدخن والسمسم، وتعيش الثانية بالقرب من البحيرات وتتغذى على ألياف النباتات الرخوة وتتجول الثالثة في عشوائية وتتغذى على اللحوم والألبان، وتعيش الرابعة على صيد الأسماك».

وتختلف أوصاف المجموعات الثلاث الأخيرة عن وصف المجموعة الأولى التى تمثل الإثيوبيين العاملين في الزراعة أي مملكة مروى، والتى كان أجاثارخيديس قد أرشد قرّاءه إلى دراسته السابقة لهذا الشعب وذلك في كتابه «الأحوال في آسيا». أما الجزء الخامس من كتاب *«عن البحر الإريثري»* بما يحتويه من دراسة إثنوجرافية يعد وفقاً للباحثين المعاصرين مصدراً هاماً للغاية في التاريخ القديم لحوض البحر الأحمر، ولكنه لا يمثل سوى ملحقاً لعمل تاريخي. أما الموضوع الرئيسي للكتاب فهو ليس موضعاً للشك. وهناك أيضاً دراسة الأنشطة العسكرية المباشرة وغير المباشرة في القرن الثالث

قبل الميلاد للبطالمة في جنوب مصر، مع التركيز على حملة بطلميوس الثاني على النوبة ، والتى يقول عنها أجاثارخيديس إنها فتحت أبواب إثيوبيا أمام الإغريق على أسس ثابتة وأدت إلى جمع المعلومات حول المنطقة وشعوبها والتى قدمها في استطراده عن النيل، بالإضافة إلى الكتاب الخامس من مؤلفه *«عن البحر الإريثري»*.

إن استكمال الأعمال الناقصة مثل كتاب *«عن البحر الإريثري»* يثير مشكلة حقيقية خاصة فيما يتعلق بالتواصل مع الجزء الأول الذي يتضمن منهج وموضوع الكتاب وموضوعه ككل. وتتضمن الفهارس لدى فوتيوس ثلاث مجموعات، أولها يتضمن موضوع الكتاب فقط، أما الثانية فهي فقرات ذات أطوال متفاوتة، كما اقتبسها فوتيوس بشكل دقيق، بيد أنها فقرات منقولة دون ترتيب أو سياق متصل. ويمثل النوع الأخير مجرد فقرات أو هوامش تم نسخها كمرجع أو استخدمها جامعها في وقت سابق. وهذا النوع لا يمثل أي نتائج محددة سوى في حالة اقتباس فوتيوس والجزء الأول من كتاب *«عن البحر الإريثري»*.

والانطباع الأول قد يبدو مخيباً للآمال ذلك أن اقتباس فوتيوس يبدأ بملحوظة عن اهتمام بطلميوس الثاني بصيد الفيلة وجمع الحيوانات الغريبة. ومناقشة مطولة عن اسم البحر الإريثري ثم مناقشة طويلة عن الأسطورة الإغريقية كمصدر تاريخي، بالإضافة إلى فقرات عن تواجد أماكن الفيلة وملحوظة عن الأقاليم المتاخمة لمصر، ومقتطفات من الحديث المذكور من قبل لحث الحاكم البطلمي على دخول حرب النوبة، ثم ذكر مختصر عن الأسلحة الإثيوبية ولجوء بطلميوس إلى نوع خاص من الفرسان المرتزقة لاستكمال الحرب.

وبتحليل دقيق لما سبق اقتباسه يمكننا أن نقسم الكتاب إلى مجموعتين، **أولهما** تضم الفقرات من الأولى إلى التاسعة والتى تتناول بداية النشاط البطلمي في البحر الأحمر، **أما المجموعة الثانية** فتضم الفقرات من العاشرة إلى العشرين وتتحدث عن وادي النيل الأعلى. فتشير الفقرة الأولى إلى دوافع بطلميوس الثاني لاستكشاف البحر الأحمر وإثيوبيا مع التركيز على اهتمامه بصيد الحيوانات الغريبة وخاصة الفيلة. في حين تتحدث الفقرات من الثانية إلى الخامسة عن الاشتقاق الصحيح لاسم البحر الإريثري، ويعد ذلك مقدمة طبيعية للحديث عن البحر الإريثري بينما تتحدث الفقرة التاسعة عن المناطق التى توجد بها الفيلة وتمثل عودة إلى موضوع الفقرة الأولى، أما عن موقفه من

استخدام الأسطورة كمصدر تاريخي فجاءت الإشارة إليه في الفقرات من السادسة إلى التاسعة. ويرجع هذا الترتيب في الكتاب الأول إلى فوتيوس واهتمامه بالموضوع من منطلقات دينية وأدبية، فقد كان عمله ملحقاً منهجياً لمناقشة أصل اسم البحر الإريثري والهدف منه تدعيم رأي أجاثارخيديس في رفض الاشتقاق الأسطوري لاسم البحر كما أوضح في الفقرة الثامنة.

بيد أن العلاقة واضحة بين الفقرات من العاشرة إلى العشرين وحملة بطلميوس الثاني فيلادلفوس على النوبة حيث تتعرض الفقرات من العاشرة إلى الثامنة عشر لأسباب الحرب ويختتم هذا الجزء بتقرير عن الاستعدادات للحرب في الفقرتين التاسعة عشرة والعشرين. ومن المفترض أن الأجزاء الثلاثة الباقية كانت تتناول الحرب نفسها بالإضافة إلى الأنشطة الأخرى للبطالمة في إثيوبيا. وكما هو الحال في أعمال أجاثارخيديس الأخرى، فإن كتاب *«عن البحر الإريثري»* يكتسب قيمته الرئيسية من التناول الإثنوجرافي أكثر من الروايات التاريخية، ومن ثم بينما كانت الأجزاء الأربعة الأولى فقيرة وثائقياً، فإن الجزء الخامس وصل إلينا كاملاً تقريباً. ففي كتاب «الشئون الآسيوية» ينسب أجاثارخيديس إلى بطلميوس الثاني الفضل في إمداد الإغريق بالمعلومات الدقيقة عن إثيوبيا(٤٥) ويورد ملخصاً وافياً لهذه المعلومات في الجزء الخامس من كتاب *«عن البحر الإريثري»*.

وترجع الإثنوجرافيا الإغريقية لقرون سابقة قبل شروع أجاثارخيديس في تأليف الجزء الخامس من كتاب *«عن البحر الإريثري»* وكان قد تم وضع معايير قياسية لمثل هذه الأعمال في ذلك الوقت. وكانت الدراسة الإثنوجرافية تتناول سمات الدولة أو المنطقة التى تدرسها مشيرة إلى سكانها والظواهر غير الطبيعية التى ترتبط بها وهذا ما التزم به أجاثارخيديس في الجزء الخامس من كتاب *«عن البحر الإريثري»* وخاصة في الفصول التى تتناول الساحل الإفريقي للبحر الأحمر. وهكذا، فبعد المقدمة التى تعرض فيها لمحاولات وإسهامات سابقيه من الكتاب وإبراز جهودهم ثم التوصل إلى المنهج النموذجي الصحيح لدراسة هذا النمط من خلال عرض الحياة الصعبة لعمال مناجم الذهب بوادي علاقي، وفي الأقسام التالية تعامل المؤلف بنجاح مع شعوب ساحل البحر الأحمر (ف٣١-٦٤) ثم حيوانات إثيوبيا في الفقرات من (٦٨-٨٠) ثم الساحل من خليج السويس إلى باب المندب (ف٨١-٨٦).

وينتقل من فصل إلى آخر وفق الموضــوع الفرعــي. فالخريطــة الإثنوجرافيــة (ف٣٠) تفصل بين المقدمة وفصل عن السكان (ف٦٥-٦٧) حيث جاءت مناقشة العــالم الآهل بالسكان والحدود المناخية بين فصلي السكان والأرض. وبــنفس الطريقــة عــالج أجاثارخيديس الساحل الشرقي للبحر الأحمر، حيث وصف ساحل شبه الجزيرة العربيــة (ف٨٧-٩٨) فبدأ المقدمة بالإثنوجرافيا الخاصة بالسبأيين في اليمن ثم ذكر أقسام الأرض (ف٩٩-١٠٠) والناس (ف١٠١-١٠٤) بالإضــافة إلــى Thoumasia فــي الفقــرات (١٠٥-١٠٦) وملحق عن الظواهر غير الطبيعية أو غير المعتادة في البحر الأحمر ككل (ف١٠٧-١١١) ثم ملحق عن السيرة الذاتية الخاصة به في الفقرة الأخيرة مــن كتــاب (ف١١٢) لقد أورثنا أجاثارخيديس في هذا العمل الصياغة القياسية فــي تنــاول المــادة الإثنوجرافية فضلاً عن المفاهيم الإنثروبولوجية التى اســتخدمها فــي تحليــل ووصــف الثقافات التى احتكت بها السياسة البطلمية في ذلك الإقليم.

لم يكن أجاثارخيديس مفكراً أصيلاً أو مبدعاً، ولكنه كان مستهلكاً لأفكار الآخــرين. ففي مقالته المبكرة عن الإثنوجرافيا، ووصف مروى في كتاب «عــن البحــر الإريثــري حيث» ركز بصفة أساسية على فكرة أن الثقافات هي مجموعة من العادات الفريدة التى يتم الحفاظ عليها بقوة العرف، وهي وجهة نظر سبقه إليها هيرودوت قبل ثلاثة قرون(٤٦). وفى دراسة الإثنوجرافيا في الجزء الخامس من كتاب *«عن البحر الإريثري»* كان أجاثارخيديس يتعامل مع قدر كبير من الأفكار المركبة التى وجدها عند المشائين في القرن الرابــع قبــل الميلاد(٤٧). فقد كان أرسطو ومن بعده ديكارخوس بصفة خاصة في كتابه حيــاة اليونــان (Bios Hellados) أول من حاول وصف التاريخ الثقافي لشعب معين.

واعتمدت الكتابات الإثنوجرافية لأجاثارخيديس على نظريــة أن دورة حيــاة الــشعب وطريقته في الحياة ليست فقط مجموع عاداته ولكنها النظام الذي ينشأ من اســتجابة الــشعب للتحديات التى فرضتها عليه الظروف الجغرافية وصراعه معها من أجل البقاء، وخاصة في مجال الحصول على الطعام. وكان ديكارخوس قد أرّخ الوجود الإنساني معتمداً على نمــوذج تطور الحضارة اليونانية التى مرت بثلاث مراحل هي مرحلة الصيد والقــنص ثــم مرحلــة الرعي وأخيراً مرحلة الزراعة، و تتميز كل مرحلة بخصائصها السياسية والاجتماعية. بيــد أن استخدام أجاثارخيديس لهذا النموذج كان أقل إبداعاً وأكثر نمطية.

وهكذا، فقد انعكست المراحل الثلاث عن التطور الثقافي كما تصورها ديكارخوس الكتاب الخامس لأجاثارخيديس فكان آكلو السمك يعادلون المرحلة الأولى لديكارخوس، أي مرحلة الجمع والالتقاط، وكان التروجوديتيس يمثلون المرحلة الثانية أي مرحلة الرعي أما السبأيون فيمثلون المرحلة الثالثة أي مرحلة الزراعة، في حين لم يبذل أجاثارخيديس أي جهد في إظهار حدود وحلقات التطور بين كل نمط من الأنماط الثلاثة، ولكنه بدلاً من ذلك استخدم المراحل الثلاث التى مرت بها حياة البشر كأساس لتصنيف الشعوب المختلفة وخاصة الإثيوبية والعربية التى ورد ذكرها في المصادر وفق طرق حصولها على الغذاء. ومن هنا يبدو تركيزه على الجانب الاقتصادي في الطرح الإثنوجرافي في الجزء الخامس من كتاب *«عن البحر الإريثري»* مجرد أوصاف لبعض الشعوب الدنيا، مع استبعاد باقي الجوانب الأخرى من حياتهم حيث ركز فقط على طريقة سعيهم للحصول على مصادر الغذاء. كما أن تركيزه على أولوية الحصول على الغذاء دفعته إلى تجاهل الحقائق الإثنوجرافية والفوارق الإثنية بين هذه الشعوب التى تعيش نفس المرحلة ونفس الحياة بينما تفرق بينهم اختلاف الظروف البيئة وطرق استغلالهم لها أو تعاملهم معها، وأخيراً كان استخدام أجاثارخيديس للنموذج الذي اقترحه ديكارخوس قد أدى إلى وقوعه في نفس أخطائه، وخاصة السطحية في تقسيم المراحل والمعلومات الإثنوجرافية ومصادرها. ولكن رغم كل نقائصه، فإن الجزء الخامس من كتاب *«عن البحر الإريثري»* يعد إنجازاً حقيقياً ومؤثراً، ذلك أنه يقدم الصورة الأكثر تعقيداً وحيوية في التاريخ القديم عن المجتمعات المختلفة في إقليم معين وطرق تعاملهم مع البيئة.

ورغم أن رصد أجاثارخيديس، في الجزء الخامس من كتاب *«عن البحر الإريثري»*، لانتشار وتوسع المعرفة الجغرافية بفضل النشاط البطلمي في حوض البحر الأحمر، فإنه لم يتعرض للسياسة التى مكنتهم من هذا الإنجاز. وفي رأيه فإن شعوب هذه المناطق لم تنل خيراً من هذه السياسة ولم يكن لها أي صدى على حياتهم حيث كان فقرهم الشديد كفيلاً بمنع توصلهم إلى أية فكرة عن السعادة أو بشكل أوسع مجرد حد الكفاية في حاجاتهم الأساسية، ولم يتغير هذا الأمر إلا باحتكاكهم بأناس متحضرين وتجارة مواد وسلع الرفاهية التى يحملونها إليهم. وكان ذلك مع ظهور السفن التجارية الخاصة بالأنباط على طول سواحلهم بعد أن كانوا يعيشون فيما سبق على القرصنة.

لم يكن المواطنون المحليون – ككل – هم السبب في تعاطف أجاثارخيديس، ذلك أن أغلبهم كانوا ضحايا للوافدين الجدد أو غطاءً للأهداف الحقيقية لمغامرات البطالمة في الجنوب مثلما كان الحال مع الإثيوبيين أو آكلي الفيلة الذين أبلغوا بطلميوس الثاني رفضهم التنازل عن عاداتهم حتى لو كان الثمن مملكة بطلميوس كلها. ومن ثم فإن المشكلة الحقيقية التى انشغل بها أجاثارخيديس كانت هي معاناة الصغار والفقراء الذين سحقهم مشروع بطلميوس الثاني ودمر حياتهم. فأشار في المقدمة إلى أن المعتقلين السياسيين كانوا يقتادوا للبحث عن الذهب في وادي علاقي حيث تضعهم الحكومة الاستبدادية في ظروف معيشية تجعلهم يفضلون الموت على الحياة، والأخطار الرهيبة التى كان يواجهها الصيادون الذين يغامرون بحياتهم لاصطياد ثعبان ضخم على أمل إرضاء بطلميوس الثاني والحصول على مكافأته ونفحاته، وعمال المحاجر الذين يعيشون كالسجناء في جزيرة الزبرجد باحثين عن الأحجار الكريمة، والأيام الأخيرة للبحارة في رحلات صيد الفيلة الذين يقتلون بعضهم بعضاً على أمل الظفر باستمرار الحياة يوماً إضافياً. وإذا كان معظم مؤرخي العصر الهيللينستي قد اهتموا كثيراً بالتوسع الإغريقي السياسي والفكري عقب فتوحات الإسكندر وخلفائه، فإن القليل منهم هم الذين شاركوا أجاثارخيديس اعترافه بالثمن الباهظ الذي دفعه هؤلاء البؤساء.

المصـــادر:

يقاس مستوى العمل التاريخي بمستوى المصادر التى يعتمد عليها، وكتاب «*عن البحر الإريثري*» ليس استثناءً من هذه القاعدة. إلا أن تحديد مصادر هذا الكتاب يعد أمراً صعباً مثلما هو الحال لدى معظم المؤرخين القدامى، فلم يذكر أجاثارخيديس المصادر التى أخذ عنها بالإضافة إلى أننا فقدنا معظم الكتابات القديمة التى تتناول حوض البحر الأحمر ومناطق الصيد، وهو ما يحرمنا من الشواهد الضرورية والأدلة التى تحتاجها دراسة حقيقية لمصادر هذا العمل. وكذلك الحال فإننا لا نملك أدلة كافية عن المصادر التى استقى منها أجاثارخيديس معلوماته في كتابه «*عن البحر الإريثري*»، وهو الجزء الوحيد الذي وصلنا كاملاً.

ففي تلك الفترة كان الجزء الجنوبي من العالم موضع اهتمام خاص لعلماء التاريخ والجغرافيا القدامى حيث كان التركيز على العديد من القضايا الرئيسية، لعل أهمها اكتشاف منابع النيل ومعرفة أسباب الفيضان(٤٨)، وإمكانية العيش في المنطقة بين مدار السرطان وخط الاستواء، ومعرفة إذا ما كانت محيطات العالم متصلة مع بعضها البعض أم لا. وكانت الأعمال التاريخية والجغرافية تتضمن دراسات عن هذه المنطقة ومشاكلها، ولا شك في أن أجاثارخيديس كان قد استقى معلوماته الغزيرة من هذه الأعمال ويبدو ذلك واضحاً فيما تبقى من كتابه «شئون آسيا». فكان أحد المصادر الهامة التى اعتمد عليها هو كتاب «*الجغرافيا*» لإيراتوستثيس البرقاوي في القرن الثالث قبل الميلاد، الذي وضع أساس علم الخرائط الإغريقي وتضمن مؤلفه أول وصف للأوضاع السياسية والثقافية في البحر الأحمر تأسيساً على معلومات جمعها الرحالة في زمن الإسكندر الأكبر وخلفائه البطالمة وحدد أجاثارخيديس مجموعتين أخريين من المصادر بوصفها يمثلان المصدر الرئيسي لمعلوماته التى أوردها في الجزء الخامس من كتاب «*عن البحر الإريثري*».

وأشار أجاثارخيديس إلى المصدر الذي يعتمد عليه في الفقرة رقم ٤١ من كتابه التى يصف فيها الساحل الأفريقي للبحر الأحمر حيث يقول إنه يعتمد في ذلك على ما حصل عليه من الأرشيف الملكي Hypomnemata بالإضافة إلى شهود العيان. وهي نفس الفقرة التى نقلها عنه ديودورس الصقلي(٤٩). ثم أشار إلى الأرشيف الملكي مرة

أخرى في الفقرة ١١٢ حيث يقول فيها أجاثارخيديس إنه لم يستطع إكمال عمله بسبب الاضطرابات التى اجتاحت الإسكندرية في هذه الفترة ولم يستطع بسببها أن يطلع على الأرشيف الملكيHypomnemata. ولكن ما هي الهيبومينيماتا؟!

هناك جدل حول الطبيعة العامة للهيبومينيماتا *Hypomnemata* فمعنى الكلمة الحرفي هو مذكرات أو ملاحظات فإن أضفنا إليها وصف أجاثارخيديس بأنها «ملكية» فإن هذا يعني أنها وثائق رسمية من أنواع مختلفة تتضمن تقارير ويوميات وكلاء البطالمة الذين سافروا جنوب وشرق مصر في القرن الثالث قبل الميلاد[٥٠] وأنها كانت تسير وفق ترتيبات رسمية مثل تلك التى ذكرها أجاثارخيديس والتى كانت تحكم عمليات التعدين في جزيرة الزبرجد[٥١]، وتحفظ بقايا ملاحظات رحالة صيد الفيلة كنقاط تحذيرية في الطريق[٥٢]. وربما كان الأكثر أهمية في كل هذا هي مجموعة معينة من الوثائق ذكرها أجاثارخيديس بصفة خاصة، وهي تقارير ثلاثة من الرحالة المستكشفين الذين كانوا يمسحون شواطئ البحر الأحمر في عهد بطلميوس الثاني والثالث، وهم ساتوروس Satyrus الذي اكتشف منطقة تروجيديتيس وحدد أماكن صيد الفيلة[٥٣]، وسيمياس Simmias الذي كان مختصاً بساحل جنوب بطلمية صيادي الفيلة[*]، وأريستون Ariston الذي قام بنفس رحلة أناكسيقراتيس Anaxicrates[**]. وكان تقرير سيمياس فقط هو الذي أخذ عنه أجاثارخيديس مباشرة[٥٤]، إلا أن «تارن»[٥٥] يشير إلى أنه قد استخدم أيضاً تقرير أريستون حيث تفاصيله عن الساحل الغربي للجزيرة العربية حيث إن تفاصيله تعتمد على تقارير رحلة أريستون التى ورد فيها وصف لهذا الساحل. فإذا أضفنا لذلك زيادة المنطقة من خلال هؤلاء المستكشفين الثلاثة وما ورد في الجزء الخامس من كتاب «البحر الإريثري»، فإن ذلك يؤكد أن هذه التقارير تمثل القاعدة الأساسية لمعلومات أجاثارخيديس.

(*) تقع بطلمية الوحوش أو صيادي الفيلة على الضفة الجنوبية لخليج عقيق وتعرف باسم بدر عقيق.

(**) أمر الإسكندر بقيام حملة بقيادة أناكسيقراتيس من ميناء هيرونوبوليس في مصر، للدوران حول بلاد العرب، إلا أن هذه الحملة لم تتجاوز مضيق باب المندب عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي. ومع ذلك فقد تمكنت هذه الحملة من جمع معلومات طيبة عن الشواطئ الغربية لبلاد العرب. (المترجم).

وتبقى المشكلة الكبرى هي تحديد هوية شهود العيان. فقد افترض الباحثون أن أجاثارخيديس قد استخدم هذا المصطلح للإشارة إلى المعلومات التى حصل عليها من تجار معاصرين ورحالة على دراية بأحوال هذه البلاد المتاخمة للبحر الأحمر. أما عن مناقشته لهؤلاء الناس فإن هذا يبدو من الفقرات التى أوردها في كتاب *«عن البحر الإريثري»*، وخاصة في الفقرة رقم ٤١ التى تمثل دليلاً على وجود التجار. ويدعمها تقرير سيميّاس عن تبلد الإثيوبيين، ومع هذا فهناك سببان يجعلانهما مصادر قليلة القيمة بالنسبة للعمل أما السبب الأول فهو أن كثيراً من المناطق التى وصفها أجاثارخيديس في كتابه *«عن البحر الإريثري»* لم تكن ذات أهمية تجارية، والسبب الأكثر أهمية هو أن مؤرخى العصر الهيللينستي والجغرافيون بصفة عامة كانوا يفضلون المصادر الرسمية، ويعتبرون أقوال الأشخاص العاديين كالتجار وغيرهم، ووفقاً لما يقوله سترابون[٥٦] في هذا الشأن ، شيئاً بلا جدوى فيما يخص التاريخ. ومن هنا تبدو الحاجة لتحديد مختلف لشاهد العيان، وهو ما قدمه W. Peremans[٥٧] الذي رجّح أن يكون أجارثارخيديس كان يشير إلى كتب تناولت إثيوبيا والبحر الإريثري كتبها نفس الوكلاء لبطلميوس الذي قام بحفظ تقاريرهم الرسمية في أرشيف الإسكندرية.

وهناك سبعة من الكتّاب الذين سطروا أعمالهم خلال القرن الثالث قبل الميلاد وهم على النحو التالي:

١- **داليون Dalion** الذي يعتبر أول من استكشف وادي النيل جنوب مروى.

٢- **سيمونديس الأصغر Simonides** الذي عاش خمس سنوات في مروى.

٣- **أريستوكريون Aristocreon**.

٤- **بازيليس Basilis** الذي كتب عن كل من إثيوبيا والهند.

٥- **بيون من سولي Bion of Soli** الذي تحتوي فقراته على مادة هامة عن جغرافية مملكة مروى ودستورها.

٦- **فيلون Philon** حاكم جزيرة زبرجد في عهد بطلميوس الثاني.

٧- **بيثاجوراس Pythagoras** قائد الأسطول في عهد بطلميوس الثاني أو خليفته، والذي ألف كتابا يحمل نفس عنوان كتاب أجاثارخيديس **«عن البحر الإريثري»**.

بيد أن هذه الكتب لم تكن متاحة في الإسكندرية منذ أن قام إيراتوسثنيس(*) بجمعهم في عمل واحد، بيد أن اعتماد أجاثارخيديس عليهم في كتابه *«عن البحر الإريثري»* يبدو واضحاً من التطابق الدقيق في الفقرات ٧٦، ٧٨ من كتابه *«عن البحر الإريثري»* وبين ما كتبه داليون Dalion وبيثاجوراس Pythagoras، ويبدو هذا بشكل أكثر عمومية فى تقريره عن حيوانات إثيوبيا التى اعتمد عليها أجاثارخيديس ولسوء الحظ فإن الفقرات القليلة الباقية لا تفصح عن مؤلفها تبدو مزيجاً من الإثنوجرافيا والتاريخ الطبيعي غير المعتاد كما هو الحال في كتاب *«عن البحر الإريثري»*، بيد أن أهمية كتاب أجاثارخيديس تبدو من التطابق بين دراسته الإثنوجرافية ونفس الدراسات الخاصة بسكان أي منطقة في العصور الوسطى أو في العصر الحديث حيث يستمع إلى صدى المعلومات التى احتوتها المصادر القديمة(٥٨).

ومع أنه من الصعب التعرف على المصادر التى اعتمد عليها أجاثارخيديس فإنه تبقى هناك حقيقة واحدة واضحة ذات دلالة هامة بالنسبة للباحثين في الضوء الخافت الذي يلقيه كتاب أجاثارخيديس على التاريخ المبكر لحوض البحر الأحمر. فهو كما يدعي قد اعتمد في كتابه على مصادر جيدة، ولكنها كانت مصادر يمكن اعتبارها مصادر أساسية خاصة بعهد بطلميوس الثاني وبطلميوس الثالث ومن هنا تكون هذه المصادر انعكاساً للأحوال في هذه المنطقة أثناء منتصف القرن الثالث قبل الميلاد أو ربما تمتد إلى فترة تأليف أجاثارخيديس لكتابه وبين التقرير الخاص بحياة الحيوانات في إثيوبيا فيما يعرف باسم موسوعة Praeneste لفسيفاء النيل التى أعدها كل من -K.M. Philips, and A. Steinmyeyer Schayeika معتمدين في ذلك على مصادر العصر البطلمي مثل تلك التى اعتمد عليها أجاثارخيديس سواء كان ذلك بعد منتصف القرن الثاني قبل الميلاد أو بعد ذلك مثل «المكتبة التاريخية» لديودوروس الصقلي، وجغرافية استرابون.

(*) ولد إيراتوسثنيس في مدينة برقة في إبان الأولمبياد السادس والعشرين بعد المائة (٢٧٦-٢٧٣ق.م)، حوالي عام ٢٧٣ق.م؛ وتلقى علومه في أثينا، ثم انتقل آخر الأمر إلى الإسكندرية بناء على دعوة بطلميوس الثالث يوثرجيتيس (٢٤٧-٢٢٢ق.م). وقضى في هذه المدينة بقية حياته (أكثر من نصفها) وتوفى بها في الثمانين من عمره حوالي ١٩٢ق.م، ومن ثم فلابد أن نحاول النظر إليه من مواضع ثلاثة، وهي برقة وأثينا والإسكندرية. وإذا كان إيراتوسثنيس يحتل المرتبة الثانية في محاولاته العلمية، فإنه بلا شك يحتل المكانة الأولى في الجغرافيا وعلم المساحة، فلايزال يعتبر إلى يومنا هذا من أعظم الجغرافيين على مر العصور. عن ذلك راجع محمد عواد حسين، الجغرافيا والتاريخ في القرن الثالث ضمن كتاب جورج سارتون، تاريخ العلم، جـ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص ص ١٨٢ – ١٨٦.

التأثيـــر:

يعد كتاب «*عن البحر الإريثـري*» أكثر أعمال أجاثارخيديس شهرة مثـل معظـم الأعمال التى تتناول تاريخ الممالك الهللينستية[٥٩] عقب دخول الشرق الأدنى في حـوزة الجمهورية الرومانية خلال القرن الأول قبل الميلاد ولم ترد أية إشارة عن كتبه الأربعـة الأولى عند أي من الكتاب الكلاسيكيين وذلك على عكس الكتاب الخـامس مـن البحـر الإريثري.

ورغم غموض التفاصيل عن جغرافية البحـر الأحمـر وظهيـره فـإن معالجـة أجاثارخيديس، بالمقارنة بما سبقها، فضلاً عن ثراء المعلومات الواردة فيهـا قـد جعلـت العلماء والباحثين يعتبرون الجزء الخامس من كتاب «*عن البحر الإريثري*» ملخصاً وافيـاً للكشوف الجغرافية البطلمية. فقد اعتمد عليه كثير من الكتاب الكبـار والـصغار ومـنهم المؤرخ ديودوروس الصقلي، وسترابون، وبلينيوس الأكبر وآيليـان، باعتبارهـا المـصدر الرئيسي للجغرافيا والإثنوجرافيا في إثيوبيا والبحر الأحمر وإن لم يستمر طويلاً. فالمعلومات المباشرة من هذا العمل صارت نادرة فبعد بداية العصر المسيحي في القرن الثاني المـيلادي ولم تعد تحتل هذه المؤلفات مكانتها كمصدر جغرافي. وكان سبب أفولها واضحاً.

وكانت مقاصد الجزء الخامس من كتاب «*عن البحر الإريثري*» مركبة ومعقدة. ففـي تلخيصه لاستكشافات القرن الثالث قبل الميلاد في حوض البحر الأحمر كـان هنـاك تحليـل فلسفي لإثنوجرافية المنطقة وتعليقه اللاذع على سياسة البطالمة جنوب مصر. أمـا القـراءة اللاحقة فهي تضع هذا العمل في إطار إعادة عرض المعلومات، وتجعله يتعرض لمصير كل الكتب المصدرية التى تم استئصالها فيما بعد بسبب التلخيص الشديد لها، بيد أنه فـي أواخـر القرن الثاني أو أوائل القرن الثالث الميلادي كان آيليان Aelian لم يزل يعتمد علـى كتـاب أجاثاريديس في فقرات كتابه «*طبيعة الحيوانات*»[٦٠] أما في القـرن الأول المـيلادي فكـان سترابون وبلينيوس الأكبر لا يعرفان هذا المصدر بشكل مباشر، بل عن طريق وسـيط فقـد اعتمد استرابون على ملخص أرتيمودورس من إفسوس في الكتاب الثامن من دراسته العامـة للمعارف الجغرافية اليونانية في حين اعتمد بلينيوس الأكبر على كتـاب جوبـا Juba عـن الجزيرة العربية. وكانت نفس الأهمية تتمثل في التغيرات التى طرأت على اهتمامات القـارئ اليوناني والروماني.

يعكس كتاب «*عن البحر الإريثري*» أولويات مصادر القرن الثالث قبل الميلاد ويصل إلى قمتها وهو يتناول الشعوب غير المتحضرة في شمال ووسط حوض البحر الأحمر. وبفضل الامتداد الكبير للبحر والقوافل التجارية بين جنوب الجزيرة العربية والهند عقب احتلال الرومان لمصر وسورية في القرن الأول قبل الميلاد، وكذلك ظهور مملكة أكسوم في مرتفعات إثيوبيا كقوة سياسية واقتصادية، فقد تحول اهتمام الإغريق والرومان إلى المناطق المتحضرة جنوب البحر الأحمر. وفي الوقت نفسه كان النشاط العسكري والدبلوماسي الروماني قد أدى إلى ظهور معلومات جديدة حول المنطقة غير تلك المألوفة منذ بداية العصر الهللينستي. وهكذا فقد أضاف أرتيمودورس من إفسوس وسترابون مادة علمية جديدة إلى ما كتبه أجاثارخيديس عن جنوب البحر الأحمر والجزيرة العربية وذلك من خلال مصادر لاحقة. وكان القراء يفضلون الأعمال الأحدث مثلما هو الحال مع أعمال جوبا Juba وبعدها أعمال السورى المتأغرق أولانيوس Ulanius صاحب كتاب الجزيرة العربية «***Arabica***» الذي يقع في خمسة أجزاء والذي حل محل كتاب «*عن البحر الإريثري*» كتقرير قياسي عن المنطقة في عصورها القديمة. وفي نفس الوقت كانت المادة الجغرافية الموجودة في الجزء الخامس من كتاب «*عن البحر الإريثري*» تضعها في خانة اللاجدوى أمام علم الخرائط ورسمها عند بطلميوس وخلفائه. واستمرت الاستعانة بالكتاب رغم ذلك للحصول على معلومات للمؤلفين الآخرين بخصوص حيوانات أفريقيا، ولكن مع نهاية العصور القديمة فقد أيضاً هذا الدور لمصلحة أعمال أخرى مثل كتاب «إيليان» Aelian «*طبيعة الحيوانات*» وكتاب «*الموسوعة العامة*» Cynégetica للشاعر أوبيان Oppian في القرن الثالث الميلادي.

للكتّاب أقدارها فإذا كانت أعمال جوبا وأورانيوس قد اختفت بالكامل عدا فقرات قليلة، فإن الجزء الخامس من كتاب «*عن البحر الإريثري*» قد بقى كاملاً من خلال فوتيوس وديودوروس الصقلي وسترابون. وفي نفس الوقت كانت الرحلات الاستكشافية التى قام بها الرحالة الجدد في القرن الثامن عشر الميلادي أهم مصادر دراسة التاريخ والجغرافية البشرية في جنوب شرق أفريقيا وغرب الجزيرة العربية، معتمدين في ذلك على ما خلّفه العالم القديم.

الكتاب الأول

(١) يقول أجاثارخيديس إن بطلميوس الثانى[*]، فيلادلفوس، هو أول من قام بتنظيم صيد الفيلة وغيرها من الحيوانات[١]، وكان يقوم بجمع هذه الحيوانات التى فرقتها الطبيعة[٢] ويضعها في مكان واحد تعيش فيه معاً.

(٢) لم يأخذ البحر الإريثري اسمه من الجبال الواقعة في غرب الخليج العربي والتى تلمع مثل جمرة الفحم المحترقة عندما تتعرض لأشعة الشمس، أو من الرمال التى تمتد على الشاطئ لعدة استادات في الجانب الشرقي والتى تبدو حمراء زاهية. فليس بصحيح على الإطلاق أنه يدعى «الأحمر» بسبب هذه الظاهرة، فحتى لو كان مجراه ضيقاً بسبب الجبال التى تحيط بالخليج بأكمله من كلا الجانبين، ولو كان انعكاسها وتأثيرها في البر والبحر، وهو الأمر الذي يراه الجميع، بيد أن هذه الظاهرة لا يمكن أن يفهمها من الجميع. فليس هذا هو السبب في تسمية البحر بالأحمر، حتى لو كان هذا رأي كثير ممن سبقوه[٣].

(٣) تلك هي أولى النظريات، وإن لم تكن صحيحة، حول سبب هذه التسمية. أما النظرية الثانية فهي شبيهة بها حيث يقول عند شروق الشمس «لا تكون كما هو الحال في بلادنا» فأشعتها تكون حمراء في لون الدم، وتجعل هذه الأشعة البحر مثل الدم الأحمر، ومن هنا أطلقوا عليه اسم الأحمر.

(*) يذكره بهذه الطريقة «بطلميوس بن بطلميوس بن لاجوس» أما لقب فيلادلفوس فكان خاصاً في حياته بزوجته وأخته أرسينوى الثانية، ثم عُبد المنكان معاً باسم «الأخوين فيلادلفوس»، وكانت أرسينوي أختاً شقيقة لبطلميوس الثاني ويعد الملك الأخير هو أول من استن سنة زواج المحارم في الأسرة البطلمية. وكانت أرسينوي هذه قد تزوجت من ليسيماخوس حاكم تراقيا عام ٣٠٠ق.م وعندما قتل الأخير في معركة قوريديون في ليديا عام ٢٨١ق.م سليوقس توجه الأخير عابراً الدردنيل إلى مقدونيا، بيد أن بطلميوس الصاعقة اغتال هذا الملك وأقام نفسه ملكاً على مقدونيا وتزوج من أخته غير الشقيقة أرسينوي أرملة ليسماخوس – وقام الصاعقة بقتل أبناء أرسينوي من ليسيماخوس، وهربت أرسينوي إلى مملكة أخيها الشقيق في مصر فأزاحت أرسينوي الأولى ابنة ليسيماخوس عن السلطة وتزوجت من أخيها ٢٧٩ق.م وكانت هي مهندسة السياسة الخارجية لهذا الملك حتى وفاتها عام ٢٧٠ق.م، راجع: الحسين أحمد عبد الله، مصر والشرق الأدنى في العصر الهيلينستي، القاهرة، ٢٠١٠ (المترجم).

(٤) أما النظرية الثالثة فهي نظرية آرجوس Argos[٤]، وهي، كما يقول، تبدو الأكثر جرأة وإن تعارضت مع المعقول، فهؤلاء المؤرخون الذين وافقوا دينياس Denias على أن برسيوس، بعد حضوره إلى إثيوبيا من أرجوس، كانت إثيوبيا تدعي آنــذاك سـيفينيا Cephenia، وكان هدفه تحرير ابنة سيفيوس، وأنه سافر من هناك إلى بلاد الفــرس وأعطى الفرس اسمهم هذا من خلال أحد أحفاده. وولــد لــه أبنــاً اســماه إيروثــاس Erythas، ومنه جاء اشتقاق اسم البحر الإريثري وهذه هي نظرية أرجوس الوهمية.

(٥/أ) أما النظرية الرابعة والصحيحة، فهي مأخوذة عــن شــخص فارســي بوكــسوس Boxus، وهو كما يقول أجاثارخيديس، أحد المتأغرقين لغة وفكراً. وقد ترك موطنه وعاش في أثينا ويقول في روايته:

كان هناك رجل فائق الشجاعة والثراء يدعى ايروثراس[٥]، مــن أصــل فارســي يدعى والده مايوزايوس Myozaeus وكان يعيش بالقرب من البحر وعند تقاطع بعــض الجزر غير الآهلة بالسكان، وفي عصر الإمبراطورية الميدية أصبح إيروثراس مشهوراً. وفي الشتاء كان يقيم في باسارجاداي Pasargadae[*]، أما في الربيع فكان ينتقــل إلــى ضيعته الخاصة لأسباب عملية عديدة ورغبة منه في إضفاء بعض البهجة علــى حياتــه بتغيير نمطها. وهاجمت الأسود قطيعاً من الخيول يملكه وقتلت جزءاً منه. وتمكن الباقون من الهروب وخوفاً على حياتهم ألقوا بأنفسهم في البحر. وبعد ذلك ظلوا يسبحون بحــذاء الساحل، وتمكنوا بصعوبة من الوصول بأمان إلى شاطئ إحدى الجُزر[٦]. وكــان أحــد رعاة الخيول من الشباب المعروف بالجرأة والشجاعة قد تمكن من العبور معهــم حيــث كان قد تعلق برقبة أحد الجياد وانتقل منها إلى رقبة جواد آخر.

(*) كانت باسارجاداي Pasargadae مقــراً لإقامــة قــورش الأول (٥٦٠/٥٥٩-٥٣٠ق.م) مؤســس إمبراطورية الفرس. وهي مورجاب Murgab الحالية جنوب إيران. عن فارس القديمة راجع، بُزف فيزهوفر، فارس القديمة، ترجمة محمد جديد، قدمس، لبنان، ٢٠٠٩، وراجع كذلك حمد بن صراي، الفرس ومنطقة الخليج من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٧، (المترجم).

وأثناء بحثه عن بقايا القطيع صنع إيروثراس طوافات فكان بذلك أول شخص في المنطقة يتمكن من صناعة طوّاف قوي(٧). وقد استفاد من اعتدال الرياح وبدأ على الفور في استخدامه. ودفعته الأمواج بسرعة إلى حيث تمكن من العثور على الجياد والراعي. بيد أن موقع الجزيرة أعجبه فأنشأ هناك مقراً لميناء جيد، وقام بتوطين أشخاص جاء بهم من الساحل المواجه للجزيرة ومنحهم فيها حقوق الحياة التى لم يتمتعوا بها في موطنهم الأصلي. ثم ادعى أيضاً ملكية جزر أخرى خالية من السكان وأرسل إليها مستوطنين جدد. ومن هنا اكتسب هذا البطل شهرة كبرى بين شعوب البحر في هذه المنطقة، ولهذا السبب كان اسم إيروثراس يتردد هناك وظل يرددونه الناس حتى الوقت الراهن ومن هنا تأتي تفسيرات الاسم. ومن ثم كانت نسبة البحر إلى إيروثراس وأخرى تنسبه إلى لونه. واشتقاق الاسم من اللون – كما يقول – ليس صحيحاً، فهو ليس باللون الأحمر، ولكن التفسير الصحيح هو ما جاء به التقرير الفارسي.

(٦) ولم يلتفت أجاثارخيديس إلى الرأي القائل بأن الفرس قد أخذوا اسمهم هذا من خلال أحفاد بيرسيوس Perseus رغم تبني الكثيرون لهذا الرأي. ذلك أن الفرس أنفسهم لا ينطقون كلمة «Pérsas» بنبرة حادة على المقطع الأول، ولكنهم يضعون نبرة مغايرة على المقطع الأخير.

(٧) ورغم سعيه الدعوب لإثبات عدم صحة قصة بيرسيوس بكثير من البراهين، فإنه يؤكد أيضاً على هذه النقطة، وإذا اعتمدنا على التراجيديا فقط فإن بيرسيوس كان يرتدي قناعاً وسيف معقوف بحد واحد، أما عن القصة نفسها فإنك تحتاج ممثلاً وجوقة حتى يكتمل المشهد الذي يراه المشاهدون.

فلنرجع قليلاً في عجالة لأهم أمثلة هذه الروايات الأسطورية. فهناك مثلاً الكنتاوروس(*)، جريون، الكيكلوبس Cyclopes (**)، خريسيس، كيركي، كاليبسو،

(*) الكنتاوروي: هم أبناء أبوللون من الحورية ستيلبس، وهم في الجزء السفلي بجسم حصان أما الرأس والذراعان والصدر فهي آدمية. وقد صورتهم الأساطير بأنهم عاشوا على الصيد والقنص والاغتصاب. وكانوا يعيشون فوق جبل بيلون. وكان أشهرهم يدعى خيرون فهو مربي ياسون وابنه من ميديا. وهو ومربي اسكيليبوس ومعلمه الطب. (المترجم).

(**) هم من أبناء جايا من أورانوس وهم مخلوقات كان لكل منهم – كما يتبين من اسمهم – عين واحدة مستديرة في وسط جبهته. وكانوا وفقاً لهوميروس وحوشاً يعيشون في المراعي النائية حيث لا =

والميناتور، شيميرا، بيجاسوس، كيربريوس، ومخلوق بحري يدعى جلاوكوس، وأطلس، وبروتيوس Proteus، ونيريوس، ونيريديس، أبناء ألويوس Aloeus التى كان طولها تسع قامات(*) وعرضها تسع أذرع، وهناك أيضاً وفق هسيودوس، الرواية التى يقول فيها إن الخلق بدأ بأجيال من الذهب، ثم تلاهم جنس آخر من الفضة، ثم بعد ذلك جنس ثالث من البرونز، كما كانت هناك خيول تتحدث مع أخيليوس عن أحداث المستقبل، وأبو الهول صاحب اللغز الموجه إلى أبناء الطيبيات و سيرينس Sirens الذين كانوا ينشدون فيتحول السامعون إلى أموات. ثم نيوبي Niobe وبوليديتيس Polydetes اللذان تحولا إلى أحجار من الخوف. وبالإضافة إلى أن أتباع تانتالوس Tantalus كانوا زملاء أوديسيوس Odysses من البحارة قد تحولوا من بشر إلى خنازير ومن خنازير إلى بشر. وهناك أيضاً دايدالوس الذي كوفئ على حكمته بأن صار رفيقاً للآلهة ثم عوقب على عدم ضبط النفس بتعليقه في الهواء. وهناك أشخاص هبطوا إلى عالم هاديس باختيارهم، بعضهم لمناقشة أمور ومسائل الحياة مع رسل من الموتى، وآخرون نزلوا رغما عنهم من أجل زفاف بيرسفوني Persephone. وكانت هناك أيضاً ماشية ذات فروة من الذهب، وأشجار تفاح ذات ثمار ذهبية تنمو في ليبيا وكائنات تقضي العمر بأكمله دون نوم، كما تم ترويض رياح الشمال والجنوب مع باقي أنواع الرياح(**).

وفوق هذا فقد عاشرت باسفائي Paisphae أحد الثيران وعاشرت تورو Tyro أحد الأنهار، ولكنهما لم تأتيا لفراش الزوجية بمخلوقات غريبة. وتحولت فيلوميلا Philomela إلى شكل العندليب، وتحولت ميتريوس إلى هدهد وهيكوبا إلى كلب حراسة. وعلاوة على ذلك كانت الربة إيو Io ابنة أحد الأنهار، وفي صورة بقرة ذات قرون وظهرت عبر البحر الأسود، ومنها أخذ البسفور ذلك الاسم. كما كان كاينوس

=حكومة ولا قانون. ولكنهم كانوا وفقاً لهيسيود صناعاً مهرة في صناعة الصواعق وأسماؤهم على التوالي: الراعد والبارق والمضيء. وكثيراً ما كانوا يشتركون في بناء تحصينات المدن (المترجم).

(*) القامة وحدة قياس لعمق المياه وهي تساوى ٦ أقدام.

(**) يجد القارئ تفصيلاً مطولاً عن هذه الأساطير عند عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، العصر الهيللادي، جزءان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، وراجع أيضاً فراس السواح، موسوعة تاريخ اليونان، اليونان والرومان أوروبا قبل المسيحية، دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠٦، وكذلك جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، عدد ١٧٣، الكويت، ١٩٩٣.

Caenus في الأصل فتاة وامرأة، ثم تحولت إلى رجل وسيقت إلى العالم السفلي، بيد أنها ظلت على قيد الحياة بمقدرة الكنتاوروس Centaurs وهناك أيضاً الربة ليتو التى لم تلد كما تلد النساء، ولكنها وضعت بيضة فقست فيما بعد أجمل نساء الأرض، هيلين. وعندما عبرت هيلين وريكوس على كبش، ومن هنا أخذ البحر اسم الهلليسبونت منذ ذلك الحين. وهناك أيضاً هيراكليس البحر الذي أبحر في إناء عبر البحر بينما أشد العواصف تزمجر من حوله، ووصل ليبيا دون أن تمسه المياه أو العواصف، وأخذ من أطلس مهمة حمل الكرة الأرضية، وفعل ذلك طواعية دون أن يأمره أحد.

وكانت الجبال والصخور تسير خلف أورفيوس Orpheus حين يعزف على القيثارة، وذلك بسبب شغفها الشديد بالموسيقى، ولحوم ماشية الشمس كانت أثناء طهيها تتحدث إلى الناس بصوت ولغة مفهومة. وكان الموتى يتبادلون الحوار السخيف مع أوديسيوس الذي صاغ أشكالاً حقيقية من الخيال أو الظل، وكان بعضهم يشرب رغم عدم وجود المعدة والبلعوم، وكان بعضهم يخشى سيف أوديسيوس رغم أنهم صاروا غير قابلين للتأثر بضربات السيوف أو غيرها نظراً لخروجهم من الجسد الدنيوي، وكان بعضهم يحاكم البعض الآخر، والطرفان من الموتى، دون أن تكون هناك جريمة تستدعي مثل هذه المحاكمة. وأخيراً كانت هناك أشباح بشر تبحر في معدية مع خارون Charon كملاح ومرشد خشية أن يتعرضوا للغرق ويحتاجون إلى جنازات جديدة.

كما كان كل من ألكيستيس Alcestis وبروتيسلاوس Proteslaus وجلادكوس، بعد موتهم، قد عادوا للحياة من جديد، الأول أعاده هيراكليس، والثاني عاد من خلال حب زوجته، أما الثالث فعاد بسبب «المنبىء» الذي كان مدفوناً معه، كما ابتلعت الأرض أمفياروس وهو لازال على قيد الحياة، وابتلعت معه العربة والجياد.

وبالإضافة إلى كل ذلك كان كادموس Cadmus قد نجح في انتزاع أسنان التنين Amphiaraus، واندفع منها المشاة ثقيلي التسليح Hoplites يقاتلون بعضهم بعضاً. كما كان تالوس Talus، الحارس الشخصي لمينوس Minos، يقطع محيط جزيرة كريت ثلاث مرات في اليوم، رغم مساحتها الشاسعة، وكانت حياته تتركز في كعب قدمه، ولم يكن بوسع أحد أن ينتزع حياة مينوس إلا لو سكب عليه الماء المغلي.

وبالإضافة لهذه الروايات كان هناك كبش عجوز أعـادت إليـه ميديا الحيـاة بسحرها[*] بيد أن والدها Pelias تعرض للموت بعد غليه عند محاولة الـــ peliades أعادته إلى سن الشباب. وهناك الفوركيـداي Phorcidae وهـن ثـلاث مـن النسـوة الطاعنات في السن لهن عين واحدة، قضين عمرهن بأكمله يتبادلن هذه العـين الوحيـدة فيما بينهن بإخلاص ونظام دقيق. وهناك سكان أركاديا وأتيكا المحلبـين الـذين ولـدوا بطريقة غير طبيعية. وهناك الفتاة التى تم تقديمها كقربان في أوليس Aulis، ثم عـادت للحياة بين التاوري Tauri، والفتاة التى ألقى بها والـدها Acrisius فـي البحـر عنـد البلوبونيز ثم عادت سالمة إلى شاطئ سيريفوس Seriphus ومعهـا طفلهـا الرضـيع. والرجل الذي هزم في إحدى المبارزات أمام مينلاوس ثم ظهر مرة أخرى فـي غرفـة نومه مستعداً لملاعبته وملاطفته وقد نسى كل ما تعرض له من أخطار. وهنـاك أيضـاً الحصان الخشبي الذي لم يكن مصنوعاً لحصار (طروادة) المدينة ولكنه كان بدعة مـن أوديسيوس ورفاقه. ويدل هذا النص على حماقة صانعي هذا الحصان، وحماقة الأبطـال الذين دخلوه؛ بل وحماقة الشعب الذي استقبله في المدينة.

وإلى جانب هذه القصص هناك قصة أطلس، الذي كان يحمل السماء على عاتقه بكـل سكانها من الآلهة، ورغم ذلك ولد ما يطلق عليهم الأطلنطيون بطريقة غير معقولـة وكـذلك أوقيانوس Oceanus[**] الذي يحيط بكل العالم المعروف، والذي يقول عنـه هيـسودس أن الجورجيين كانوا يمعنون النظر فيه. كما أن بعض الأبطال كانوا يحتفظون بأجسادهم بعيـدة

(*) عن أسطورة ميديا راجع يحيى عبد الله، ميديا يوربيديس، مجلة عالم الفكر، مجلـد ٢٢، الكويـت، ١٩٨١، وراجع كذلك روجر جست، المرأة في أثينا (الواقع والقانون) ترجمة منيرة كروان، المجلس الأعلى للثقافة، مشروع الترجمة العدد ٩١٥ القاهرة، ٢٠٠٥.

(**) هو النهر الإله أو إله النهر الذي تنبع منه كل الأنهار والينابيع والعيون بل والبحر نفسه، ويجـري باستمرار في حلقة دائرية حول الأرض ويقوم كالحد الفاصل بين العالم وما وراء العالم. ومن بينـهم أيضاً كانت تثيس (Tethys)، ربة البحر، وزوجة أقيانوس، التى أنجبت منه ثلاثة آلاف ولد، وهـم الأنهار الذكور وعشرات البنات وهي عرائس النهر والبحر (Oceaninae) أو بنات أوقيانوس. وكان من بين حفيداتها ثيتس (Thetis) سيدة البحر الكبرى، التى لا يستبعد أن يكون اسمها هو اسم جدتها نفسه محرّفا. وجميع هؤلاء الذين ذكرناهم أو فاتنا أن نذكرهم قد ولدتهم «جايا» بدون «إيروس» أي بدون الحب أي دون أن يمسها أحد (المترجم).

عن الضعف والوهن طوال العمر، في جزر البركة التى لم يدرسها أحد بشيء من الدقة والتفاصيل. وكانت هذه الروايات تمثل مادة خصبة للسخرية والتندر أمام كثير من النساء.

ومرة أخرى كيف يمكن أن نصدق أن أحد الآلهة كان يتغذى وهو ملتصق بالفخذ، وأن إلهة كانت تستخدم رأس زيوس رحماً لها، وأن أحد الآلهة يمكن تخيله دون أب مثلما الحال مع هيفايستوس، وأن الشمس بسبب غضبها من أعمال أترياس Atreas ضد ثيستيس Thyeste كانت تشرق من المغرب وتغرب في المشرق، وأن أبوللون وبوسيدون بعد عام من العمل في بناء سور طروادة(*) تعرضا للغش والخداع ولم يحصلا على الأجر وعلف الماشية فضلاً عن أحط أنواع الإساءة والسباب وتهديد ديميتر للاوميدون Laomedon، وأن ديونيسيوس أثناء مطاردة ليكورجوس له قد هرب إلى البحر خوفاً منه ولجأ إلى ثيتيس، وأن هناك رهاناً وصراعاً حول الجمال بين الربات، وأن كلا منهن كانت تحاول رشوة القاضي حتى يتغاضى عن العدل ويحكم لصالحها. وأن الحجم الكبير لأثينا قد تقلص إلى حجم يمكن ابتلاعه، وأن زيوس قد تحول إلى صورة البجعة، وأن جمال ديميتير قد تحول إلى أشد أنواع الدمامة. وأن زيوس أعظم الآلهة قد تعرض لمؤامرات من أقرب أقاربه، شقيق زوجته، ولكن أشد أعدائه قاموا بإنقاذه. وأعنى بهم التيتانيس Titanes(**) أو العمالقة الذين انطلقوا من الأغلال وأشاعوا الرعب في نفوس مؤيدي بوسيدون ثم عادوا بإرادتهم إلى عالم هاديس من جديد.

(*) تبدأ الإلياذة بالحفل الكبير الذي أقيم بمناسبة زفاف بيليوس على ثيتسThetis حورية الماء. وقد دعى إلى الحفل كل آلهة الإغريق فيما عدا ربة النزاع والخصام إيريس (Eris) التي أرادت بدورها الانتقام فصنعت تفاحة كبيرة من الذهب كتب عليها إلى أجمل الحاضرات ثم ألقت بها في الحفل، فدب النزاع بين أجمل الحضارات وهن هيرا زوجة زيوس وأثينا ربة الحكمة وأفروديت ربة الجمال واحتكمت الربات الثلاثة إلى زيوس الذي أحالهن إلى باريس الأمير الطروادى ليحكم بينهن. عن إلياذة هوميروس راجع هوميروس، الإلياذة، ترجمة أحمد عتمان وآخرون، المركز القومي للترجمة، العدد ٢/٧٥٠ القاهرة، ٢٠٠٨ (المترجم).

(**) التيتانس هم من أبناء جايا من أورانوس وهم «الجبابرة» وعددهم ستة بنين وستة بنات. وكانوا آلهة قدامى بدائيين يتصفون بالوحشية ومتمردين لا يرضخون لقانون. وكان أصغرهم هو كرونوس (Cronus) وأخته ريا (Rhea). والأخيران هما والدا زيوس (المترجم).

وأن أفروديتي قد أصيبت بجراح من وسيط بشري، وأن آريس قد تم تقييده عن طريق أوتوس وإفيالتيس، وأن هاديس قد أصيب بسهم هيراكليس وتعرض لآلم شديدة للغاية. رغم وجوده في عالم يحكمه ويملكه. وأن هيفايستوس بعد هبوطه من السماء سقط في ليمنوس Lemnos، وأن هيرا قد تعرضت للعقاب من زيوس وصارت تتدلى من قدميها سندانات الحديد الضخمة. وبصفة عامة كان الآلهة يرتكبون كل الموبقات التى نستعيذ بالآلهة أنفسهم لو ارتكبنا مثلها أو أقل منها. والناس الذين يروون هذه القصص البعيدة عن الواقع لا يمكن أن نأمن لهم أو نصدقهم، ولهذه الأسباب ترك أجاثارخيديس رواية بيرسيوس وغيرها من الأساطير، واستبعد اشتقاق اسم البحر الإريثري من ابنه.

(٨) يقول إنه قد اضطلع بدحض حجج هؤلاء الذين يحولون الأساطير أو يستخدمونها في دراسة الحقائق التاريخية، وإذا تخلى أحد عن هذا المنهج فإن شيئاً من الكتابة التاريخية لن يبق وسوف يتحول إلى كلام عديم المصداقية. ولكن لماذا لا ألوم هيسودوس في وصفه للمعركة بين زيوس وبوسيدون، وهو أمر لا يمكن تقديم الدليل على صحته؟ ولماذا لا ألوم هيسودوس يتحدث عن ميلاد الآلهة؟ ولماذا لا ألوم ايسخيلوس Aeschilus(*) على الأكاذيب وكتابة أشياء كثيرة لا يمكن قبولها؟ لماذا

(*) كان أيسخيلوس أولهم ظهورا فى أثينا ، وحارب فى معركة ماراثون ضد الفرس ٤٩٠ق.م، وكان محافظاً شديد التمسك بالتقاليد والمفردات العتيقة فى اللغة. وكان ينسب كل حدث إلى إرادة زيوس التى شاءت للأثينيين أن يهزموا الفرس، ونال المعتدون جزاءهم لأن عين الرب لا تغفل ولا تنام. وبعد حياة حافلة بالمناصب الشرفية فى أثينا وقضاء وقت قصير فى قصر هيرون Hieron طاغية صقلية، عاد لينافس عبقرية جديدة هى سوفوكليس. وفى عام ٤٤٥ق.م اعتزل أيسخيلوس وهاجر إلى سيراكوز محتجاً على تصرفات وسلوك الديمقراطية الغوغائية التى باتت تهدد التراث والنظام القديم ومات فى مستوطنة جيلا بجزيرة صقلية فى حادث غامض حيث أقام أهل المدينة ضريحا له هناك. كتب أيسخيلوس مايقرب من تسعين مسرحية ، وأدخل تعديلات وتغييرات كبيرة على الفن الدرامى، وحتى إنه اعتبر خالقاً للتراجيديا ، فهو الذى أدخل الممثل الثانى ، وطور الأقنعة والملابس ، وعدل فى دور الجوقة ، وأعطى للتراجيديا جلالا وصوفية خلابة . ولم من كل ما كتبه أيسخيلوس سوى سبع مسرحيات هى: ١- الضارعات ٢- الفرس Persians ٣- سبعة ضد طيبة seven against Thebes ٤- بروميثيوس مغلولا Prometheus Bound ٥- أجاممنون Agamemno ٦- حاملات القرابين Libation Bearers ٧- ربات الغضب Eumenides.

لا ألوم يوربيديس Euripides(*) وهو ينسب أعمال تيمينوس Temenus إلى أرخيلاوس Achelaus ويضع على المسرح تيرسياس الذي عاش لأكثر من خمسة أجيال؟ ولماذا لا أتحدث عن هؤلاء الذين صوروا مشاهد وأحداثاً غير معقولة في مسرحياتهم؟ إنني لا أفعل ذلك لأن كل شاعر يجتهد لتقديم المتعة أكثر من اجتهاده لتقديم الحقيقة، فالأخيرة ليست مهمته.

(٩) يقول إن موطن الفيلة هي إثيوبيا التى تقع جنوب حدود طيبة(*) وكذلك ليبيا(٨).

(*) وكتب يوربيدس ما يقرب من تسعين مسرحية ، ووصل بالفن الدرامى إلى ذروته وجدد وابتكر في الموضوعات ، وتعمق فى تحليل النفس البشرية إلى حد مثير للإعجاب ، وإن كان قد مال إلى الذهنية أكثر من الدرامية فى معظم أعماله التى وصلت منها ثمانى عشرة مسرحية تراجيديا ومسرحية واحدة "ساتيرية" وهذه هى عناوين مسرحياته: ١) ألكيستيس Alcestis ٤٣٨ق.م، ٢) ميديا Medea ٤٣١ق.م، ٣) هيبوليتوس Hippolytus ٤٢٨ق.م، ٤) الطرواديات Trojan women ٤١٥ق.م، ٥) هيللينى Helen ٤١٢ق.م، ٦) أوريستيس Orestes ٤٠٨ق.م، ٧) إفيجينا فى أوليس Iphigenia at Aulis ٤٠٦ق.م، ٨) عابدات باكخوس Bacchae ٤٠٦ق.م (٩) أندروماخى Andromache ١٠) أبناء هيراكليس Children of Heracles ٤٣٠ق.م ١١) هيكابى Hecuba ٤٣٠ق.م ١٢) الضارعات Suppliants ٤٢٤ق.م، ١٣) إليكترا Electre ٤١٨ق.م، ١٤) هيراكليس مجنوناً Madness of Heracles ٤٢١ق.م، ١٥) إفيجينيا بين التاوريين Iphigenia in Tauris ١٦) إيون Ion ١٧) الفينيقيات Phoenician Maidens ٤١١ق.م، ١٨) ريسوس Rhesus، ١٩) الكيكلوبس Cyclop. عن الأدب الإغريقي راجع: أحمد عتمان، الأدب الإغريقي، تراثاً إنسانياً وعالمياً، عالم المعرفة الكويت، ٢٠٠٢، وراجع كذلك يوربيديس، هرقل مجنوناً، ترجمة أحمد عتمان، المجلس الأعلى للثقافة عدد ٢٨٤ القاهرة، ٢٠٠١، وكذلك راجع سوفوكليس، أنتيجوني، ترجمة منيرة كروان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦ (المترجم).

(**) طيبة هي: الثلاثة عشر إقليماً الباقية في مصر العليا بداية من أسيوط إلى أسوان. وكان من ضمن الألقاب والاختصاصات التى كلف بها الإبستراتيجوس "المشرف على البحر الأحمر والمحيط الهندى" كما يشير اللقب التالى :

ὁ στρατηγος καὶ ἐπιστρατήγος της Ερυθρας καὶ Ινδικης Θαλασσης

- أما فى العصر الرومانى فأصبح هناك حاكماً خاصا للمنطقة حمل عدة ألقاب منها قائد برينيقى ومدير مناجم الزبرجد والتوباز وكل مناجم مصر وذلك وفقاً لما أشار إليه نقش يرجع إلى عام ١١م أما اللقب الأكثر استخداماً فكان "قائد جبل برينيقى Praefectus Montis Berenicidis أو قائد حماية جبل برينيقى كما أشار إلى ذلك نقش محطة كروكوديلو= أم المويلح (على طريق قفط – برينيقى) والذى يرجع إلى عام ٢١٩م وربما كان هذا القائد يقيم فى قفط حيث كانت مقراً لقيادة الحامية الرومانية المعسكرة فى الجنوب، راجع الحسين أحمد عبد الله، الإدارة والقانون في مصر في العصر الروماني، دراسة لوظيفة الإبيستراتيجيا، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٨(المترجم).

(١٠) وحدود مصر الجغرافية هي على النحو التالي: البحر في الشمال، أما في الشرق والغرب تحدها الصحاري، وفي الجنوب تحدها أراضي الحبشة.

(١١) اللغة خشنة ولكنها معبرة. مفرداتها تفتقر إلى عنصر الطلاوة والعذوبة ذلك أنه نتيجة للاستمتاع بالحقائق فإننا لن نختار الأسوأ بدلاً من الأفضل، أو، بحق زيوس والآلهة، فإننا لن نترك أي خير يقع بين هذين الحدين.

(١٢) من الصعب الاحتفاظ بملكية قيمة معتدلة تخفي شخصاً معيناً دون مجهود وهل تتوقع أن يتم الحفاظ على تراث بهذه القيمة دون متاعب؟ يجب أن تعلم أيضاً أن القانون يساعد المالك على الاحتفاظ بما يملكه، ولكن السيف قد يحرم الطرف مما يملك.

(١٣) لفترة طويلة من الزمن، يقول أجاثارخيديس، تعلمنا أن الظروف الوقتية تغلف علاقات الصداقة بين الحكام، وأن انشغالك بشئونك يمنح الحاكم الآخر فرصة التوسع وتقليص ما يملكه الآخرون.

(١٤) فالشخص الذي يحاول طول الوقت استخدام المبالغة فيما هو متاح بالفعل يتعرض لخطأ كبير. أما الذي يجعله أصدقاءه المقربين في موقع المستشارين أثناء الأزمات الكبرى فلن يعدم أشخاصاً يشجعون طموحاته أو أوهامه. ذلك أن من تدفعه حماقته إلى سماع ما يعرفه هو من شخص آخر، هو أيضاً أفضل من يصنع من مستشاره وناصحه في المسائل الصعبة.

(١٥) وإذا كان شخص يملك مثل هذا الامتياز الكبير وهو أعلى من رغبات هؤلاء الذين قد يتفوقون عليه، فإنني اعتبره إنساناً محظوظاً ومباركاً، وسوف أجدني عاجزاً عن حرمانه من امتيازاته. أليس من الحماقة أن يتحول الإنجاز إلى وعد فارغ وأن يتعلق المرء بآمال غير مؤكدة في مواجهة مخاطر واضحة.

(١٦) ولكن الإثيوبيين سوف يلقون بالرعب في قلوب الإغريق، كيف ؟ هل بسواد بشرتهم وغرابة مظهرهم؟ إن الخوف الذي نعرفه من مثل هذه المظاهر لا يتعدى مرحلة الطفولة. ولكن في الحرب والصراعات لا يتحدد المنتصر والمهزوم من اللون أو المظهر، ولكن من الجرأة والذكاء.

(١٧) من اليوم وضعتني الأقدار[٩] حارساً ووصياً عليك، فقد كنت لم تزل حدثاً، وكانت كل المملكة قد صارت من ذلك الحين عبئاً ثقيلاً أحمله على عاتقي. كيف كان ذلك؟ هل هي السخرية من هؤلاء الذين تحدثوا وأعينهم على متعتك وإمتاعك، وليس قوتك، ولكن جهلك الذي يؤدي إلى وضع المتعة فوق الواجب يدفعك إلى الخطأ. إنني أتطلع إلى هذا الهدف من خلال الإرادة والنوايا الطيبة لأب يضع المستقبل في أولوياته وليس من خلال المنافقين والمتملقين الذين يتلوا أحدهم الآخر وفق متطلبات اللحظة ووفق ما يعنيه هو. ذلك أنني أعلم من خلال العمر الطويل والتجارب وخبرة السنين أن هؤلاء الأفراد الذين يتملقون أصحاب السلطة هم الذين يضربون أقوى الممالك وأعتاها في مقتل، وهذا ما حدث مع كاساندروس[*]، وليسيماخوس (حاكم تراقيا)، والإسكندر ومملكة ميديا وآشور والفرس، فكلهم انهاروا، ولم يبق لهم أثر. إما بسبب حكم الشباب الذين يجهلون معظم الأمور بسبب حداثة سنهم، أو بسبب التملق والمدائح التى يتلقونها من المنافقين وتنتظره كلما ارتكب الأخطاء، فإن ذلك أخطر ما يمكن أن يواجهه من الغدر والخيانة والتضليل. وهكذا كان الإسكندر الذي ما كان ليتعرض للهزيمة في ميدان المعركة، بيد أنه عاجزاً وبائساً بسبب علاقاته الشخصية. فقد وقع فريسة للمتربح، وحين ينادونه كانوا ينعتونه باسم زيوس[١٠]، ولم يكن يرى في ذلك سخرية وخداعا، ولكنه ظنهم يمجّدونه بسبب إنجازاته وإمكانياته غير المسبوقة.

(١٨) وعندما يخاطب الديماجوجى (الزعيم الشعبي) حشداً من الناس، ويلعب دور المنافق بدلاً من الصديق، فإن انطباع الرعاع الذين ارتضوا الانصياع لمن يضللهم ويزيد لهم الأخطاء، يكون سبباً في دمار المدينة. واللوم هنا لا يقع فقط على عاتق المذنب ولكن على أشخاص يمثل الحسد مدخلاً إليهم في حد ذاته. ويمتد اللوم إلى كل منهم خارج هذه الإطار فالحسد يدمر الرجل الذي لا يستحق أن يتذوق مرارته.

(*) كساندروس هو ابن أنتيباتروس الذي عهد الإسكندر إلى أبيه إدارة شئون مقدونيا وبلاد الإغريق أثناء حملته ضد الفرس، وأصبح ابنه كساندوس حاكماً لمقدونيا في الفترة من ٣١٦ق.م – ٢٧٩ق.م (المترجم).

(١٩) في العمليات الحربية لم يكن الإثيوبيون يستخدمون أقواساً طويلة بل سهاماً قصيرة. وبدلاً من الرأس الحديدية للسهم، فإنهم كانوا يستخدمون رؤوساً حجرية بيضاوية الشكل وكانت سهامهم حادة للغاية ومسمومة.

(٢٠) ولكي يقوم بحملته ضد الإثيوبيين جمع بطلميوس ٥٠٠ من فرسان الإغريق (المرتزقة) وكان من المفترض أن يقاتل في مقدمة الجيش مائة فارس فسلمهم المعدات القتالية، ووزع عليهم وعلى جيادهم ثياباً تشبه الأرواب التى كان السكان المحليون يطلقون عليها اسم كاساي «Kasai»[١١] وكانت تغطي الجسد كله فيما عدا العيون.

الكتـــاب الخامـــس

افتتاحيـــة:

(٢١) يلتبس على كثير من الساسة والشعراء فهم أمر ذلك الشخص الذي يكون في مـأمن من الخطر ورغم هذا يقع في البلية. ولا يمكن فهمه دون وصف واقعي.

فبعد نجاح فيليب الثاني والإسكندر (الأكبـر) فـي الاسـتيلاء علـى أولينثـوس Olynthus وطيبة Thebes ونهبهما بالكامل، قاما بهدم المدينتين وتسويتهما بالأرض[١] وكان الخوف من المستقبل الذي دفعهما إلى ذلك وهو نفس ما أصاب كثيراً من الإغريق وجعلهم في غاية القلق من كل شيء وأجبر خطباءهم على محاولة استطلاع توابع هـذه الكوارث. فتحدث بعضهم عن هذه الأحداث بلغة تحمل الكثير مـن المبالغـة، والـبعض الآخر تحدث عنها بصورة أكثر اعتدالاً ولكنه استخدم مفردات معتادة في وصف أحـداث غير معتادة، وسوف أقدم لكم أمثلة من كل نوع مع استخدام المقارنة حتـى تتـاح لكـم فرصة تقييم الكلام الجيد ونظيره غير الصحيح.

يعد هيجيسياس Hegesias[٢] الذي خلّد ذكرى تدمير المدينتين على هذا المعيـار غير الصادق فلم يكن يستخدم اللغة أو النبرة المعتدلة أو الملائمة لطبيعة الحدث، ولكنـه كان يبحث عن استعراض بلاغته اللغوية في تناول موضوع شائك غير جدير بالحفـاوة، وإذا كان قد حقق إلى حد ما هدفه الشخصي، فإنه لم يلتفت إلى أدنـى اعتبـار لكرامـة الرعايا أو الضحايا كما يبدو من كلماته «***لقد حققنا شهرتنا من إزالة إحدى المدن***» وهي كلمات ليس بها ما يثير أي قدر من التعاطف أو القبول ولكنها تركز الانتباه على المعنى الذي يقصده وهو ما يجعل القارئ في حيرة من أمره فيبذل مجهوداً مضاعفاً لفهم ما يريد الرجل أن يقول، فعندما يعمد المتحدث إلى الكلام الفضفاض غير المحدد، فإن ذلك يجعل كلامه ضعيفاً، وتسألني لماذا؟ فأقول لأن الكلام المفهوم يؤدي إلى إصدار حكـم فـوري وصحيح، أما الكلام المبهم فيقود إلى مزيد من الإبهام. ثم عاد للحديث بنفس الطريقة التى تحدث بها عن طيبة فقال: «***لقد أودت الكارثة بذلك الموقع الذي كان علـى كـل لـسان فصار موقعاً صامتاً أخرس***» ومرة أخرى في حديثه عن أولينيثوس: «***لقد تركت مدينـة آهلة، ولكنها أصبحت أثراً بعد عين***».

أتتعجب لماذا؟ لأن هذه الجملة في مثل هذا السياق تجعل عقلنا في حيرة من أمره. فالشخص الذي يكتب مرثية لابد أن يوضح الحدث الذي حرك مشاعره لكتابتها وذلك إن كان لا ينوي فقط أن ينمق حديثه ببعض الصيغ البلاغية ولكن ليوضح سبب هذا الخراب.

ولنمض الآن في عرض مثال آخر يخص الإسكندر (الأكبر) الذي تصور مدينة إيبامينينداس Epamenendas كما هي، بيد أنه بعد رؤية بقايا المدينة شاركني في الابتهال. فالطلب هنا مؤثر والكناية حادة، ولكن قياساً بحجم العمل لا تبدو مذكورة. وفي موضع آخر: ***«تحت وطأة ذلك الجنون تحولت المدينة إلى شيء أكثر مأساوية من إحدى المآسي الدرامية»*** هذا الكلام يبدو صالحاً لأي شيء سوى ما يناسب المتحدث الماهر، فهو هنا لم يمس أصل الموضوع بكلمة واحدة. وأنا أعتقد أنه من الصعب تجاهل اللغة التي لا تناسب موضوعات جادة. وفي موضع آخر: ***«لماذا ينبغي أن نذكر سكان أولينيثوس وسكان طيبة، وكيف كانت معاناتهم وهم يلقون حتفهم داخل المدينتين»*** وهناك مثال آخر مشابه مليء بالسخف والفجاجة ***«بتدمير طيبة، قمت بعمل يشبه ما فعله زيوس وهو يطرد القمر من مكانه في السماء. فقد احتفظنا بالشمس لأثينا. كانت هاتان المدينتان عيون اليونان، وأنا الآن حزين على الأولى. (مدينة طيبة)، لأنها صارت أثراً بعد عين»*** وفي رأيي إن المتحدث يبدو ساخراً من هذه الملاحظات، وليس حزيناً على مصير المدينتين، حيث كان حريصاً على إنهاء حديثه في أسرع وقت ممكن دون أن يمنحنا الفرصة لمعرفة حجم الكارثة من خلال الوصف الواقعي.

وثمة مثال آخر ***«المدن المتاخمة تبكي المدينة أيضاً، وهي تراها وقد غابت عن الوجود»*** وإن كان أحد قال هذا الكلام لأهالي طيبة وأولينيثوس في وقت الغزو، فإنهم في رأيي كانوا سيضحكون من كلامه ويعتبرون القائل أكثر بؤساً منهم.

ولننظر في حديث آخر لنفس الرجل حيث يقول ***«إنها حقيقة مؤلمة أن الأرض التي حملت رجال الزراعة لم تعد قابلة للزراعة»***[٣] ولكن ديموستثيس الذي قام هذا المؤلف بتشويه كلامه، لم يقل الجملة على هذا النحو، ولكنه كتب أنه من المؤلم أن تكون أتيكا التي كانت أول من جلب للناس الحاصلات الزراعية، قد صارت الآن مرتعاً للأغنام. إن قول هيجيسياس بأن أرض المزارعين قد صارت أرضاً بلا زراعة يمثل اشتقاقاً للنقيض من الكلمات، وليس من الحدث. ومن هنا فإنه يفعل مثل هيرميسيانكس Hermesianex حين

مدح أثينا قائلاً: «***لأنها ولدت من رأس زيوس فإنها قد احتفظت بقمة السعادة***» وكذلك قولـــه «من يستطع إفساد أو تعطيل هبة قورش» وكذلك القول «كيف يمكن أن يكون المكان ضـــيقاً بينما يمكن دخوله من كل الاتجاهات؟» يقول أجاثارخيديس إن كل هذه التعبيرات غير موفقة. فإن كان قد قال هذه الأشياء بغرض غير إثارة الشفقة فإنه يكون في هذه الحالة أقـــرب إلـــى التوفيق والصواب، ولكنه كان يتحدث دون اعتبار لنوع الحديث وهدفه، ولم يستخدم أحكامـــه وآراءه بشكل جيد وصحيح.

ويضيف فوق ذلك أمثلة أخرى لما سبق ذكره، ويخصهم أيضا بنفس هـــذا النقـــد، ففى الفقرة التالية «***إن أكثر من عشرة آلاف من أبناء طيبة قد قتلوا في المعركـــة ضـــد المقدونيين***» وكم هي صورة بليغة وكأن كل هذا العدد قد تعـــرض للقتـــل فجـــأة ودون مقدمات! وكذلك «***بعد نسف المدينة تحمل الناس بؤس أطفالهم، وتم نقل النـــساء إلـــى مقدونيا، وذلك بعد دفن المدينة***» وفي موضع آخـــر «***اســـتخدمت الفيـــالق المقدونيـــة أسلحتها لاقتحام الأسوار بالقوة، لقد قتلت المدينة***» هنا أحزان المدينة وهناك موتها. كل ما كان ينقص هذا الكاتب هو إضافة جنازة ومرثية حتى يكتمل كلامه. وقد أوردنا أمثلـــة من بلاغة هذا الكاتب حتى لا أكون متجنياً عليه حين اتهمه بالجنون أو الحماقة.

وعلى نفس المنهج صار ستراتوكليس Stratocles في معالجـــة ذات الموضـــوع حيث يقول: «***إن مدينة طيبة التى شاركت معكم في القتـــال ضـــد فيليـــب تـــم حرثهـــا وزرعها***» وفي نفس الوقت يقول أجاثارخيديس، كان الرجل يتحدث عن معانـــاة المدينـــة بينما يتذكر صداقتها، فالبؤس الذي يقترن بالتعاطف غالباً ما يؤدي إلى إثارة قدر كبيـــر من الشفقة ويشير ستراتوكليس إلى اسخينيس Aeschines الذي قال: «***لقد اختفت إحدى مدن الجوار من وسط بلاد اليونان***» ويقول أجاثارخيديس إن هذا التعبير الممتاز لكنه في الإشارة إلى سرعة الدمار وإلى درجة المخاطر ما يدفع المتلقى للشعور بقـــسوة معانـــاة هؤلاء الجيران.

بيد أن حديث ديموستنيس(*) عن الإسكندر كان على النحو التـــالي «***لقـــد اجتـــث المدينة من أساسها حتـى لا يتبقى رماد في المدفأة، وقسمهم ووزعهم علـى البرابـــرة***»

(*) ديموستنيس هو خطيب وسياسي أثيني اشتهر في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد وكان معروفاً بعاداته للمقدونيين ووجودهم في اليونان.

كان الرجل يتحدث في قوة ووضوح ويستخدم صوراً خالية من المبالغة؛ كما أن وصفه للحدث لم يكن يخلو من الحيوية.

وفي حالة أولينثوس نقرأ لنفس الخطيب «*أما عن أولينثوس وميثوني وأبولونيا واثنين وثلاثين مدينة من تراقيا، فقد تم تدميرهم وسحقهم بقسوة ووحشية وكأنما لم تقم لهم قائمة من قبل*» وبعد الإشارة لعدد المدن يعرض الكارثة المأساوية. ويقوم بذكر هذه وغيرها من الأمثلة الأخرى المتشابهة لكتاب آخرين وفي النهاية يوافق على بعضها، ولكنه يرفض كتابات هيجيسياس وخلفائه.

مناجم الذهب في النوبة:

(٢٢) تقع بين مدينة ممفيس وطيبة خمسة أقاليم Nome آهلة بالسكان(*). الأول هو هيراكليوبوليس (إهناسيا المدينة)، والثاني كينوبولس (أسيوط)(**)، والثالث أوكسيرينخوس(***)، والرابع هيرموبوليس(****)، ويسميه البعض الخامس (نقاط الحراسة) والبعض الآخر يسميه الحدود(*****). وفي هذا الإقليم الأخير كان يتم سداد الرسوم على البضائع القادمة من الجنوب. وبعد عبور هذه الأقاليم تدخل أول مدن طيبة وهي مدينة ليكوبوليس(******)، ثم مدينة أفروديتي(*******)، وبعد هذه المدن توجد بانوبوليس (أخنيم) (********)، ثم هناك

(*) أشار أجاثارخينيس إلى تسعة أقاليم في مصر العليا في العصر البطلمي ولم يشر إلى الأقاليم أرقام ١٦، ١٨، ٢١، ٢٢.

(**) هي الإقليم رقم ١٧ من أقاليم مصر العليا وكانت مركزاً لعبادة أنوبيس. Strabo. XVII.1. 47. (المترجم).

(***) أوكسيرينخوس هي البهنسا الحالية وكانت تشكل الإقليم رقم ١٩ في أقاليم مصر العليا، وقد تم استخراج ونشر ٧٥ جزء من بردي أوكسيرنيخوس P. Oxy. LXXV (2009) (المترجم).

(****) هي عاصمة إقليم هرموبوليس = هي الإقليم رقم ١٥ وكانت مركزاً لعبادة الإله توت – هرميس.

(*****) هو الإقليم رقم ١٤ وهو القوصية Strabo. XVII. 1.16.

(******) هي أسيوط الحالية مقر عبادة الإله ويب واويت (فاتح الطريق) Pliny. NH. V. 61.

(*******) أفروديتوبوليس هي كوم إشكاوا وهي الإقليم رقم ١٠ مقر عبادة الإله حتحور التى تعادى أفروديتي الإغريقية.

(********) بانوبوليس = أخميم مقر عبادة الإله مين = بان، وهي مقر قاطعوا الأحجار وصناعة الكتان Strabo. XVII.1.41.

ثوينيس Thoinis(*) ثم بوبوس(٤)، ثم ديوسبوليس بارفا(**)، ثم إقليم تنتويتوبوليس(٥) ومدينة تدعى أبوللونوبوليس(***) وتنطلق منها إلى قفط(****) ثم إلفنتين(*****) ثم أرض الإثيوبيين وأولى مدنها تدعى كورتيا(٦). ونكون بذلك قد ذكرنا كل الأماكن من ممفيس إلى إثيوبيا.

(٢٣/أ) بالقرب من البحر الإريثري يقع نهر النيل، ورغم كثرة تعرجاته فإنه في هذه النقطة ينحرف بشدة نحو الشرق، ويمتد خليج من البحر بحيث تكون

(٢٣/ب) بالقرب من أبعد نقطة حدود بين مصر وأقاليم الجزيرة العربية وإثيوبيا، هناك مكان يضم كثيراً من مناجم الذهب الكبرى. وهناك يتم جمع

(*) ثينيس (ثني) = Thoinis طينة عاصمة الإقليم الثامن بل كانت عاصمة دينية لمصر كلها والتى انطلقت منها محاولات توحيد القطرين في عصر الأسرة الأولى وذلك في الألفية الثالثة قبل الميلاد وإن كان موقعها غير محدد وربما تكون جرجة الحالية.

(**) ديوسبوليس بارفا= هيو وهي مقر عبادة آمون = زيوس.

(***) أبوللونوبوليس برفا= هي قوص الحالية مقر عبادة حورس = أبوللون، وكانت أحد المراكز الأساسية على النيل التى ينطلق منها طرق التجارة إلى البحر الأحمر، ويبدأ من إدفو على النيل ويلتقى مع طريق قفط – برينيقى بعد ١١٨ كم وفى هذه المسافة أربع محطات رئيسية هى:١- أبو جهاد فى وادي عياد على بعد ١٥ميل = ٢٢,٢كم من إدفو ٢- محطة الكنائس على بعد ٣٢ ميل ٤٧,٤كم من إدفو ٣- محطة أبو قرية على بعد ٦٢ ميل = ٩١,٨كم ٤- محطة الساموت على بعد٨٠ ميل = ١١٨,٨ كم ، ومن ثم نصل إلى محطة وادى ضويق = Flacto حيث طريق قفط – برينيقى(١) ويبلغ طول هذا الطريق ، إدفو – برينيقى ، ٣١٢كم وتقع عليه أربع عشرة محطة ويقطع فى مدة قدرها من ٩ – ١٠ أيام.

Alhousein Abdulla, Seven Remarks upon Brenecie-Coptos Route in Roman Period. ARAM Thirtieth International Conference: Trade Routes & Seafaring in the Ancient Near East (The Oriental Institute, Oxford) 04-06 July 2011 (The (المترجم).

(****) هي قفط الحالية وكانت نقطة انطلاق طريق قفط برينيقي إلى البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية، عن تقسيم مصر الإداري في العصر البطلمي راجع الحسين أحمد عبد الله، مهام النومارخيس في مصر عصر البطالمة، رسالة ماجستير غير منشورة، الزقازيق، ١٩٩٥ (المترجم).

(*****) هي الترجمة الإغريقية للاسم المصري إبو = مدينة العاج وكانت مركزاً أساسياً للتجارة بين مصر والنوبة وتقع إلى شمال الشلال الأول مباشرة في مواجهة أسوان وكانت عاصمة الإقليم الأول. وإلفنتين وأسوان هي الحدود التقليدية التاريخية الفاصلة بين مصر والنوبة وإلى جنوب إلفنتين تقع مباشرة جزيرة فيله. وكانت إلفنتين مع أسوان تشكل مقراً إدارياً لحاكم إقليم كوم إمبو Ombite، وكانت هذه المنطقة تشمل أسوان وإلفنتين وفيله وصولاً إلى طيبة وهرمونيسيس Hermonthithe. راجع:

Alston, R. The city in Roman and Byzantine Egypt. New York 2002, P. 394. Note. 13. (المترجم)

الأرض الواقعة بين البحر والنهر أو بين المياه العذبة والأخرى المالحة تبدو كالفخار أو الصلصال أو الطمي(*). وهناك في هذه المنطقة ما يعرف باسم الأحجار الكريمة والتى تتميز باللون الأسود(**)، بالإضافة إلى الكوارتز (يقصد الذهب والفضة) والرخام رغم وجودهما إلا أنهما لا يمكن مقارنتها بها من شدة لمعانها(***).

(٢٤/أ) وفيما يخص البشر فإنهم كانوا يعانون البؤس والشقاء وتكتمل معاناتهم بالاستبداد الحكومي الذي يضعهم تحت طائلة أقصى حالات العبودية في مناجم الذهب، ويعيش بعضهم هذه المرارة مع زوجاتهم وأولادهم وبعضهم يتذوقها منفرداً.

الذهب بعد إنفاق الكثير من الجهد والمال. الأرض بطبيعتها سوداء ذات حروق وتجاعيد من الكوارتز والتى تتميز بلونها الأبيض وتتفوق على كل الأحجار الأخرى في شدة اللمعان. ويحصل المسئولون عن المناجم على هذا الذهب باستخدام حشود كبيرة من العمال.

(٢٤/ب) كان ملوك مصر يجمعون الناس الذين أدينوا في الجرائم وأسرى الحرب بالإضافة إلى من تعرضوا لاتهامات غير عادلة وتم وضعهم في السجون، وفي بعض الأحيان يكوّنون بمفردهم وفي بعضها الآخر بصحبة عائلاتهم. ويعمل الجميع في المناجم دون راحة واصلين الليل بالنهار مقيدين بالأغلال حتى لا يفكر أحدهم في الهروب، وقد عُين عليهم حراس من الجنود المرتزقة الذين يتحدثون لغات غير مفهومة وذلك حتى لا تكون هناك لغة حوار بين السجناء وهؤلاء الحراس أو أي مشاعر إنسانية(****).

(*) لعل هذا يتفق تماماً مع وصف مياه نهر النيل أثناء الفيضان حيث تختلط المياه بالطمي (المترجم).

(**) يبدو وصف أجاثارخيديس لهذه المنطقة صحيحاً إلى حد كبير ذلك أن نهر النيل يتجه إلى الشمال الشرقي واصلاً إلى الدوديكاسخوينوس إلى خليج برينيقي ويمتد مع ساحل البحر. وكذلك الحال فإن المسافة بين النيل والبحر الأحمر عند مدخل وادي العلاقي هي تقريباً ٢٠٠ ميلاً.

(***) حصل المصريون القدماء على الذهب من ثلاثة أماكن رئيسية هي: (أ) الذهب من صحراء قفط في المنطقة الشمالية من تلال البحر الأحمر. (ب) ذهب الواحات ويحصلون عليه من وادي العلاقي ووادي جابجابا Gabgaba. (ج) ذهب كوش Kush في منطقة جنوب وادي النيل في النوبة.

(****) ربما كان هؤلاء الحراس من المرتزقة النوبيين وهو ما كان يحدث أيضاً في العصر الفرعوني.

(٢٥/أ) ويؤدون مهمتهم في الجبال حيث يوجد الذهب. ويحصلون على النار من خلال إحراق الخشب ويضعونه على الصخر المدبب ويفتتونه بالحرارة حيث يتحول الصخر إلى قطع صغيرة باستخدام مطارق من الحديد ويكون هناك أحد الفنيين على رأس هؤلاء العمال، وكلما أشار إلى موقع من المنجم يقومون على الفور بالعمل فيه، ويتم تقسيم العمل بينهم على النحو التالي:

تتكون الطائفة الأولى من الرجال الأقوياء صغار السن الذين يتولون تكسير صخور الكوارتز باستخدام المطارق الحديدية، معتمدين فقط على القوة العمياء في التعامل مع هذه الصخور. وليس على أي مهارة أخرى ويقومون أيضاً بعمل عدة دهاليز في الصخر، وبصفة خاصة في الأماكن التى تحمل خام الذهب وإن لم يكن ذلك في خط مستقيم، بل قد تتشابك هذه الطرق وتكون ملتوية. ويؤدون هذه المهام وهم يضعون على رءوسهم مصابيح مثبتة على الجبهة وتتخذ أجسادهم حجم الفتحات، ويلقون بقطع الصخور على الأرض وفق تعليمات من الفنيين ورقابة صارمة منهم.

(٢٥/ب) وبعد تسخين الجزء الذي يحتوي على الذهب يُقطّع إلى أجزاء صغيرة، ويستأنفون العمل بأيديهم حيث يهوى الآلاف من هؤلاء البؤساء بمطارق حديدية على الصخور التى سرعان ما تتحول إلى أجزاء صغيرة. ويقوم أحد الفنيين بالإشراف على كل هذه العمليات ويعطي التكليفات المحددة للعمال.

ويتم تقسيمهم وفق قدرتهم البدنية فتكون الطائفة الأولى ممن يستخدمون قوتهم دون أي مهارة ويحملون المطارق الحديدية لتكسير صخور الكوارتز، ويقوم آخرون بعمل دهاليز في خطوط متعرجة تصل إلى عروق الصخور المضيئة.

وحيث إن العمل كان يتم في الظلام الدامس، وبسبب كثرة التعاريج والالتواءات في الدهاليز فإن هؤلاء العمال كانوا يعلقون مصابيح فوق جباههم، ويكيفون أجسادهم لتتوافق مع طبيعة الصخور ويقومون بقذف كسر الأحجار التى كانوا قد قطعوها إلى سطح الأرض، ويتواصل عملهم تحت وحشية الملاحظين وقسوتهم.

(٢٦/أ) وتكون مهمة الصبية هي النزول إلى الدهاليز والممرات التى نقبها الرجال ويجلبون قطع الصخور التى ألقوا بها على سطح الأرض، ثم يحملونها إلى خارج المنجم بعيداً عن مدخل الممر حيث يتلقفها كبار السن والمرضى ويسلمونها إلى فئة أخرى من الرجال تسمى الطحانين وهم رجال دون الثلاثين من العمر تنضح القوة من وجوههم، ويأخذون قطع الصخور هذه ويهوون عليها بمطارق من الحديد، إلى أن تصبح في حجم واحد يوازي حبة النبات (البذرة) يتم توزيعها على قطاع آخر من العمال.

وتكون المهمة التالية من اختصاص النسوة اللائي تعرضن للأسر مع أزواجهن أو آبائهن، حيث يقفن في صف طويل لعدة أميال يتلقفن الصخور المسحوقة وتقف كل ثلاث منهن في مواجهة بعضهن البعض مشكلين مجموعة ولا يرتدين إلا ما يستر العورة، ويتولين مهمة طحن هذه الصخور إلى أن تتحول إلى مسحوق يشبه الدقيق. والموت عند هؤلاء أفضل من الحياة في ظل الظروف بالغة القسوة التى يعملون من خلالها.

(٢٦/ب) ينزل الصبيان إلى الأنفاق التى تم حفرها في الصخور ويلتقطون القطع الصغيرة ويصعدون بها إلى قرب المدخل. وهناك يقف رجال في عمر الثلاثين عاماً، ويأخذونها منهم ويهوون عليها بمطرقة من الحديد إلى أن يصبح حجم كل منها لا يزيد عن حجم بذرة النبات. ثم يتسلمها منهم النساء والرجال المسنون ويضعونها ويقفون في طابور إلى جوارهم مرجل أو مرجلين ويستمرون في طحن هذه الصخور إلى أن تصبح دقيقاً ويهمل هؤلاء القوم أجسادهم، فلا يرتدين سوى خرق بالية لا تكاد تستر عوراتهن، ولا يرحمهم أحد حتى لو كانوا من المرضى أو الجرحى أو الطاعنين في السن، ولكنهم جميعاً مجدون في العمل تحت وطأة الضرب والإهانة إلى أن يموتوا وهم يئنون تحت وطأة العذاب الشديد. ومن هنا كان هؤلاء البؤساء ينظرون إلى المستقبل بوصفه أكثر سوءاً وكآبة من الحاضر، ويعتبرون الموت أفضل كثيراً من الحياة.

(٢٧/أ) يتسلم غاسلو الذهب الخام (Selangei) المسحوق من النساء. وهؤلاء الرجال فنيون قادرون على استكمال المهمة وكان عملهم ينحصر في إلقاء الكوارتز على طاولة مسطحة[٧] مصقولة بشكل جيد ولها منحدر ويصبون عليه الماء ثم يغسلون الخام بأيديهم بهدوء في أول الأمر ثم بعنف بعد ذلك حيث تذوب الأجزاء الترابية وتتدفق ناحية الجانب المائل من الطاولة ويبقى الجزء الصلب والثقيل على الطاولة ثم يعاودون غسل الخام المتبقي مرة أخرى بالماء. وأخيرا يقوم غاسلو الذهب Selangei بتنظيفه بالإسفنج الناعم برفق.

(٢٧/ب) يقوم الفنيون في النهاية بجمع الصخور ويبدءون في المرحلة الأخيرة من هذه العملية حيث يقومون بوضع خام الذهب على طاولة مستوية السطح ويصبون الماء على خام الذهب ويغسلونه إلى أن تتساقط الشوائب الترابية العالقة به، ويبقى خام الذهب وحده على الطاولة الخشبية نظراً لثقل وزنه، ثم يقومون بتنظيفه بأسفنج أملس وتستمر العملية لفترة من الزمن حتى لا يبقى غير الذهب الصافي[٨].

(٢٨/أ) وبعد الانتهاء من الفصل التام لخام الذهب، يقوم غاسلو الذهب Selangeus بنقله إلى عمليات الصهر. ويأخذ فني الصهر الكمية بالوزن ويضعها في وعاء من الفخار. وبعد إضافة قدر معين من الرصاص وقدر آخر من الملح وقليل من القصدير والنخالة، ثم يوضع على غطاء ضيق ويختمونه من كل اتجاه ويصهرونه مباشرة في فرن لمدة خمسة أيام وخمس ليال وفي اليوم السادس يبردونه بعناية ويوضع الخام

(٢٨/ب) وفي النهاية يقوم فنيون آخرون بجمع الذهب وتعبئته وفق معايير أوزان محددة ووضعه في أوان من الفخار. ويخلطونه بقدر معين من الرصاص وقطع من الملح، ويضيفون القليل من القصدير والنخالة، ويغلقون عليه غطاء كالختم ويستمر تحت الصهر لمدة خمسة أيام وخمس ليال، وبعد ذلك يتم تبريده ولا يتبقى في الأواني أي شيء من المواد الأخرى ولكن فقط ذهب خالص نقي مع فقد كمية صغيرة للغاية من المادة الخام.

في أوعية مع التأكد من عدم وجود الشوائب حيث لا يبقى سوى الذهب وإن كان وزنه قد قل حيث زال عنه التراب.

(٢٩/أ) إن موت عدد كبير من العمال في المناجم يضعنا أمام النتيجة التى سبق إقرارها، فقد كانت طبيعة هذا العمل تجعل أصل الذهب ومنبعه مرتبط بهذه الخدمة الشاقة، واستخدامه يقع بين المتعة والعذاب فالطريقة التى كانت تتبع في العمل بالمناجم كانت تقليدية للغاية، وكانت طبيعة المناجم قد اكتشفت للمرة الأولى على يد حكام هذا الإقليم[٩]، ولكن العمل عُلق بها عندما قام الإثيوبيون بغزو مصر بالقوة وحاصروا مدنها لسنوات طويلة[*]، ثم أثناء حكم الميديين الفرس لمصر[**] وحتى في وقتنا هذا (يقصد العصر البطلمي) تم العثور على أزاميل برونزية في مناجم الذهب

(٢٩/ب) كان إنتاج الذهب في أقصى حدود مصر يتطلب عملاً شاقاً للغاية، فقد كانت الطبيعة – في رأيي – قد أكدت أن الحصول على الذهب مهمة صعبة وأن الرغبة فيه عارمة، وأن استخدامه يقع بين نقطتي المتعة والعذاب. وكان اكتشاف هذه المناجم قد تم من عصور قديمة عن طريق الملوك القدامى.

(*) حكم ملوك النوبة مصر العليا في الأسرة الخامسة والعشرين بداية من عام ٧٢٨ق.م ومصر كلها من عام ٧١٢ق.م وذلك حتى عام ٦٦٤ق.م حيث كانوا قد هزموا من الآشوريين وانسحبوا من مصر.

(**) حكم الفرس مصر لمدة تزيد عن قرنين من الزمان وذلك منذ غزو قمبيز في عام ٥٢٥ق.م حتى دخول الإسكندر الأكبر مصر واحتلاله إياها في أواخر عام ٣٣٢ق.م وأوائل عام ٣٣١ق.م، وذلك باستثناء الفقرة من عام ٣٩٩-٣٤٣ق.م حيث حكم ملوك وطنيون مصر. عن احتلال الفرس لمصر راجع جونتر فيتمان، مصر والأجانب، ترجمة عبد الجواد مجاهد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ص ١٥٧-١٩٧ (المترجم).

التى حفرها هؤلاء الحكام حيث لم يكن استخدام الحديد معروفاً بعد. وعُثر هناك على كميات كبيرة من العظام البشرية، والاحتمال المؤكد أن الدهاليز كانت غير مستقرة وطبيعة الجدران هشة أدت إلى امتداد الحفائر ووصولها إلى قطاعات عميقة للغاية حتى مياه البحر[١٠].

(٣٠/أ) في المنطقة الواقعة جنوب مصر أربع مجموعات سكانية كبيرة، إحداها تعيش بجوار الأنهار[١١] وتقوم بزراعة السمسم والأذرة[١٢]، والثانية تعيش قرب المستنقعات وتتغذى على جذور النباتات والخضروات وثالثة هائمة على وجهها تعيش على اللحوم والألبان، والرابعة تعيش على الساحل وتعمل في صيد الأسماك.

(٣٠/ب) أما بالنسبة للقبائل التى تعيش على ساحل الخليج العربي والتروجوديتيس وعلى جزء من إثيوبيا وبمحاذاة الجنوب والرياح الجنوبية، فإننا سوف نحاول تناول تفاصيل حياتهم.

(٣١/أ) والمجموعة الأخيرة لا تملك أية مدن أو قرى أو أي قدر من المهارات الفنية. ولكنها – كما يقول بعض الناس – أكبر عدداً من باقي المجموعات السكانية. ذلك أن آكلي السمك[١٣] ينتشرون في كل المنطقة الممتدة من أوتاي_Autaei(*) الذين

(٣١/ب) سوف نتحدث أولاً عن آكلي السمك الذين يعيشون على الساحل بين كارمانيا وجيدوزيا حتى الخليج العربي، وتمتد مساحتهم لمسافة غير معقولة تشمل قارتين، ففي إحدى الجهات تحدها العربية

(*) يشير بلينيوس Pliny. NH.Vl. 167-168 تحمل اسم الأوتاي تعيش على طريقين رئيسيين يربطا النيل بالبحر الأحمر يبدأ الأول من بوليزم إلى أرسيتوي بالقرب من مدخل خليج السويس والثاني من فقط إلى برينيقي ويبدو الدليل واضحاً على وجود العرب في الصحراء الشرقية في عصر البطالمة =

يعيشون على سواحل الخليج (البحر الأحمر) حتى البحر الأعظم (المحيط الهندي) حيث الهند وجيروسيا، وكذلك في كارامانيا Carmania وبلاد فارس والجزر القريبة (يقصد العرب) (١٤) من الشعوب سالفة الذكر. ويتميز رجالها ونساؤها بالعري وشيوع انتماء الأطفال نظراً لشيوع النساء. كما يتميزون بالمعرفة الفطرية للألم واللذة، ولكنهم لم يضيفوا إلى هذا المفهوم أي قدر من الغطاء الأخلاقي سلباً أو إيجاباً.

السعيدة(*) ومن الناحية الأخرى التروجوديتيس وبعض هؤلاء البرابرة يعيش دون ملابس ويمارسون شيوع النساء والأطفال مثل قطعان الماشية، ولا يعرفون اللذة أو الألم ولا يملكون أية مفاهيم أخلاقية عن العار أو الفضيلة.

(٣٢/أ) والمناطق ذات المياه العميقة قرب

(٣٢/ب) وتشيّد هذه الطائفة مساكنها

=من وجود مديرية تحمل اسم المديرية العربية. عرفان شهيد، روما والعرب، ترجمة: محمد فهمي عبد الباقي، الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٥ (المترجم).

(*) يقسم بلينيوس (NH.VI.32.142) العربية إلى قسمين، القسم الأول يسميه العربية الكبرى ويمتد من إقليم الرها في الشمال بما في ذلك إقليم القبائل في وسط سوريا إلى جبل لبنان، وتشمل أيضاً العربية ذاتها أي شبه الجزيرة الممتد بين بحرين "الأحمر والفارسي"، أما القسم الثاني يسميه أقاليم العربية السعيدة – المباركة (NH.VI.31.138) والتى تبدأ عن قرية الكرخة على الخليج الفارسي ومنها تمتد العربية المسماة السعيدة وينقل بعد ذلك إلى وصف الأقاليم العربية السعيدة من تيليوس / البحرين على الساحل الشمالي الشرقي حتى العقبة على الساحل الشمالي الغربي. أما استرابون فيستمد معظم وصفه للعربيةمن إيراتوستثيس (XVI.3.3-6) حيث يقبل تقسيم إيراتوستثيس العربية إلى قسمين فالأنباط والشلوطيون (Chaulataeions) وأهل حجر Agraeans جميعهم في القسم الشمالي أو الصحراوي من العربية ويلي هذه القبائل العربية السعيدة التى تمتد ١٢ ألف ستاد (٢٤٠٠كيلومتر) جنوباً إلى المحيط الأطلسي، (XVI.4.768). أما في جغرافية بطلميوس فهناك ثلاث "عربيات" متميزة الاثنتان التقليديتان (الصحراوية والسعيدة) وواحدة متفردة بذاتها يسميها العربية الصخرية Arabia Petraea وتتطابق العربية السعيدة عند بطلميوس تماماً مع المنطقة المماثلة التى يصفها استرابون وبلينيوس، بمعنى شبه الجزيرة كلها والعربية الصحراوية الآن هي تلك المنطقة المشرفة على الفرات والخليج الفارسي. وتحتل العربية الصخرية القسم الأوسط والأجزاء الواقعة في أقصى الغرب من الصحراوية التقليدية (من جوف سوريا جنوب دمشق إلى شرق الدلتا في مصر). عن أقسام الجزيرة العربية الثلاث **راجع هنري إ. ماك آدم**، استرابون بلينيوس الكبير بطلميوس الإسكندري، ثلاث تصورات عن العربية القديمة وشعوبها، **ترجمة مصطفى العبادي**، رسائل جغرافية رقم ١٤٦، الكويت، ١٩٩٢ (المترجم).

الساحل تتعارض مع نظم حياتهم، فمثل هذه المناطق قليلة الأسماك والغذاء. ويُشيّد هؤلاء القوم مساكنهم على المواقع الصخرية الساحلية لأنها تلاءم حاجاتهم، ويضعون صخوراً ضخمة في المنخفضات لتكوين العديد من الممرات الضيقة، ذات المداخل المنحنية وتبدو هذه الأبنية مناسبة لمتطلبات معيشتهم فوضع هذه الصخور الوعرة في تلك المنخفضات العميقة يشكل العديد من طرق المرور وعند حدوث المد والجزر الذي يتم مرتين كل يوم في الساعة التاسعة والثالثة(*)، تغطي أمواج البحر كل الساحل الصخري، وتدفع الأمواج كميات كبيرة من الأسماك نحو الشاطئ وتبقى هناك حيث يتوفر الطعام من العشب بيد أنه عند حدوث المد والجزر مرة أخرى يتراجع ماء البحر نحو عمق البحر تاركاً الصخور والممرات ومخلفاً الأسماك وراءه في الفجوات والفتحات حيث يصبح صيده سهلاً بالقرب من البحر وعلى طول الشواطئ الصخرية حيث لا توجد سوى الوديان العميقة والقنوات الضيقة، التي طوروها لتناسب حاجات السكان المحليين، فقد قاموا بإغلاق القنوات بالصخور الضخمة والقضبان لتسهيل صيد الأسماك. وكلما جاء المد قوياً من البحر إلى الأرض، وهو ما يحدث مرتين كل يوم عند الساعة الثالثة والساعة التاسعة، تغطي مياه البحر الساحل الصخري بالكامل وتأتي معها بكميات هائلة من كل أنواع الأسماك، وتظل هذه الأسماك بالقرب من الشاطئ في تلك الممرات حيث يتوفر الطعام ولكن عند حدوث الجزر تتراجع المياه بالتدرج من هذه الصخور والممرات تاركة الأسماك في الفجوات.

(*) كان حساب الزمن في العالم القديم يبدأ مع أول شعاع شمس ويكون ذلك، في الغالب، عند الساعة السادسة صباحا، في الشتاء، والخامسة صباحا في الصيف، وذلك على أقصى تقدير. وبحساب أن اليوم يبدأ في السادسة صباحا فإن الساعة الثامنة مساء تعادل الثانية بعد الظهر أما إذا كنا في فصل الصيف فتكون البداية في الخامسة صباحاً تعادل الثامنة صباحاً أما الساعة التاسعة فتعادل الثانية بعد الظهر. وقد عرف المصريون القدماء الساعة النجمية التى كانوا يعرفون بها التوقيت في ساعات الليل (المترجم).

وغذاء غضاً طرياً لآكلي السمك.

(٣٣/أ) الأنواع الأخرى من الأسماك كما ذكرنا فمن السهل صيدها، ولا يقتصر الأمر على ذلك حيث يتم صيد كلب البحر وعقرب البحر وثعبان الماء[١٥] ومخلوقات أخرى من هذه الأنواع والأحجام الضخمة وصيدها على جانب عالي من الخطورة.

(٣٣/ب) ويجتمع الرجال المحليون ونساؤهم وأطفالهم على الشاطئ. وتندفع كل مجموعة إلى إحدى البقاع وكأنما هي بصدد فريستها. وتقوم النساء والأطفال بجمع الأسماك الصغيرة قرب الشاطئ وتلقى بها على الأرض. ويقوم الرجال الأقوياء بجر الأسماك الكبيرة مثل العقارب والثعابين وكلب البحر والكائنات البحرية الضخمة والغريبة، ويتمكنون من السيطرة عليها رغم عدم وجود أية أدوات صيد معهم، ويستخدمون الصخور الحادة وقرون الماعز في طعنها وسلخها، فالحاجة أم الاختراع.

(٣٤/أ) وعندما يصطادون بعض الأسماك، يحملونها إلى الصخور الجنوبية عالية الحرارة ويتركونها هناك لوقت معين ثم يقلّبونها ويهزون جسدها ممسكين السمكة من ذيلها، فيتساقط اللحم متأثر بالحرارة في قطعة واحدة، أما الهياكل فيحرقونها. وبعد جمع اللحوم السمكية فوق حجر أملس، يمزجونها بثمرة فاكهة شوك المسيح ويستمرون لفترة من الوقت في معالجتها بأقدامهم إلى وقت

(٣٤/ب) وحين يجمعون كمية كبيرة من الأسماك من كل الأنواع، يأخذونها إلى الصخور الجنوبية عالية الحرارة، ويتركونه هناك لوقت قصير ثم يقلبونها وبعد ذلك يمسكون كل سمكة من ذيلها ويقومون بهزها حتى يتساقط اللحم المتأثر بالحرارة في قطعة واحدة، ويجمعون الهياكل لأغراض سوف نتحدث عنها فيما بعد، ثم يضعون اللحم على حجر أملس ويخلطونه بفاكهة شوك المسيح

معلوم. وحين تختلط الفاكهة الممزوجة باللحوم وتأخذ القوام الجلاتيني يصنعون منها شطائر ويضعونها في حرارة الشمس مرة أخرى، وحين تنضج الشطائر أو الكعكات يجلسون جميعاً لتناول الطعام دون أي نظام أو تحفظات، ولكن كل بقدر شهيته.

(٣٥/أ) ولتفادي آثار العواصف التى تمنعهم من صيد الأسماك فإنهم كانوا يتخذون الإجراءات التالية: كانوا يتجولون على طول الشاطئ يجمعون الأصداف والمحار التى كان طولها يفوق الوصف، ويغطون حاجتهم الغذائية من لحوم هذه المحار[١٦]، ويأكلونها مع ما تبقى لديهم من لحوم الأسماك والطحالب، وإذا لم يجدوا هذا أو ذاك فإنهم يلجئون إلى بقايا الهياكل السمكية ويأكلونها مثلما تفعل الوحوش في كهوفها.

ويتحول الخليط إلى القوام الجلاتيني ويصنعون منه كعكاً ويضعونه في حرارة الشمس، وبعد أن يجف تماماً يجلسون للطعام كل حسب حاجته وشهيته دون أي نظام أو تقسيم نظراً لوفرة هذا النوع من الطعام وسهولة الحصول عليه، وكأنما تولى بوسيدون وظيفة ديميتير[*].

(٣٥/ب) وأحياناً ما تحول الأمواج العاتية بينهم وبين الصيد حيث تضرب الأرض بقوة فتغطي الشواطئ الصخرية لعدة أيام وتمنع أي شخص من الوصول إلى هذه الأماكن. وأمام حاجتهم للغذاء كانوا يلجئون إلى جمع المحار ذى الأحجام العملاقة والتى كان يصل وزن بعضها إلى ٤ مينا[١٧]. وكانوا يكسّرون هذه المحار بأحجار ضخمة ويأكلون لحومها نيئة، مذاقها يشبه مذاق الأصداف. وأحياناً كانت فترات العواصف وارتفاع موج البحر تستمر لوقت طويل ويمنعهم هذا من صيد الأسماك كالمعتاد، ومن ثم فإنهم كانوا يضطرون إلى أكل

(*) بوسيدون هو إله البحر عند اليونان أما ديميتير فهي ربة الحنطة عن أساطير اليونان راجع عبد المعطي شعراوي، أساطير إغريقية، (الآلهة الصغرى) الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٥، جـ٢، ص ٣٧ (المترجم).

المتاح من المحار ولكن عندما لا يكون لديهم هذا المحار فإنهم يبحثون عن الهياكل العظمية للأسماك الحديثة ويأكلونها بأسنانهم مباشرة. أما الهياكل الصلبة فإنهم يكسّرونها بالحجارة أولاً ثم يأكلونها على طريقة حيوانات الكهوف.

(٣٧/أ) أما عاداتهم في الشراب فهي غاية في الغرابة. فعلى مدار أربعة أيام ينشغلون بالصيد والمتعة والغناء ولا يتعرضون لأي نوع من المنغصّات نظراً لسهولة حصولهم على الطعام. وفي اليوم الخامس يذهبون إلى سفح التلال للبحث عن المياه التى يجمعها البدو لسقاية قطعانهم من الأغنام وتكون هذه الرحلة في المساء.

(٣٧/ب) كان هؤلاء القوم يحصلون على الطعام الجاف بالكيفية التى ذكرناها آنفاً، أما عن الشراب فقد كان شأنه معهم بالغ الغرابة وصعب التصديق. فقد كانوا يصطادون الأسماك لمدة أربعة أيام يتخللها الغناء والمتعة وممارسة الجنس بشكل عشوائي بهدف الإنجاب ولم تقيدهم أية قوانين حيث السهولة الفائقة في الحصول على الطعام. وفي اليوم الخامس كان كل هؤلاء يذهبون إلى سفوح التلال للحصول على المياه التى كان البدو يجمعونها هناك لسقاية قطعانهم.

(٣٨/أ) وعند وصولهم إلى آبار المياه التى يملكها البدو وينبطحون على الأرض بركبهم ويشربون كالماشية ولا يشربون مرة واحدة بل عدة مرات. وحين تمتلئ معدة كل منهم بالمياه يعودون مرة أخرى في بطء إلى البحر.

(٣٨/ب) وتشبه رحلتهم للشرب ما نشاهده من قطعان الماشية. فكل منهم يصرخ لمجرد إصدار الصوت دون أي معنى أو مضمون. وفيما يخص الأطفال فقد كانت الأمهات يحملن صغارهن الرضّع على أذرعهن طوال الرحلة، في حين كان الذين تم فصالهم

فيحملهم الآباء، أما الذين تجاوزوا سن الخامسة فيتبعون آبائهم سيراً على الأقدام حيث يلعبون ويمرحون فقد كانت فطرتهم لا تعرف أية متعة أكثر من إشباع حاجاتهم الطبيعية. وعند وصولهم إلى مصادر مياه البدو يشربون بشراهة بالغة ويعودون أدراجهم متثاقلين شبه عاجزين عن السير والحركة نظراً للزيادة الكبيرة الطارئة على أوزانهم.

(٣٩/أ) وعقب عودتهم لا يأكل أحدهم سمكاً أو أي شيء آخر طوال ذلك اليوم، ولكنهم يستلقون فقط على ظهورهم ويتنفسون بصعوبة، وفي اليوم التالي يعودون إلى حياتهم المعتادة التى سبق وصفها، وتستمر هذه الدورة دون أي اضطراب أو معاناة من أي نوع أو قلاقل، ونظراً لبساطة هذه الحياة فإنهم كانوا لا يتعرضون إلا لبعض الأمراض، ولكن معدل العمر كان يتقلص لديهم بنفس مساحة سهولة حياتهم وخلوها من العمل الشاق الذي يمارسه الآخرون(١٨).

(٣٩/ب) في ذلك اليوم لا يتذوقون أي نوع من الطعام، حيث كان كل منهم يستلقى على الأرض ويتنفس بصعوبة، ويبدو كالمخمور. بيد أنهم يعودون إلى حياتهم المعتادة في اليوم التالي حيث طعامهم المصنوع من السمك. وتدور حياتهم في هذا الإطار طوال العمر، ولا يصابون بالأمراض إلا نادراً مثل سائر الشعوب الساحلية، بيد أن متوسط أعمارهم يعد قصيراً قياساً لما هو معروف في بلاد الإغريق.

(٤٠/أ) ويعيش آكلو الأسماك الذين يقطنون حول المضايق[*]، أما الذين يعيشون على السواحل على هذا النمط الحياة المفتوحة، فإنهم يملكون وفرة في الغنائم ولا يحتاجون المياه على الإطلاق، فهم يأكلون الأسماك عندما يريدون فقط تغيير اللحوم فهم ليسوا في حاجة إلى أي شراب بل ربما لا يفهمون من الأصل فكرة الشرب هذه. ويتحملون ما تجيء به الأقدار من البداية دون أية شكوى أو تذمر.

(٤٠/ب) أما نمط حياة هؤلاء الذين يعيشون على الساحل بعيداً عن الخليج فهي أكثر غرابة من حياة هذه الشعوب، حيث يبدو أن فطرتهم لا تعرف معناً للعطش أو الألم. فإقصاؤهم القدري من الأقاليم الآهلة بالسكان إلى الصحراء، ومعاشهم من الصيد يجعلهم لا يفكرون في السوائل، فهم يأكلون الأسماك وهي نيئة بدون جلد وعلى طبيعتها الرطبة. وهم قانعون بنمط حياتهم الذي فرضته عليهم أقدارهم ولا يعرفون من السعادة سوى الابتعاد عن ذل الحاجة.

(٤١/أ) ويقول إنه بالإضافة إلى ما سبق، فإن الشعوب التى تعيش في المناطق سالفة الذكر لها موقف مشابه تجاه ما نراه من المخاطر العظمى. فهم لا يهربون من مواجهة السيف ولا يشعرون بالغضب مما قد يغضب الآخرين. وإن فعل معهم الغرباء شيئاً

(٤١/ب) وأغرب ما في هؤلاء البشر أنهم يفوقون كل الناس في عدم الإحساس بالألم إلى درجة يصعب تصدقيها، حيث إن كثير من التجار الذين أبحروا من مصر عبر البحر الإريثري ووصلوا إلى أرض آكلي الأسماك أجمعوا على صحة ما رأيناه

(*) يقصد مضيق باب المندب، ويفترض أجاثارخيديس فقرة ٣١ مثل بطلميوس في كتاب الجغرافيا (٤، ٨، ٢) أن آكلي السمك كانوا يعيشون على طوال الساحل الغربي من البحر الأحمر في حين كان استرابون (١٦ ، ٤ ، ٧) أكثر تحديداً حيث قال إن آكلي السمك يعيشون في منطقتين، **الأولى**: تمتد بطول ساحل البحر الأحمر في المنطقة من جنوب جزيرة الزبرجد إلى سوتيرا (سواكن) وهي تقريباً المنطقة الممتدة من برينيقي إلى سواكن، **والثانية**: من ميناء يومينوس إلى ديري وهي المنطقة الممتدة من شمال مصوّع إلى مضيق باب المندب. أما صاحب كتاب الطواف فقرة ٢ فيقول إن هذه المنطقة تمتد من برينيقي إلى بطلمية الصيد (بطلمية الوحوش) وهي توازي المنطقة من رأس باناس إلى علاقي (المترجم).

من هذا القبيل فإنهم لا يفعلون سوى هز رؤوسهم، ولا تبدو منهم أية بادرة لـرد الفعل الطبيعي في مثل هذه المواقف بين الناس ولهذا السبب يقول المؤلـف إنـه يعتقد أنهم لا يملكـون لغـة مـشتركة، ولكنهم يديرون كل شيء مرتبط بحياتهم عن طريق العادة ويستخدمون إشـارات وأصوات لا ترقى إلى مستوى اللغة.

من هؤلاء الناس وعـدم إحـساسهم بالألم[١٩]. وكـذلك كـان بطلميـوس الثالث (يورجيتس الأول) مهتماً بصيد الفيلة في هذه المنطقة[٢٠] وكلف أحـد أصـدقائه[*] ويـدعى سـيمياس باستكشاف الإقلـيم ووصـل ومعـه معدات مناسبة كما يقـول المـؤرخ أجاثارخيديس، حيث يصف هذه القبيلة من الإثيوبيين على لـسان سـيمياس قائلاً إنهم لا يشربون على الإطـلاق أي شيء ويشير إلى أنهم بصفة عامة لا يتصلون بغيرهم مـن القبائـل أو الغرباء الذين يزورونهم، بل يحدقون فيهم بلا معنى، ولا تتحرك مشاعرهم وكأن أحـداً لا يقـف أمـامهم. وإذا

(*) فى العقد الأول من حكم بطلميوس الخامس، عند بداية القرن الثانى قبل الميلاد، تم وضع نظام للرتب والألقاب فى البلاط الملكى مرتبة ترتيباً متدرجا دقيقاً، ويلاحظ أن هذا الترتيب كانت له سوابق فى مختلف عصور الملكيات الفرعونية والفارسية والمقدونية. ولكن هذا الترتيب تميز فى البلاط البطلمى بمصطلحات خاصة به وكانت الألقاب الفخرية تشمل الطبقات التالية :

١- الأقرباء ونظراء الأقرباء . (ὁ συγγένης)

٢- الأصدقاء الأول نظراء الأصدقاء الأول (ὁι πρώτοι φίλοι)

٣ - رئيس الحرس الخاص (وأضيفت فيما بعد طبقة رؤساء الحرس الخاص) (ὁ ἀρχισωμάτοφυλαξ)

٤ - الأصدقاء ٥- الخلفاء (أى احتياطى التجنيد) ٦- رجال الحرس الخاص.

يثير هذا التدرج حتى الآن بعض المشاكل وخاصة فيما يتعلق بمهام الإدارة البطلمية، فلا نعرف على وجه التأكيد ما إذا كانت هذه الألقاب الشرفية تمنح بمجرد قرار من الملك، أم أنها كانت مرتبطة بصفة منتظمة بمهام محددة. ويميل العلماء إلى الأخذ بالرأى الأول الذى يفصل بين الرتبة فى البلاط وبين الوظيفة. عن ذلك راجع: الحسين أحمد عبد الله، مصر والشرق الأدنى، العصر الهيلليني، القاهرة، ٢٠١٠، ص ١٦١، وراجع كذلك: L. Mooren ,The Aulic Titulature in Ptolemaic Egypt. Introduction and Prosopography. Bruseels. 1975. PP. 85-6FF. (المترجم).

أخرجت سيفك وهممت بضربهم فإنهم لا يخافون ولا يهربون، ولا يغضبون من الضرب والإهانة. ولا يحركون ساكناً في حالة نزع أطفالهم أو نسائهم أمام أعينهم ولا تبدو منهم مشاعر الغضب أو الحزن أو أي انفعال آخر. وحتى لو تعرضوا لأقصى درجات الرعب فإنه يظلون ساكنين يهزون رؤوسهم كل للآخر دون أي معنى. ولهذا السبب يقال إنهم لا يتحدثون أية لغة، ولكنهم يعبرون عن كل الأشياء الضرورية بإشارات من أيديهم.

(٤٢/أ) ولا يشرب الناس الذين يعيشون بالقرب من آكلي السمك الذين لا يقتحمون عالمهم على الإطلاق وكأن بينهم معاهدة عدم اعتداء بينهم وبين البحارة ودون التآمر ضد بعضهم البعض وتحترم كل جماعة خصوصيات الجماعة الأخرى بطريقة لا يمكن فهمها من قبل الجماعات الأخرى الذين يحاربونهم.

(٤٢/ب) والأكثر عجباً في كل هؤلاء البحارة الذين يعيشون مع هؤلاء القوم وبنفس الطريقة بأمان تام لهم ولأبنائهم ويتعاملون مع الجيران والمجموعات الأخرى بمنتهى الأمانة والاحترام. ورغم غرابة هذا السلوك، فقد استمر طوال العهود القديمة بين هذه القبائل إما عن طريق الاعتياد الفطري أو من منطلق الحاجة أمام تلك الحياة ذات الظروف الصعبة والغريبة لكل الأطراف.

(٤٣/أ) ويستخدم بعض آكلي الأسماك الكهوف كمنازل(*)، بيد أنهم لا يستخدمون تلك التى تكون أبوابها في اتجاه الجنوب ذلك لأنها شديدة الحرارة في حين يستخدمون تلك الموجودة في الاتجاه العكسي والتى تكون أبوابها تجاه الشمال ويعيش بعضهم تحت هياكل عظام السمك[٢١]، والبعض يستخدم أغصان أشجار الزيتون في صناعة المنازل ويقول إن هذا النوع من أشجار الزيتون يحمل ثماراً تشبه الكستناء (أو أبو فروة)[٢٢].

(٤٣/ب) وليس لدى هذه القبائل منازل متشابهة، ولكنها تعيش في بيوت تختلف باختلاف البيئة فبعضها يعيشون في الكهوف، وبخاصة تلك التى تتجه إلى الشمال (الجهة البحرية) حتى تكون درجة حرارتها منخفضة وذات ظلال مناسبة، أما تلك التى تتجه للجنوب (الجهة القبلية) فتشبه الأفران في درجة حرارتها العالية ولا يطيق البشر الإقامة فيها. ومن لا يجدون كهوفاً تتجه بوابتها نحو الشمال يقومون بجمع بقايا هياكل الحيتان الملقاة على الساحل بكميات كبيرة حيث يربطون العظام من الناحيتين بالطحالب البحرية ويصنعون منها غرفاً للمعيشة ويبقون في هذه الغرفات لتقيهم شر الحر فقد علمتهم الطبيعة أن يطوروا مهاراتهم بالفطرة.

وهناك نمط ثالث للبناء حيث يستخدمون أشجار الزيتون التى تنمو في هذا الإقليم وتغسل مياه البحر سيقان هذه الأشجار التى تكون كثيفة الأغصان وثمارها تشبه الكستناء الحلو، ويستخدمون هذه الأشجار في صناعة مأواهم. ويقضون حياتهم في نفس الوقت

(*) يقول Burstein إن عرب العبابدة وعرب البشارية في صحراء مصر الشرقية يستخدمون الكهوف منازلاً لهم. بيد أن هذه المعلومات ربما ترجع إلى القرن التاسع عشر أو بدايات القرن العشرين على أقصى تقدير (المترجم).

على اليابس وفي البحر يعيشون في سعادة ويتقون حرارة الشمس بالأغصان الوارفة لهذه الأشجار ويستمتعون بالنسائم الرقيقة التى تهب عليهم مع أمواج البحر.

(٤٤/أ) وتعيش المجموعة الرابعة من آكلي الأسماك على النحو التالي: كان هؤلاء القوم يقيمون متاريس ضخمة من الطحالب تشبه الجبل أقاموها على مراحل منذ بداية توطنهم، واستقرت هذه الدعائم مع التدفق القوى للأمواج، وتصبح هذه الكتلة متجانسة وقوية وذات طبيعة واحدة وذلك لأن اختلاطها بالرمال التى تزيدها صلابة واستقراراً. ثم يقومون بتقسيمها إلي حجرات ذات ارتفاع يناسب طول الإنسان. ويتركون الجزء الأعلى من هذه الطحالب كسقف قوي، ويصنعون فتحات صغيرة للإضاءة في اتجاه الريح ويقومون بعمل أنفاق في كل اتجاه، ويعيشون آمنين مستقرين في هذا المأوي. وعند حدوث المد، يستعدون للصيد وفق العادات التي سبق ذكرها[٢٣].

(٤٤/ب) وعلينا أيضاً أن نصف النمط الرابع من المأوي الخاص بهم. فهناك تلال قديمة من الطحالب تتراكم في المنطقة، وتشبه الجبال. وتتماسك بفعل الحركة الدائمة للأمواج حولها، وتزداد تماسكاً وصلابة بسبب اختلاطها بالرمال، ويقوم الناس بنقب حجرات يعيشون فيها يبلغ ارتفاعها طول الرجل. ويتركون قطاعاً علوياً كسقف لها، وإلي أسفل يشقون ممرات تصل بين هذه الحجرات كما يستخدمونها في التهوية. وحين يأتي المد يبدءون نشاطهم في صيد الأسماك، وعند حدوث الجزر يعودون إلي هذه الحجرات.

(٤٥/أ) وحين يموت أحدهم لا يكترثون نظراً لفطرتهم البعيدة عن مشاعر الألم والشفقة، ولهذا يتركون جثث

(٤٥/ب) ومن يمت منهم يدفنون جثته وقت الجزر ثم يخرجونها عندما يكون المد عالياً حيث يلقون بالجثث في

الموتى على الشاطئ إلى أن يأتي المد والجزر ويحملها إلي البحر غذاءً للأسماك.

(٤٦/أ) ولدى بعض هؤلاء الذين يعتمدون في غذائهم على البحر خصائص غريبة من الصعب التوصل لتفسيرات منطقية لها فمن الصعب معرفة متي حضروا إلي هذه المناطق وبدءوا الحياة فيها، وكيف صنعوا الأماكن التي يعيشون فيها، كما قلت، والتي لا يمكن عبورها سيراً على الأقدام أو باستخدام أية وسيلة مثل الطواف أو ما يشبهه، وفي ظل هذه الظروف لا نقول سوى إنهم أصحاب هذا المكان من الأزل وأصحاب المعلومات الفطرية الأولي عن أصله وسبل الحياة فيه، وهو ما قاله بعض ممن يقال إنهم علماء الطبيعة(٢٤).

البحر، ويتحول الموتى بهذه الطريقة إلى غذاء للأسماك، وتستمر دورة الحياة هكذا إلى الأبد.

(٤٦/ب) فإحدى قبائل هؤلاء الصيادين لديها أماكن للإيواء غريبة للغاية ولا يمكن تفسيرها بسهولة. فهم يعيشون وسط منحدرات صخرية شاهقة يستحيل المرور إليها من رجال العصر القديم، وذلك بسبب نتوء حافة قمتها وشدة انحدارها من كل الجهات، ولا يمكن الاقتراب منها من أسفل بسبب الكتل الصخرية عند مدخلها بينما البحر يحتل المنافذ في الجانب الآخر مما يجعل المرور إليها سيراً على الأقدام مستحيلاً، ولم يكن بوسعهم استخدام الطوافات(*) أو القوارب لأن معلوماتهم عن الملاحة آنذاك لم تكن تعرف هذه الوسائل.

ولا يمكن تفسير حياة هذه الشعوب إلا بافتراض أنهم قد توصلوا إلي مثل هذه الأوضاع بصورة فطرية دون أية خبرات

(*) يتكون الطواف البحري من ألواح خشبية يربط بعضها إلى جانب بعض ويربط على جانبها قرب جلدية منفوخة وقد استخدمت للنقل البحري ونقل البخور والمر وسلع أخرى في خليج إفاليتيس (خليج عدن) وربما استخدمت للإبحار في خليج عدن ولعبور مضيق باب المندب للتنقل بين الجزر. كما كان القراصنة يستخدمون قرب من جلود الثيران مع ألواح خشبية مستعرضة كمراكب، لمهاجمة السفن وذلك وفقاً لما ذكره بلينيوس واسترابون.

Casson op.cit., P. 162, Strabo, XVI. vi. 782; Pliny, NH., XII-52; VI. 26.10(المترجم) .

سابقة، فهم أول من استوطن هذه المنطقة وعاشوا تلك الظروف منذ بداية الخلق، وفي غياب المعلومات المؤكدة في هذا الصدد، لا يملك أي باحث أو معلق أو مؤرخ إلا أن يجتهد لتقديم أية رؤى يقبلها سامعوه أو قراؤه، ولكنها لا تصل إلى الحقيقة.

(٤٧/أ) خلف المضيق الذي يفصل الجزيرة العربية عن القارة التي تواجهها توجد بعض الجزر التي تتميز كلها بالمساحة الصغيرة والتربة المنخفضة(*). وهي كثيرة العدد على نحو غير مألوف ولكنها لا تحتوي على أية نباتات أو ظروف بيئية مناسبة للحياة. وهي تقع تقريباً على مسافة سبعين ستاداً(**) من اليابسة وفي مواجهة البحر الذي يعتقد أنه

(٤٧/ب) ولابد من الحديث عن قوم يعيشون على أكل لحوم السلاحف (Chelemophagoi) ففي الجزر المتناثرة داخل المحيط، وهي صغيرة الحجم منخفضة التربة، ولا توجد بها زراعة من أي نوع. ولأن كل منها تتاخم الأخرى، فإنهم لا يتأثرون بالأمواج العنيفة، وتعيش في هذه المناطق من المحيط سلاحف تأتي من كل مكان إلي هذه المياه الساكنة،

(*) فيما يتعلق بآكلي السلاحف فهو موضع خلاف بين المصادر القديمة، حيث يقول أرتيميدوروس الذي نقل عنه استرابون (١٦ ، ٤ ، ١٤) إنهم كانوا في أقصى جنوب البحر الأحمر، وربما يكون ذلك على مجموعة من الجزر التى تسمى إحداها بجزيرة السلاحف. في حين بلينيوس، (التاريخ الطبيعي الكتاب السادس فقرة ٢٨) وبطلميوس، الجغرافيا، الكتاب السادس، فقرة ٨ إلى أن آكلي السلاحف كانوا في جنوب غرب كارمانيا (جنوب غرب إيران) وهناك ثلاثة شواهد تأكد أن آكلي السلاحف كانوا على ساحل البحر الأحمر: ١- لم يعط أجاثارخيديس أية إشارة في الفقرة ٤٧ يفهم منها حدوث تغيير جذري في المنطقة التى يصفها أو تجعلنا نفترض أنه يتحدث عن الخليج الفارسي. ٢- أن المصادر التى تعتبر كارمانيا هي أرض آكلي السلاحف تشير إلى وطن يختلف عن ذلك الذي تتحدث عنه الفقرة٤٧. ٣- هناك مصادر قديمة أكدت أن آكلي السلاحف يعيشون عند مدخل البحر الأحمر منها كتاب الطواف في البحر الإريثري فقرة ١٥. وبلينيوس، الكتاب السادس، فقرة ١٧٢ (والكتاب التاسع، فقرة ٣٥-٣٦، وفقرة ٣٨).

(**) الاستاد: وحدة قياس طول إغريقية تتراوح بين ١٨٤-١٨٦م أما الميل فهو وحدة قياس طول رومانية = ١٤٨١,٥م والاستاد يساوي ٢٠٢ ياردة والميل يساوي ١٧٦٠ ياردة (المترجم).

يمتد إلي ما وراء الهند وجيدوسيا. ولا توجد هنا أمواج، ولكن أمام كل جزيرة جزيرة أخرى تتكسر عندها الأمواج، وتبدو هذه الجزر كمناطق ذات مناخ ممتاز. وسكان هذه الجزر عددهم معقول ويعيشون على النحو التالي: فمن البحر الواقع أمامهم والذي تملئه دائماً العواصف والرياح يحصلون على السلاحف العملاقة التي تسبح في المياه العميقة بالليل وتصعد إلى سطح المياه الضحلة بين الجزر في النهار وتستسلم للنوم في مواجهة الشمس مثل المركب، وأثناء ذلك يقوم سكان الجزر بسحبها إلي الشاطئ ويأكلون لحومها بعد تجفيفها قليلاً في حرارة الشمس، ويستخدمون دروعها الضخمة في صناعة منازلهم، كما يستخدمونها أيضاً كمراكب يبحرون بها خلال المضيق فضلاً عن كونها طعام شهي لهؤلاء القوم.

(٤٨/أ) وفي موقع ليس ببعيد عن القبيلة سالفة الذكر هناك نوع آخر من البشر، وهم أيضاً قليلو العدد يعيشون على الحيتان التي تقترب من الشاطئ، وعندما ينضب المتاح من هذا الطعام، فإنهم كانوا يلجئون إلي العظام والغضاريف والأطراف لمقاومة الجوع، ولا يعدمون وسيلة وتقضي الليل في أعماق البحر بحثاً عن الطعام، بينما تعود في النهار إلي سطح البحر بين الجزر وتستسلم هناك للنوم تحت أشعة الشمس، وحيث إن أحجامها كبيرة فإنها تبدو كما لو كانت قوارب صيد طافية على سطح البحر، ويجر السكان هذه السلاحف النائمة إلي الشاطئ باستخدام الحبال ويشفون لحومها بالكامل ويضعونها لبعض الوقت تحت أشعة الشمس ثم يأكلونها. ويستخدمون دروع هذه السلاحف في الإبحار كالقوارب وفي عمليات الإيواء حيث يضعونها على الروابي والمناطق المرتفعة وكأنها منازل، كما يستخدمونها أيضاً كمستودعات للطعام والمياه، وتبدو الطبيعة كريمة معهم على هذا النحو حيث تمدهم بالطعام والمسكن ووسيلة الانتقال وأماكن التخزين من مصدر واحد فحسب.

(٤٨/ب) وغير بعيد عن هؤلاء القوم، يوجد سكان آخرون يعيشون على الساحل ولا يقلون غرابة عن الآخرين ممن سبق ذكرهم. فهم يعتمدون على الحيتان التي تقترب من الشاطئ في غذائهم، وأحياناً تتوافر لديهم كميات كبيرة من الغذاء نظراً لوفرة الحيتان وأحجامها الضخمة، وأحياناً يعانون

للغذاء حتي لو تكبدوا في سبيلها شيئاً من المتاعب والمشقة، تلك هي الشعوب التى تعيش على أكل الأسماك التي أمكننا جمع المعلومات عنهم، ولكن هناك كثيرين آخرين لم نتوصل إليهم.

الفاقة ونقص الغذاء بسبب غياب هذه الحيتان، وفي مثل هذه الظروف يضطرون للعيش على العظام والغضاريف. تلك هي قبائل صائدي الأسماك، وتلك باختصار هي طرق معيشتهم.

(٤٩) على خلاف طريقة الحياة التي نعرفها والتي تجمع بين الضروري والترفيهي، لا تعرف قبائل آكلي الأسماك أية كماليات أو أي شيء لا يندرج في بند أساسيات الحياة، ولا يسعون على الإطلاق لتطوير الطبيعة أو تعديلها. فهم لا يسعون إلي التميز أو السلطة وبالتالي لا يعرفون المناقشة، وهم لا يسعون إلي الثراء ولذلك لا يرتكبون الشرور والجرائم ضد بعضهم البعض، ولا يخوضون صراعات تصفية جسدية ضد الخصوم والأعداء فلا يتعرضون بالتالي للفناء مثل شعوب أخرى. ولأنهم لا يغامرون في البحار سعياً إلي المكسب أو الثروة فإنهم لا يعرفون آلام وكوارث هذه المغامرات. ولأن حاجتهم بسيطة للغاية فإن معاناتهم أيضاً بسيطة للغاية. وتقتصر هذه المعاناة على عدم توافر حد الكفاية في وقت الاعتياد. أما حين يوجد الطعام في وقته المعتاد فإن هذا الأمر يمثل الحد الأقصى للسعادة لدي هؤلاء الناس، وهو شأن يخص الطبيعة وليس عقول أو أفكار أفراد من هذه القبائل. ولا تحكم القوانين هؤلاء الناس، فهم لا يفعلون شيئاً يتطلب الخضوع لسيادة قانون مكتوب أو يصبحون عبيداً له.

(٥٠) ويضم الشريط الساحلي لبابل أرضاً زراعية ذات حضارة. ويمثل نشاط صيد الأسماك هناك عائداً وفيراً يفيض عن حاجة السكان، فهم يستغلون ظاهرة المد والجزر في صيد كميات ضخمة من الأسماك التي تقذف بها الأمواج في مصايدهم، وفي معظم الأحيان يتركون كميات من هذه الأسماك بسبب وفرة الحصيلة وزيادتها عن حاجتهم. ويستغل بعضهم طبيعة الأرض المنبسطة ويقومون بحفر أحواض عميقة ويفتحونها في وقت المد ويغلقونها في وقت الجزر، وبهذه الطريقة يحتفظون بكميات من الأسماك داخل هذه الخنادق يستهلكونها عند الحاجة.

والآن حان الوقت للحديث عن القبائل التى تعيش على الساحل الممتد من بابل إلي الخليج العربي (يقصد البحر الأحمر).

المجموعات السكانية الثانوية:

(٥١/أ) بعد هؤلاء القبائل من آكلي الأسماك، هناك شعب آخر يعيش بجوار نهر عطبرة[٢٥] الذي يمتد في إثيوبيا وليبيا ويقترب كثيراً من نهر النيل، وتتحول معه مملكة مروي إلي جزيرة، ويعيش هذا الشعب على جانبي النهر، وأعدادهم قليلة ويعيشون على النحو التالي:

يقوم هؤلاء الناس بقطع نبات يشبه أعواد القصب من أرض المستنقعات ويغسلونها ويقطعونها بالصخور إلي قطع صغيرة ثم يحولونها إلي مسحوق جيلاتيني[٢٦]، ويضعون فيها فطائر صغيرة أقل من حجم كف اليد. ويقومون بعد ذلك بتجفيفها في أشعة الشمس، ويعيشون على هذا الطعام. وتتعرض هذه المنطقة لهجوم الأسود التي تعيش في الأحراش والمستنقعات، وعند ظهور (نجم الشعري)[*] تظهر معه حشود ضخمة من الذباب، وهي شديدة الأذى

(٥١/ب) بعد أن تناولنا الشعوب التي تعيش على الساحل من بابنل حتى الخليج العربي، سوف نتعرض الآن لتلك القبائل التي تعيش إلى جوارهم.

ففي إثيوبيا جنوب مصر تعيش بجوار نهر يدعي أسا Asa (نهر عطبرة) قبيلة من آكلي جذور النباتات (Rhizophagoi). وهم يقومون بنزع جذور نبات يشبه القصب من أراضي المستنقعات ويغسلونها بعناية ثم يقطعونها بالأحجار إلي أن تصبح مسحوقاً جلاتينياً ويصنعون منها فطائر صغيرة أقل من حجم كف اليد ويتركونها تنضج تحت حرارة الشمس ويعيشون عليها طوال حياتهم. ورغم وفرة مواردهم من هذا الغذاء مما يجعلهم يعيشون في سلام مع بعضهم البعض فإنهم يتعرضون لخطر هجوم الأسود بأعداد كبيرة، ويرجع ذلك إلي شدة الحرارة في الأحراش مما يدفع الأسود إلي الخروج من الصحاري

(*) قسم علماء الفلك النجوم الثابتة إلى ستة أقدار. فجعلوا من القدر الأول أكبر النجوم حجماً وأسطعها نورا، مثل (الشعرى) و(الكلب الأكبر) و(سهيل) و(العيوق) وغيرها. ويعد القدر السادس أصغر النجوم، وهو الذي لا يرى، بالعين المجردة، بوضوح. ونجوم القدر الأول فقليلة جداً، بالنسبة لنجوم بقية الأقدار، ولا تدخل الكواكب السيارة في هذا التقسيم. عن ذلك راجع: حسن صالح شهاب، أسطورة هيبالوس والملاحة في المحيط الهندي، الجمعية الجغرافية، الكويت، ١٩٨٧م، ص٣٤، هامش رقم (١٨) (المترجم).

لدرجة أن الناس[٢٧] تتراجع وتختبئ هناك، وكانت الأسود أيضاً تتعرض للأذى من هذه الحشرات سواء من لدغتها أو من أصواتها المزعجة للغاية فيكون نزوح الأسود والبشر هو الخلاص الوحيد من هذا الخطر.

والبحث عن مكان ظليل وأيضاً عن فريسة من الحيوانات الأخرى، ولهذا السبب كان الإثيوبيون يتعرضون للموت حيث يكونون فريسة لهذه الأسود حال خروجهم من منطقتهم منهم لا يملكون سلاحاً يقاومون به هذه الحيوانات المفترسة، وكان من الممكن إبادة كل هذه القبيلة أمام هجمات الأسود لولا أن الطبيعة ساعدتهم بظهور البعوض في وقت ظهور نجم الشعرى، فبينما يتمكن البشر من الهروب إلي منازلهم، فإن الأسود تضطر للعودة إلي موطنها الأصلي إما لعدم تحملها لدغات البعوض أو لعدم تحملها صوتها المزعج.

(٥٢/أ) وبالقرب من هذه الشعوب توجد قبائل آكلي الألياف Hylophagoi وقبائل آكلي البذور. ولا يختلف أحدهما عن الآخر إلا بقدر طفيف. تعيش إحدى المجموعتين على الثمار التي تتساقط من الأشجار في فصل الصيف، أما في باقي فصول السنة فإنهم يجمعون النباتات التي تنمو في الظل بيد أنها صلبة وساقها شبيهة بنبات اللفت. وتعيش المجموعة الثانية على الأجزاء الليفية من النباتات[٢٨].

وتنام المجموعة الثانية في أماكن آمنة

(٥٢/ب) وإلى جوار هذه القبائل تعيش جماعات من آكلي الألياف وآكلي البذور Spermtophagoi والمجموعة الأخيرة تعيش على التقاط الثمار التي تسقط من الأشجار في فصل الصيف، وفي باقي العام يعيشون على أكل الأجزاء اليانعة من النباتات التى تنمو في الظل. حيث إنها متماسكة القوام وسيقانها تشبه اللفت. وهي تكفي حاجتهم من الطعام معظم السنة. أما آكلو الألياف فإنهم يخرجون مع نسائهم وأطفالهم للبحث عن الطعام حيث

لا يصل إليها الوحوش أثناء الليل. وعند شروق الشمس يتجهون ومعهم نساؤهم وأطفالهم إلي الأشجار ويتسلقونها حتي القمة وصولاً إلى أطراف الأغصان. ويقطعون الأجزاء اليانعة منها ويأكلونها، وقامت هذه المجموعة بتطوير مهارتها مع الوقت حتي صارت أجسادهم تتسم بالرشاقة الكاملة التي تساعدهم على تسلق الأشجار في مهارة تامة والقفز من شجرة لأخرى ومن غصن لآخر حتي في أكثر المناطق خطورة والتي يستحيل وصفها لمن لم يشاهد بنفسه هؤلاء الناس حيث يصلون إليها بسهولة ورشاقة. وهم يمضغون كل ما تصل إليه أيديهم من الغصون ويهضمونها في يسر، ولو سقط أحدهم من أعلى الشجرة فإنه لا يصاب إصابات خطيرة نظراً لمرونة أجسادهم، ويعيش هؤلاء القوم عراة دون ملابس وتعيش معهم النساء والأطفال دون خصوصية أو زواج[٢٩]، ومعظمهم يموت بسبب الجوع حيث يغيب بصرهم أو يضعف بسبب المياه البيضاء التي تصيبهم في سن الخمسين[٣٠] وتمنعهم من مواصلة تسلق الأشجار.

(٥٣/أ) وبعد هذه المجموعة السكنية قبائل الصيادين الذين يعيشون على الأشجار نظراً للعدد الكبير من يتسلقون الأشجار ويأكلون الأغصان والأجزاء اليانعة من الفروع. ومن كثرة تعودهم على هذا الأمر فإنهم يبلغون مهارة لا يمكن تصديقها لمن لم يرهم بنفسه حيث ينتقلون من شجرة إلى أخرى ومن فرع إلى آخر مثلما تفعل الطيور والعصافير، ونظراً لخفة أوزانهم فإنهم لا يسقطون عند قفزهم على أحد الفروع وإذا سقطوا من أي مكان مرتفع فإنهم لا يصابون بأي أذى نظراً لخفة أجسامهم، بالإضافة إلى ذلك فإنهم يمضغون هذه الأعشاب بأسنانهم ويهضمون ما يأكلون بسهولة. ويعيش هؤلاء القوم عراة دون ملابس ويمارسون العلاقة الجنسية دون تمييز ودون تحديد لأنساب الأطفال. ويتسلحون بالهراوات ويقاتلون بعضهم بعضاً من أجل السيادة على المواقع والأماكن، كما يدافعون عن أنفسهم بهذه الهراوات ضد أعدائهم ومعظمهم يموتون بسبب الجوع، حيث تصاب أعينهم بضعف الإبصار ويعجزون عن تسلق الأشجار للحصول على الطعام.

(٥٣/ب) أما المنطقة التالية فيسكنها إثيوبيون معروفون باسم الصيادين. أعدادهم ليست كبيرة وكان لهم نصيب

الوحوش التي تعيش في هذه المنطقة، ويقومون باصطياد الحيوانات من خلال الكمائن ثم يحصلون منها على حاجاتهم المعيشية الأساسية، ويتمتعون أيضاً بالمهارة في استخدام القوس.

وحين لا ينجحون في مهمة الصيد فإنهم يعيشون على جلود الحيوانات التي سبق لهم اصطيادها، حيث يتم ترطيب هذه الجلود ثم وضعها على رماد مازال فيه شئ من الحرارة والدخان الخفيف. وبعد وشيها على هذا النحو يقومون بتوزيعها فيما بينهم بديلاً للطعام.

من اسمهم ففي هذا الإقليم تعيش مجموعة كبيرة من الحيوانات المفترسة بيد أنه يفتقر إلى موارد المياه، وينام هؤلاء السكان فوق الأشجار خوفاً من الحيوانات، وعند بزوغ الصباح يمتشقون أسلحتهم ويذهبون إلي أحواض المياه[٣١]، ويختفون في الأحراش ويراقبون الحيوانات من فوق الأشجار حتى تأتي قطعان الماشية البرية والفهود والحيوانات الأخرى للشرب، وتظل هذه الحيوانات تشرب بشراهة حتي تصاب بالخمول وثقل الحركة، وهنا يقوم الإثيوبيون بالقفز من فوق الأشجار ويستخدمون الهراوات والصخور والأحجار والسهام في السيطرة عليهم ويستخدمون هذه الفريسة في طعامهم وفي بعض الأحيان كان يُقتلون في الصراع الضاري فيما بينهم بيد أنهم غالباً ما كانوا ينهون هذه النزاعات بطريقة وحشية.

وحين يواجهون نقصاً في هذا النوع من الطعام فإنهم كانوا يلجئون إلي جلود الحيوانات التي سبق لهم صيدها ويغمرونها في الماء ثم يضعونها على نار هادئة وبعد نزع الشعر عنها

يقسمونها فيما بينهم ويأكلونها. وكانوا يدربون صغارهم على إصابة الهدف، ولا يعطون الطعام إلا لمن ينجح في هذه المهمة ولهذا السبب يصل رجالهم إلي درجة عالية من إتقان هذا العمل[*].

(٥٤/أ) بعد هذا الموقع بمسافة كبيرة إلي جهة الغرب، هناك شعوب تعيش على صيد الفيلة[٣٢]. حيث يراقبون مرور هذه الحيوانات من فوق الأشجار، ثم يقفزون على أحدها ويجذبون ذيله بشدة، ثم يتسلقون إلي فخذه الأيسر بأقدامهم، ثم يوجهون ضربات متلاحقة لساقه اليمنى باستخدام البلطة، وبعد أن تخور قوي الفريسة بسبب الضرب ونزيف الدم يهرع إليها الصيادون أو معاونوهم ويقطعون لحومها وهي بعد على قيد الحياة وبهذه الطريقة يفقد الكائن الحي حياته وسط سكرات الموت.

(٥٤/ب) وبعد مسافة طويلة غرب هذا الموقع يعيش الإثيوبيون صائدو الفيلة[**]. حيث يعيشون في مناطق الغابات ويراقبون المناطق التى ترتادها الفيلة من فوق الأشجار العالية، ولا يهاجمون القطعان ولكنهم يستهدفون من يتخلف عن القطيع، فحين يصل أحد الفيلة تحت الشجرة التي ينتظر فوقها الصياد يقفز الرجل فوقه ويمسك بذيله بينما يضع قدميه بقوة في فخذه الأيسر، ثم يستخدم البلطة التى يعلقها في كتفه في ضربات حادة متوالية إلي القدم اليمنى للفيل، ويدعون بعضهم البعض بهدوء لإنجاز هذه العملية حيث إن أرواحهم تكون تحت رحمة هذه الفريسة فإما

(*) تشير الفقرة رقم (٥٣ج) إلى أن هؤلاء القوم يعيشون في منطقة يسكنها إناس يعرفون باسم إنديرا Endera وقد أشار إليهم بلينيوس، الكتاب السادس، فقرة ١٩٠ باسم Andera وأشار إليهم بطلميوس، الكتاب الرابع، الفصل السابع، فقرة ٣٤ باسم Pesendarae وربما يكون مسقط رأسهم هي مدينة إندرتا Enderta الحالية في إثيوبيا.

(**) فوزي مكاوي، «الفيل الأفريقي ودوره في الحروب القديمة» مجلة معهد الدراسات الأفريقية، العدد السادس، ١٩٧٧، ص ص ٢٠٦-٢٤٦.

أن يقتلها أو تقتله هي، وفي بعض الأحيان يكون الفيل غير قادر على الدوران وذلك بسبب حركته البطيئة. وفي أحيان أخرى تتمكن الفيلة من قتل الصياد بدفعه إلي شجرة أو صخرة وتظل تضغط عليه بوزنها إلى أن يلفظ أنفاسه، وأحياناً ما تصاب الفيلة بالجنون من الألم وتجري في يأس إلي أن يتمكن الصياد من الإجهاز عليها بالضربات المتلاحقة بالبلطة التى يحملها ونزيف الدماء. وعند سقوط الفريسة يسرع الرجال إليها ويقطعون فخذها وكتفها بينما لم تزل على قيد الحياة.

(٥٥) تلك هي حياة هذا الشعب من صيادي الفيلة الذين يمارسون عملهم وحياتهم في ظل أقصي درجات الخطورة. فقد كان الآخرون يتبعون طريقة أخرى في صيد الفيلة. حيث كان كل كمين مكون من ثلاثة رجال ومعهم الأقواس والسهام المغموسة في سم الثعبان، وكانوا يكمنون للفريسة في المكان الذي تمر منه، وحين تقترب كان أحد الرجال يتولي مهمة فتح الشرك[٣٣] بقدمه، ويقوم الآخران بتصويب السهم بكل قوة، وكان هدفهم الوحيد هو خاصرة الفيل بحيث ينتشر أثر السهم المسموم في كل الجسد بعد وصوله إلي المعدة، ومن هنا يؤدي الجرح القاتل إلي سقوط الفريسة.

(٥٦/أ) أما المجموعة الثالثة فهي من آكلي الفيلة الذين كانوا ينتظرون انتهاء الفيلة من الأكل وعند خلودهم إلى النوم لم تكن الفيلة تنام على

(٥٦/ب) بعض الشعوب التى تعيش بالقرب من هذا الموقع تعيش على صيد الفيلة دون تعريض أنفسهم لأية مخاطر ذلك أن الفيلة تختلف عن غيرها من ذوي الأربع حيث لا

الأرض بل كانت تنام مستندة إلى جذع إحدى الأشجار الضخمة. وكانت هذه الجماعات تتجول في الغابات بحثاً عن أماكن نوم الفيلة المستند إليها الفيل وعندما يعثرون على أحد أماكن نوم الفيلة يقومون بقطع الشجرة من الناحية العكسية مما يؤدي إلي سقوط الفيل النائم وعجزه عن النهوض ويصبح وجبة جاهزة للصيادين حيث يقوم كل منهم بعد موت الفريسة بقطع اللحم من فخذيه كل حسب حاجته(*).

تستطيع هذه الحيوانات الاستلقاء على ظهورها أو النوم على الأرض نظراً لعدم قدرتها على النهوض، ومن ثم فإنها تكتفي بالاستناد إلي الأشجار الضخمة وتنام نوماً خفيفاً وهي واقفة، وكانت الأشجار التي يستخدمها الفيلة تحمل آثارهم بحيث يعرفها الصيادون من هذا الشعب الإثيوبي، وما إن يجدوا إحدى هذه الأشجار حتى يقوموا بنشر جذع الشجرة بالقرب من الأرض حتى لا يبقى منها سوى الشيء اليسير، وينسحبون من الموقع قبل وصول الفريسة، وعند اقتراب الليل يعود الفيل من المراعي متخماً بالطعام ويستند إلي الشجرة بكل وزنه استعداداً للنوم فتهوي به الشجرة إلى الأرض ويقضي الليل على ظهره حيث يعجز عن النهوض، ويعود الإثيوبيون في الصباح ليجدوا الفريسة في انتظارهم ويقتلونها دون أي نوع من المخاطر ويعيشون في هذه

(*) ظل الإغريق، استناداً إلى ما قاله أرسطوطاليس، Historia Animalium ٢، ١، ٤٩٨، (أ) ٣-١٣، يرفضون هذه الفكرة في صيد فيلة أفريقية وكانوا يعتبرون الهند هي المصدر الوحيد لها. وظل الأمر هكذا طوال القرن الرابع قبل الميلاد عندما لفت مؤرخو عصر الإسكندر وخلفائه، وبخاصة أجثارخيديس، الأنظار إلى هذه الحيوانات مرة أخرى حيث إنه رأى هذه الحيوانات في مصر في القرن الثاني قبل الميلاد وذلك بعدما قام بطلميوس الرابع بإعادة تجديد سلاح الفيلة البطلمية.

Josephus, Jewish Antiquities XIII.1117, 120.

عن هذا المؤرخ راجع سيرة حياة فلافيوس يوسيفوس (٣٧-١٠٠م) المجلد الأول، ترجمة محمد حمدي إبراهيم، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، ٢٠٠٥، وانظر أيضاً: يوسيفوس، آثار اليهود القديمة، جـ١ ، ٢ «ضد أبيون» ترجمة محمد حمدي إبراهيم، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، ٢٠٠٧ (المترجم).

البقعة إلي أن يفرغوا من التهـام كـل لحوم فريستهم.

(٥٧) كان بطلميوس الثاني ملك مصر قد حث هؤلاء الصيادين على التخلي عن قتل الفيلـة حتي يتسلمها منهم، ووعدهم بالكثير من العطايا المغرية مقابل استجابتهم له. ولكنه فـشل في إقناعهم وأبلغوه بأنهم يرفضون مقايضة نمط حياتهم بكل المملكة التي يحكمها.

(٥٨/أ) وإلي الغرب من إقليم صـيادي الفيلة[٣٤] الذين اعتاد البدو تـسميتهم "بالأنجاس" كان يعـيش فـرع مـن الإثيوبيين يعرفـون باسـم Simi(*) وإلي الجنوب فرع آخر يدعي «آكلى النعام» Struthophogoi، وكـانوا يصطادون هذه الطيور بعصا ضخمة ينهون بها حياتها فيـأكلون لحومهـا ويستخدمون جلودها فـي الملابـس والمأوى، وحين يتعرضون لهجـوم من قبائـل الـسيميي Simi كـانوا يدافعون عن أنفسهم بقرون الغـزلان التي تتميز بالحجم الكبيـر والحـدة الفائقة، وكانت الغزلان كثيرة العـدد فى هذا الإقليم.

(٥٨/ب) والمناطق الواقعة إلى غرب هذه القبائل يسكنها إثيوبيون يعرفون باسـم السيمي (Simi)، وإلي الجنوب قبيلـة من آكلي النعام، وهـذا النـوع مـن الطيور يتميز بحجمها الكبير الذي يقل قليلاً عن حجم الغزال، بيد أنه صـغير الرأس طويل الرقبة، ورغم عجزه عن الطيران بسبب ثقل وزنه، فإنـه كـان يمتلك سيقانً قوية وقدرة على الجـري السريع أكثر من أي طائر آخر بحيث لا يلمـس الأرض أثنـاء الجـري إلا بأطراف أصابعه، وخاصة في حالـة سرعة الرياح والتـي يـستغلها فـي الجري شبيه الطيران مستخدماً جناحيه مثل الـسفينة التـى تـدفعها الريـاح والشراع. ويـدافع عـن نفـسه فـي المطاردات بالجري السريع واسـتخدام قوة ساقيه، ولكنه يتحول إلـي كـائن

(*) عن هؤلاء البدو راجع الفقرات من ٦١-٦٦ من هذا الكتاب. وقد لاحظ بن حوقل أن قبائل البجة هم من أحفاد هؤلاء البدو، ويرفض أغنياء هذه القبائل آكلي لحوم الحيوانات البرية ويرفضون أن يشاركوا في أكلها أو الأكل في الأوعية التى طهيت فيها (المترجم).

مسالم في الأجواء المعتدلة التي لا تمنحه فرصة استخدام جناحيه وسرعة الرياح في الهروب من المطاردات. وتعيش هذه الطيور في تلك المنطقة بكثافة لا يمكن تصديقها، وكان الناس هناك يستخدمون وسائل شتي في اصطيادهم ويأكلون لحومها أما جلودها فيستخدموها في الكساء والفراش.

وحين يتعرض هؤلاء القوم لهجوم من الإثيوبيين السيمي (Simi) فإنهم كانوا يستخدمون قرون الغزلان في الدفاع عن أنفسهم نظراً لطولها وقوتها وحدتها، وكانت هذه الحيوانات تتوافر لديهم بأعداد كبيرة.

(٥٩/أ) وفي منطقة لا تبعد كثيراً عن هذه القبائل يعيش آكلو الجراد Acridophagoi وهم قصار القامة ونحيلو الأجسام قياساً إلى الجماعات الأخرى وبشرتهم سمراء داكنة وفي وقت الاعتدال الربيعي أو الخريفي تهب الرياح الجنوبية الغربية(*) والرياح الغربية وتصل معها إلي هذه المنطقة حشود كثيفة للغاية من الجراد

(٥٩/ب) على مسافة قصيرة من هذه القبائل يعيش آكلو الجراد في إقليم يتاخم الصحراء، ويتميزون بالبشرة السوداء الداكنة والجسد النحيل قياساً بالقبائل الأخرى. وفي فصل الربيع تهب على الإقليم رياح غربية وجنوبية غربية، وتحمل معها أعداداً ضخمة للغاية من الجراد الذي يتميز بالحجم الكبير والأجنحة ذات المظهر

(*) الرياح الجنوبية الشرقية: الرياح السائدة في هذا الموسم هي التى تأتي من الجهة الشمالية الشرقية. لكنها أحياناً تأتي من ناحية المشرق، وأحياناً أخرى من الجهة الجنوبية الشرقية، وتسمى عند البحارة إذا جاءت من هذه الجهة بالرياح الجنوبية، وكذلك الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فإنها تأتي أحياناً من جهة المغيب، عن ذلك راجع حسن شهاب، مرجع سابق، ص٣٤، هامش ٢٠ (المترجم).

من مكان غير معـروف وتختلـف أجنحة الجراد عن أجنحـة الطيـور ولكنها تأخذ نفـس الـشكل تقريبـاً ويتغذون على هذا الطعام طوال العام وإن كانوا يعدونه أو يجهزونه بطرق مختلفة بيد أن أشهرها هو تمليح هذا الجراد وتقوم هذه القبيلة باصطياد هذا الجراد باستخدام الدخان الذي يجبـره على الهبوط إلي الأرض(٣٥).

ولا يزيـد متوسـط أعمـار هـذه الجماعات عن أربعـين عامـاً. نظـراً لاعتمادهم الكلي على نوع واحـد مـن الغذاء الجاف. ويموتون بطريقة لا تقـل مأساوية عن حياتهم فحين يتقدمون فـي العمر، تظهر على أجسامهم مجموعـات من القمل ذي الأجنحـة والتـي تـشبه القراضة ولكنها أقل حجماً من قراضـة الكلاب. وتبدأ من الصدر ثم تنتشر على كل الجسد بسرعة كبيرة. وفـي البدايـة تكون أعراضها مثل الذي يعـاني مـن الإسقربوط Scabies وعندما تصل إلى الذروة فإنهم يمزقون أجـسادهم بعنـف، ويصاب الجلد بالقروح والصديد ومنهـا تنفذ القراضة إلى الجسم ويموتـون مـن لدغاتها بهذه الطريقة المأساوية.

القذر والقبيح، ويتعامل الـسكان مـع أسراب الجراد هذه بتقسيم الإقليم إلي قطاعات مـساحة كـل منهـا عـدة استادات ويشعلون النيران فـي كـل الوادي ويحرقون الأغـصان بحيـث يندفع منها دخان كثيف مما يؤدي إلي سقوط الجراد على الأرض، ويـستفيد الـسكان مـن التربـة الملحيـة(٣٦) المتوافرة لديهم في اسـتخدام الملـح لتحسين طعم هـذا الجـراد قبـل أن يأكلوه أو يحفظوه للأكل فـي موعـد لاحق لأنهم لا يملكون أيـة مـوارد غذائية أخرى بسبب جغرافية الإقلـيم الصحراوي الخالية من الـسواحل أو الأرض الزراعيـــة، ولا يتجـــاوز متوسط أعمار الناس في هذا الإقلـيم الأربعين عاماً، حيث إنهـم يموتـون بطريقة مأساوية غريبة. فحين يقترب أحدهم من سن الشيخوخة تظهر على جسده مجموعـات مـن القمـل ذي الأجنحة شديدة القبح فـي مظهرهـا، ويبدأ المرض من المعـدة والـصدر وسرعان ما ينتقل إلي كل الجسد من خلال محاولة المريض "حك جلده" في

(*) ربما تكون طور من أطوار الدودة الحلزونية التى تنشأ حول الجروح والقروح ولا تخرج من جسد الإنسان أو الحيوان إلا بوفاته. وقد انتشرت هذه الدودة في ليبيا في تسعينيات القرن العشرين (المترجم).

مكان الإصابة الأولي ثم يمتد بعد ذلك إلي كل الأجزاء الأخرى حتى يضطر المصاب إلي تمزيق جسده بأظافره عند توغل هذا القمل مخترقاً جلد الضحية في أعداد كبيرة وبوحشية بالغة وكلما زادت القروح[*] في جسد المصاب كلما ازدادت وحشية القمل وعمق الإصابة إلي أن تنتهي حياة الضحية بهذه الطريقة المأساوية التي تعود جذورها إلي نوعية الطعام أو نوعية الهواء.

(٦٠/أ) يقول أجاثارخيديس إن الإقليم المتاخم لآكلي الجراد كان شاسع المساحة غني والمراعي المتباينة ورغم أنها صحراوية بيد أنها متاحة أمام الشعوب والقبائل التي تعيش هناك[٣٧]. وهي مهجورة بسبب نوع غريب من العقارب والعناكب والتى يسميها البعض Four Jaws. ويقول الناس إنها تتكاثر بسرعة كبيرة مع سقوط الأمطار، واضطر الناس للفرار من هذه المنطقة نظراً لعجزهم عن مقاومة هذه الحشرات القاتلة، وحدث نفس الشيء في بلدان أخرى فالفئران البرية الضخمة في إيطاليا، والعصافير التي أكلت البذور

(٦٠/ب) ويتاخم هذه القبيلة إقليم آخر ذو مساحة كبيرة تمتد فيها المراعي الجيدة المتنوعة، ولكن هذا الإقليم غير صالح لسكني البشر حيث تنتشر فيه عقب الأمطار الغزيرة أسراب رهيبة من العقارب السامة والعناكب ويقول المؤرخون إن حشوداً كبيرة من هذه الحشرات خرجت إلي سطح الأرض وفشل الناس في مقاومتها أو الصمود أمام لدغاتها القاتلة واضطروا للهروب إلي مناطق أخرى. وهناك وقائع مماثلة حدثت في أماكن أخرى يرويها المؤرخون ومنها ما حدث في إيطاليا بسبب الفئران البرية التي ترك لها الناس أرضهم

والحبوب في ميديا، والضفادع التي أتت على الأوتارياتاي Autariatae[٣٨]. والمدن التي تركت مواقعها بسبب الزيادة الكبيرة في أعداد الأسود في ليبيا، وكوارث أخرى كثيرة حلت ببلاد أخرى جردتها من السكان.

ومساكنهم، وفي ميديا حيث جحافل العصافير التي أكلت الحبوب والبذور وأجبرت الناس على الرحيل. والضفادع التي تساقطت مع الأمطار على رؤوس الأوتارتاي (Autariatai) وأجبرتهم على الرحيل. كما يروي المؤرخون قصصاً أخري ليس بينها العمل غير الأخلاقي المنسوب إلي هيراكليس وهو طرد الطيور التي كانت تغطي بحيرة ستيمفاليا Stymphalia. وكذلك بعض مدن ليبيا التي تركها الناس فراراً من الأسود التي غزت بلادهم قادمة من الصحراء.

ولعل هذه الأحداث تسهم في إقناع من لا يصدقون ما نرويه عن غرابة هذه الأقاليم وسنعود إلى هذه الموضوعات في دراستنا مرة أخرى.

(٦١/أ) أما آخر التجمعات البشرية التي تعيش في اتجاه الجنوب هي ذلك الشعب الذي يطلق عليه الإغريق اسم (حالبو الكلاب Cynomologoi)[*]، بينما يسميهم جيرانهم البرابرة المتوحشون.

ويتميز هؤلاء القوم بشعورهم ولحاهم

(٦١/ب) في أقصي جنوب هذه الأقاليم يعيش شعب يعرفه الإغريق باسم «حالبو الكلاب» بينما يعرفهم جيرانهم باسم المتوحشون ويتميزون باللحي الطويلة والكلاب المتوحشة الضخمة التي يدربونها على نمط حياتهم. ومع

(*) لم يعش حالبو الكلاب في إثيوبيا على الإطلاق بل هي جماعة تعيش في الهند. ويقول أجاثارخيديس إنه نقل هذه المعلومات من المصادر البطلمية التى سبقته.

الكثيفة ويقومون بتربية أعداد كبيرة من الكلاب الضخمة ويستخدمونها في اصطياد الماشية الهندية التي تدخل هذا الإقليم بأعداد كثيفة للغاية مع الانقلاب الصيفي ومنتصف فصل الشتاء. ويعيشون على الحليب الذي يحصلون عليه من إناث الكلاب والطعام ويحصلون على طعامهم من الحيوانات الأخرى. وهذا الشعب يمثل آخر الشعوب التى تعيش في أقصى الجنوب.

بداية الانقلاب الصيفي حتى وسط الشتاء تدخل المنطقة أعداد لا حصر لها من الماشية الهندية التي لا يعرف أحد إن كانت تهجر موطنها الأصلي بسبب نقص الغذاء أم بسبب هجوم تتعرض له من الحيوانات المفترسة. ويقوم سكان المنطقة باستخدام الكلاب في اصطياد هذه القطعان وحراسة ما يتبقي منها على قيد الحياة، ويستخدمون لحومها في الطعام ويملحونها ويخزنون ما بقي منها، كما يستخدمون الكلاب في صيد حيوانات أخري ويعيشون طوال حياتهم على أكل اللحوم.

وتعيش هذه القبائل في أقصى الجنوب وتشبه الحيوانات المفترسة في حياتها وبقى علينا أن نتحدث عن جماعتين فقط هما الإثيوبيون والتروجوديتيس (Trogodytes).

التروجوديتيس(*):

(٦٢/أ) تحدثنا فيما سبق عن الإثيوبيين وفيما يلى نتحدث عن التروجوديتيس وما نملكه من معلومات عنهم لا يزيد عن التالي: يحكمهم طاغية(٣٩) والنساء والأطفال مشاع بينهم، باستثناء زوجة الحاكم التي لا يجوز أن تمارس علاقة خاصة مع أي رجل آخر، ويتم توقيع غرامة عبارة عن خروف واحد على أي شخص يخالف ذلك.

وفي الشتاء ومع هبوب الرياح الموسمية(**) تغرق الأمطار الغزيرة أرضهم ويستخرجون مخزونهم من اللبن والدم؟ حيث يخلطونها معاً في أوان خاصة ذات درجة حرارة معينة. وحين يأتي الصيف يعودون للحياة في الأرض الرطبة ويقاتلون بعضهم البعض من أجل المراعي. ويأكلون لحوم الحيوانات كبيرة

(٦٢/ب) يطلق الإغريق اسم البدو على التروجوديتيس الذين يعيشون متجولين في مجموعات يحكمها حاكم مطلق (طاغية)، حيث النساء والأطفال مشاع بينهم فيما عدا امرأة الحاكم والتي يتعرض من يجرؤ على إقامة علاقة خاصة معها لدفع غرامة مقدارها عدد معين من الغنم،ذ وعند بداية الشتاء يقومون باستخراج مخزونهم من الجرار المليئة بخليط اللبن والدم والتي يتم تخزينها في درجة حرارة معينة تشبه عملية الغليان البطيء أو البسترة. وحين ينتهي الشتاء يعودون إلي الأراضي الرطبة ويقاتلون بعضهم بعضاً للسيطرة على المراعي الصالحة ويأكلون لحوم الحيوانات كبيرة السن أو الضعيفة أو المريضة.

(*) استخدم كل من فوتيوس واسترابون وديودروس الصقلي مصطلح Troglodytai في حين كان Trogodytes اشتقاق يوناني من المصطلح. وجاء ذكر المصطلح الأخير في OGIS. 70.4. and 71.3 وكذلك استخدمه أجاثارخيديس، وحذف استرابون أيضاً حرف اللامدا λ. وربما يكون هؤلاء هم قبائل البجة الذين يسكنون في وسط وشرق السودان. عن تحديد موقع تروجوديتيكا Trogodytes أو تروجلوديتيكا Troglodytes راجع: Meredith, D. "Bernice Troglodytia" ***JEA*** (1957) PP: 56-70 cf, Tomber, R. "Trglodites and Trogodites: Exploring interaction on the Red Sea during the Roman Period" in people of the Red Sea II by J.C.M Starkey (ed) 2005. (المترجم).

(**) تكون الرياح الموسمية عادة شمالية غربية وتبدأ في أواخر شهر يوليو أي مع بداية فيضان نهر النيل.

السن أو المريضة وذلك بعد ذبحها علـــى يـــد جـــزارين يطلقـــون عليهـــا اســـم الأنجاس(*).

ولا يعرفون معني الوالدين في أي أطر بشرية، ولكنهم ينسبون هذه العلاقة للثور والبقرة أو الكبش والنعجة بحيـث يكون الثور أو الكبش في مقـام الوالـد والبقرة أو النعجة في مكانة الوالدة حيث فهذه الحيوانـات عنـدهم هـي السـبب الرئيسي في بقائهم على قيد الحياة(٤٠).

والشراب الشعبي عندهم من ثمـار شوك المسيح، بينمـا يـشرب الحكـام مشروباً من زهرة خاصة يشبه النبيـذ ذا المستوى الرديء أو الخمـور الحلـوة.

ولا تعرف هذه القبائل الوالدين من العناصر البشرية، ولكنها تعتبـر الثـور والداً والبقرة والدة وكـذلك الحـال مـع التيس والنعجة، فهذه الدواب هـي التـي تمدهم بأسباب الحيـاة ولـيس الأبـوين الفعليين. أما شرابهم فيصنعونه من نبات شوك المسيح، بينما يتعـاطى رؤسـاؤهم شراباً يشبه النبيذ الرديء ويصنعونه من أحد أنواع الزهور. ويرتحلون بقطعـانهم من مكان لآخر، ويعيشون عراة إلا مـن حزام جلدي يستر العـورة. ويمارسـون عادة الختان مثل المصريين فيمـا عـدا جماعة تدعي "Colobi" دون غيرها من سكان المضيق الذين يقومون بقطع كـل

(*) يشير ابن حوقل إلى أن هؤلاء هم قبائل البجة الوسطى وأن السبب الرئيسي للصراعات بين قبائل البجة كان من أصل الماء والمرعى، والبجة أو البجاه هم بدو الصحراء الشرقية من النيل حتى سواحل البحر الأحمر . يردون أحياناً تحت اسم Magae . تحدثت عنهم الكتابات اليونانية مثل هيرودوت، و كذا الجغرافيا الرومانية عبر بلينى الذى سمع وصفاً أسطورياً عن أجسادهم التى كانت بلا رأس ! بل و أضاف أن عيونهم و أفواههم إنما تكون فى صدورهم !!

وهم الذين سبق أن وردوا فى المصادر الرومانية والبيزنطية الباكرة تحت اسم قبائل البليمى Blemmy. وهى القبائل التى حاربت الامبراطورية الرومانية و نجحت أحياناً فى الاستيلاء على المنطقة الواقعة ما بين النيل و البحر الأحمر جنوبى مصر وشمالى السودان . فقد سيطروا على طرق التجارة فى القرن الثالث الميلادى بالصحراء الشرقية , قبل أن يقوم الامبراطور أورليانوس Orelianus (٢٧٠- ٢٧٥م) بإلحاق الهزيمة بهم .كما اصطدموا أيضا بالإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤-٣٠٥م), وهو ما اضطره للتخلى لهم عن بعض الأراضى, والسماح لهم بدخول معبد فيلة. بالإضافة إلى استلامهم جزية منه. حدث هذا قبل أن يقوم الإمبراطور ماركيانوس Marcianus (٤٥٠-٤٥٧م) بهزيمتهم من جديد عام ٤٥١م. عن ذلك راجع: مصطفى مسعد, "بعض مظاهر العلاقات بين الجزيرة العربية وأركان البجه بشرق السودان ومصر", بحث فى كتاب: دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية, الكتاب الثانى, الجزيرة العربية قبل الإسلام, إشراف عبد الرحمن الطيب الأنصارى, ١٩٨٤م, ص ٣٩٤-٣٩٦ (المترجم).

ويعيش هؤلاء القوم عراة فيما عدا تغطية العورة بحزام من الجلد. ويلجأ فريق من التروجـوديتيس إلـي الختـان مثـل المصريين، بينما القبيلـة التـي يعرفهـا الإغريق باسم "كولوبي"[٤١] تقوم بختـان أبنائها في سن الطفولة ومن هنـا كـان الاسم الذي عرفهم به الإغريق[٤٢].

الجزء الذي كان يهذبه الآخـرون فقـط وذلك في سن الطفولة.

وفيما يخص تسليحهم فإن إحدى القبائل وتدعي ميجاباري[٤٣] تستخدم دروعاً دائرية مصنوعة من جلود الثيران وهـراوات ذات أطراف حديدية، بينما لا تعـرف القبائـل الأخرى سوي القوس والرمح.

(٦٣) استخدم المؤلف مصطلح καμαρα[٤٤].

(٦٤/أ) يقول الكاتـب أن التروجودتيـداى يتعاملون مع الموتي على النحو التالي:

يصنعون من الأغصان الطرية من نبات شوك المسيح ما يغطون به موتـاهم من الرقبة إلـي القـدمين، وبعـد وضـع الجثمان علـى مكـان مرتفـع يرشـقونه ويستمرون في اللهو والضحك حتي دفـن الجثة وسط ركام من الحجارة ويـضعون فوقها قرن ماعز ثم يغادرون المسكن وهم في غاية الـصخب والـسعادة دون أدنـي مظهر للحزن. ويبدو سلوكهم هـذا- كمـا يقول الكاتب- مفهوماً حيث يطردون عـن أنفسهم مشاعر الحزن والكآبة والتحرر من الألم، وهو مظهر ودليل على الذكاء.

أما في المعـارك والحـروب بـين مجموعاتهم المختلفة حول ملكية المراعي والرعي فيها، حيث لا يحاربون لـشيء

(٦٤/ب) وتبدو إجراءات دفن الموتى لـدي هذه القبائل غريبة تماماً. فبعد لف جسد المتوفى في الأغصان اللينة من نبـات شوك المسيح يقومون بشد الرقبة إلـي القدمين. ثم يضعون الجثمان على رابية ويرشقونه بحجارة في حجم قبضة اليـد وهم يضحكون إلي أن يختفي الجثمـان تحت ركام الأحجار، ويضعون علـى قمته قرن تيس ثم يعـودون أدراجهـم دون أن تبدو عليهم أية مظاهر للحـزن أو الأسى.

وهؤلاء الناس لا يقـاتلون بعـضهم بعضاً من أجـل الأرض أو الأغـراض الأخرى التي يقاتل في سبيلها الإغريـق والأمم المتحضرة. ولكنهم يقـاتلون مـن أجل المراعي اليانعة، ويبـدءون بـرجم بعضهم البعض بالأحجار إلي أن يتعرض

آخر، فإن النسوة المتقدمات في العمر يتكفلن بإنهائها، وذلك حين يتقدمن الصفوف فينخفض غلواء الصراع بكلمات طيبة.

ولا ينام هؤلاء الناس كسائر البشر، فعندهم قطعان ضخمة من الحيوانات ويضعون أجراساً في قرون كل ذكورها حتى تتصرف عنهم الحيوانات المفترسة، وفي المساء يقومون بجمع القطعان في حظائر كانوا يغطونها بسقف ثقيل مصنوع من سعف النخيل، وتصعد النساء والأطفال إلي قمة هذه الأسقف، بينما يتولي الرجال مهمة إشعال النيران في دائرة ثم يبدءون في غناء القصص والروايات التراثية حتي يطردوا النوم من أعينهم، ففي كثير من المواقف يتمكن النظام وليد الحاجة أو الضرورة من التغلب على طبيعة الأشياء.

وحين يصل الناس في هذه القبائل إلي سن التقاعد أو الشيخوخة ولا يستطيعون القيام بمهامهم في رعاية القطيع فإنهم يقومون بربط ذيل إحدى الأبقار حول أعناقهم ويتخلصون على هذا النحو من حياتهم. وإن كان بعضهم يرفض فكرة الموت، فإن أحد (المترقبين) يتولي مهمة قتلهم بنفس الطريقة كما لو كان يفعل بعضهم للإصابة بجراح، ويخرجون من هذه الموقعة إلي نزال آخر بالقوس والسهم. ونظراً لمهارتهم في التصويب يسقط الكثير من القتلى في هذه المعارك، ولا تنتهي الموقعة إلا بتدخل السيدات الطاعنات في السن اللاتي يتمتعن باحترام الجميع فلا يجوز قتالهن ويتوقف الرجال عن القتال فور ظهورهن في ميدان المعركة.

وحين يصل الرجال إلي سن الشيخوخة ويعجزون عن السير خلف القطيع ليقوم الواحد منهم بلف ذيل بقرة حول رقبته ويتخلص من حياته طواعية. أما إن شاء أحدهم أن يظل على قيد الحياة فإن أي شخص له الحق في قتله بنفس هذه الطريقة على سبيل الشفقة، كما أنهم يقتلون أيضاً المرضي والمعاقين، فهم يؤمنون بأن أكبر الشرور بالنسبة لأي شخص الاستمرار في الحياة رغم عجزه عن عمل ما يجعله جديراً بها. وهكذا كان كل أفراد التروجوديتيس يتمتعون بالصحة والعافية والحيوية نظراً لعدم وجود أي شخص عاجز أو مريض أو معاق أو فوق سن الستين.

ذلك على سبيل الرحمـــة. بيـــد أنهـــم لا
يفعلون ذلك مع كبار السن فقـــط ولكـــن
أيضا مع المعـــاقين والمرضـــى الـــذين
يعجزون عن مرافقة القطعان.

(٦٥) تنقسم الأرض المعمورة إلي أربعة اتجاهات، الشرق والغرب والشمال والجنـــوب.
وقد سبق أن تناول كل ليكوس(٤٥) وتيميوس(٤٦) الإقليم الغربي في حين تناول كل من
هيكاتيوس(٤٧) وباسيليس(٤٨) الجزء الشرقي، أما ديوفانتوس(٤٩) وديمتريوس(٥٠) فقـــد
تناولا الجزء الشمالي، أما أنا فقد قررت أن أكتب عن الجزء الجنوبي.

(٦٦) تحدثنا كثيراً عن التروجوديتيس، وإن كان أي قارئ لا يثق في هـــذه المعلومـــات
لغرابتها، فإن عليه مقارنة مناخ سكيثيا Scythia(*) بنظيره لـــدي التروجـــوديتيس،
وملاحظة الفوارق بين هذا وذاك.

هناك تناقض كبير بين المناخ الذي نعرفه في بلادنا (اليونـــان) وبـــين الظـــروف
المناخية التي تعيش فيها هذه القبائل. ففي بلادنا تتجمد الأنهار بسبب البـــرودة الـــشديدة
ويعطل الجليد مسيرة الجيوش وحركات العربات الثقيلة، ويتجمد فيها النبيـــذ والـــسوائل
بحيث لا يمكن قطعها بالسكين، والأغرب من كل هذا أن قـــوي النـــاس تخـــور حـــين
الاحتكاك بملابسهم ويصابون بالعمى. ولا تمثل النيران أية حماية، ويقول الناس إنـــه لا
يوجد برق ولا رعد في هذه الأقاليم بسبب كثافة السحب. وهناك ظواهر أخـــري أكثـــر
غرابة لا يمكن تصديقها.

(*) هي السند، على وجه التأكيد، فصاحب كتاب الطواف يطلق هذا الاسم على البلاد التى تجري فيها نهر (السنذوس) Sinthus وهو – كما قال – أعظم الأنهار التى تصب في البحر الإريثري (الهندي)، وتنحدر فيه مقادير هائلة من الماء تندفع بين مياه البحر، فتجعلها عذبة، لمسافة بعيدة، قبل الوصول إلى الشاطئ، وكعلامة على الاقتراب من هذا البلد، للقادمين من البحر، ظهور الثعابين التى تأتي من الأعماق لتقابلهم. ومن المؤكد أن البحارة اليونان والرومان قد عرفوا هذه العلامة من بحارة المحيط الهندي المحليين، الذين سبقوهم إلى الاسترشاد بها على قرب بر الهند، والذين بقوا يسترشدون بها حتى أيام ابن ماجد وسلميان المهري، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد، وتعرف عندهم بـــ (المارزة) و(الحيات). إلا أن هذه العلامة لا صحة لها عندهم في الجزر بين عمان والسند. حسن شهاب، مرجع سابق، ص٣٣، هامش ١١ (المترجم).

أما في أقصى حدود مصر الجنوبية التروجوديتيس، وبسبب الحرارة الشديدة وقت الظهيرة، يقف الناس الواحد خلف الآخر فلا يستطيع أحدهم رؤية من أمامه بسبب كثافة الهواء. ولا يستطيع أحد السير حافي القدمين في هذه الحرارة الرهيبة. وشرب الماء ضروري جداً ذلك أن أي إنسان يموت من فوره إذا لم يتمكن من إطفاء لهيب العطش حيث تسلبه الحرارة المرتفعة كل العناصر الرطبة في جسده. كما يتم طهى أي نوع من الأطعمة بسرعة بمجرد وضعه في آنية من البرونز وتعريضه للشمس دون استخدام نار أو أية مواقد.

(٦٧/أ) لا توجد مسافات طويلة تفصل بين هذه الجماعات البشرية وطقوسها الغريبة. فكثير من الناس الذين أبحروا في السفن التجارية من بحيرة مايوتيس Maeotis[٥١] يصلون في اليوم العاشر إلي ميناء رودس. ومن هناك يصلون إلى الإسكندرية بعد أربعة أيام.

ولو أبحروا من الإسكندرية عكس التيار، فإنهم يصلون إلى إثيوبيا بسهولة في عشرة أيام أخري[*]. وهكذا فإن

(٦٧/ب) ويبدو أن سكان البلدان سالفة الذكر لا يرغبون في مغادرتها هرباً من الظروف بالغة القسوة التي يعيشون فيها، ذلك أنهم تقبلوا هذه الحياة طواعية وكأنهم قد اختاروها برغبتهم المطلقة من بين أنماط الحياة الأخرى، ولا يحاول أي منهم البحث عن نمط آخر خلاف ما يعيشه بالفعل. ويمثل كل إقليم من هذه الأقاليم سحراً خاصاً لسكانه وزائريه، ويتكفل الزمن بالتغلب على

(*) هذا كلام غير صحيح، حيث يذكر بلينيوس الأكبر عدد المحطات والمسافات بين كل محطة والمحطة التى تليها فى الطريق من الإسكندرية إلى برينيقى على النحو التالى:

– بعد الإسكندرية بميلين تقع بلدة جوليوبوليس، ومن هذه البلدة تبدأ الرحلة إلى قفط عبر النيل ، والمسافة بينهما ٣٠٩ ميل = ٤٥٧,٨كم وتستغرق ١٢ يوماً من الإبحار على صفحة النيل عندما تكون الرياح ملائمة فى منتصف الصيف . ومن قفط إلى برينيقى تكون الرحلة على ظهور الجمال حيث تتوافر الحراسة وأماكن التزود بالمياه Hydreuma وتقع أولى هذه المحطات على بعد ٢٢ميل= ٣٢,٩ كم متر، وتقع الثانية فى الجبال. وبعد مسيرة يوم نصل إلى المحطة الثالثة وبها ثانى صهريج لتخزين المياه وتقع على بعد ٨٥ ميل= ١٢٥,٩ كم من قفط. أما المحطة الرابعة ففى وسط الجبال، وبعد ذلك نأتى إلى المحطة الخامسة وبها صهريج لتخزين المياه Hydraeuma وتسمى محطة أبوللون وتقع على بعد ١٨٤ميل= ٢٧٢,٦كم من قفط. أما نقطة الحراسة السادسة ففى وسط الجبال. ثم تأتى المحطة السابعة وبها صهريج لتخزين المياه Hydreuma وتقع على بعد ٢٣٠ميل = ٣٤٠,٧ كم من قفط. أما المحطة الثامنة والأخيرة فتعرف باسم محطة التروجودويتا، وتقع على بعد سبعة أميال من الخزان أو المحطة الجديدة Novum Hydreuma ثم نصل إلى برنيقى وميناءها على البحر الأحمر على بعد ٢٥٧ميل= ٣٨٠,٧ كم من قفط. وتقطع هذه المسافة فى ١٢يوم، ويكون السفر ليلاً لتفادى حرارة الصحراء وفى النهار تكون الإقامة عند محطات التزود بالمياه ونقاط الحراسة (المترجم).

الرحلة من بلادنا شديدة البرودة إلي هذه المنطقة شديدة الحرارة لا تستغرق أكثر من ٢٥ يوماً دون توقف. وهناك تباين كبير بين الشعوب التي تسكن هناك في طباعها وطرق حياتها ومناطقها ومعتقداتها وطبيعة تكوينها من الناحية الجسدية والتشريحية، ويتأقلم كل منهم على أوضاع البيئة من لحظة ميلاده وحتى ساعة الوفاة.

كل الصعوبات التي تواجه الناس هناك من المهد إلي اللحد. ورغم الفوارق الكبيرة بين هذه الأقاليم، فإنهم ليسوا على مسافة بعيدة من بعضهم البعض جغرافياً، فمن بحيرة Maeotis التي يعيش بالقرب منها بعض السكثيس Scythians في مناخ شديد البرودة، يبحر الكثيرون مع الرياح المواتية على متن السفن التجارية ويصلون إلي رودس في عشرة أيام. ومن رودس إلى الإسكندرية في أربعة أيام، ومنها يواصلون الرحلة إلي نهر النيل حتى إثيوبيا في عشرة أيام أخرى. أي أن المسافة من المناخ بالغ البرودة إلي المناخ الاستوائي لا يستغرق سوى رحلة مدتها ٢٤ يوماً متواصلة. وليس ثمة غرابة في التباين الكبير بين طرق الحياة وأشكال الناس وأحجامهم في هذه المنطقة وبين المألوف الذي نعرفه.

الحيوانــات:

(٦٨) انتهينا من تناول الحقائق الأساسية حول القبائل وطرق معيشتها التي تبدو في غاية الغرابة، ونتحول الآن لوصف الحيوانات التي تعيش في هذه الأقاليم.

(٦٩) تعد الأسود في الجزيرة العربية أقل كثافة من الشعر الذي يكسوها، بيد أنها أكثـر خطورة. وهي ذات لون موحد مثل تلك التي في بابل. وشعر الرأس والعنق يماثـل نظيره خلف الرقبة، وكلاهما ذهبي لامع(٥٢).

(٧٠) أما الأسود التي تدعي (النمل) فمعظمها لا يختلف في المظهر عن غيرها، ولكنهـا تتميز بأعضاء تناسلية تتجه عكس اتجاهها في الأسود الأخرى(٥٣).

(٧١/أ) وتختلف الفهود في هــذه الــبلاد عن تلك التي تعيش فــي كاريــا أو ليكيا. فهي ضخمة الجـسم ولــديها القدرة على تحمل الجــراح والآلام. وتتفوق في قوتهــا علــى الأنــواع الأخرى بنفس درجة تفوق الحيــوان المفترس على نظيره الأليف(٥٤).

(٧١/ب) والفهود في كاريا وليكيــا أكثــر وداعة ولا تستطيع القفز، بيد أن جسمها طويل. وعندما تصاب بالسهم أو الرمح فإنها تعاود القتال ولا تستسلم بــسهول لآلام الإصابة والجروح.

(٧٢/أ) ووحيد القرن(٥٥) ليس أقل شجاعة من الفيل، وذلك رغم أنه ليس مثلــه في الطول ولونه قريب من لون القش الرخيص، وعلى أرنبة أنفــه قــرن مرتفع إلي أعلى، لا يقل صلابة عن الحديد وكلمــا يمــر هــذا الحيــوان بصخرة، فإنه يستخدمها فــي شــحذ قرنه(٥٦) مثلما تــشحذ الــسكين، وإذا تقابل مع أحد الفيلة فإنه يندس تحــت بطنه ويستخدم قرنه كسكين فــيطعن

(٧٢/ب) وهناك حيوان يــدعي «وحيــد القرن» نظراً لانفراده بين الحيوانــات بقرن وحيد في منتصف الوجه. وهو يماثل الفيل في القوة والشجاعة، ولكنه يقل عنه في الطول، ويتميــز أيــضاً بجلد في غاية الخشونة وفي لون نبات البقس (لون أصــفر). وقــرن هــذه الحيوان فوق أرنبة الأنف وهو شــديد الصلابة كالحديد، ويشحذه بقوة فــي الصخور، وحين يشتبك مــع الفيلــة

الفيل عدة طعنات حتى يقتله، وقد شوهد في هذه المنطقة أعداد كبيرة من الفيلة المقتولة بهذه الطريقة. ولو فشل وحيد القرن في دس نفسه تحت بطن الفيل فإنه يكون في هذه الحالة ضحية فورية لضربات قاتلة يوجهها له الفيل بالخرطوم والأنياب(٥٧).

يتسلل إلي أسفل بطن الفيل ويطعنه بقرنه هذا حتي يقضي عليه، أما لو تمكن منه الفيل فإنه يقتله على الفور مستخدماً خرطومه وأنيابه.

(٧٤/أ) وقد وصلت إلى الإسكندرية من تروجوديتيس وإثيوبيا حيوانات تسمى السفنكس Sphinxes وأخرى تسمى Doghead والسفنكس حيوان كثيف الشعر هادئ الطباع. ويتميز بالرشاقة الفائقة التي تزداد مع تدريبها على حركات معينة.

(٧٤/ب) تعيش حيوانات السفنكس في تروجوديتيس وفي إثيوبيا، وهي ليست شبيهة بالحيوانات كما تبدو في الصورة والرسومات، ولكنها تختلف فقط في كثافة الشعر. وهي رقيقة هادئة وقابلة للاستئناس والتدريب.

(٧٥/أ) ولحيوان الـ Doghead(*) جسم يشبه جسد الرجل غير المكتمل مع وجه كلب. وهو متوحش للغاية وتصدر عنه أصوات كالأنين ويستحيل استئناسه، وله نظرة حادة بحاجبه وعينيه هذا فيما يخص الذكور أما أنثى هذه الحيوانات فرحمها خارج جسدها، وتظل هكذا طوال عمرها.

(٧٥/ب) أما الحيوانات المدعوة برأس القرد، فإنها تشبه الإنسان غير مكتمل الشكل والقوام، وتصدر عنها أصوات تشبه أنين الإنسان، وهي شديدة الوحشية ويستحيل تماماً استئناسها، ويتميز مظهرها الوحشي بوجود الحواجب، وتتميز إناثها بأنها تحمل الرحم خارج الجسد طوال حياتها.

(*) يشير استرابون (١٧، ٤١، ٤٠) إلى أن (dog-head) كان يعبد في هرموبوليس، ومن ثم فإن هذا الحيوان هو قرد البابوون (Papiohamadrayas) وهو حيوان مقدس خاص بالإله تحوت= هيرمس عن جغرافية استرابون راجع:

Strabo, Geography. Book XVII. Translated by H. L. Jones, Cambridge. 1949.

وهيب كامل "استرابون فى مصر. القرن الأول قبل الميلاد. دار المعارف. ب.ت وراجع أيضاً محمد المبروك الدويب، الكتاب السابع عشر من جغرافية استرابون، وصف مصر وليبيا، بنغازى ٢٠٠٣

(٧٦/أ) وهناك أيضاً حيوان الـ Cepus الذي يتميز بوجه يشبه وجه الأسد وجسد يشبه جسد النمر، وحجم كحجم الغزال. وقد أطلق عليه هذا الاسم بسبب خصائصه المتباينة[٥٨].

(٧٧/أ) أما أكثر الحيوانات وحشية في هذه الأقاليم فهو الثور آكل اللحوم. فحجمه أكبر من الثور العادي ويفوقه في السرعة ولونه أحمر. أما فتحة فمه فتشغل المنطقة بين أذنيه، ولمعان عينه يفوق نظيره لدي الأسد. ويحرك قرنيه طوال الوقت مثل أذنيه، وعند الاشتباك في معركة ينتصب القرنان في صلابة فائقة. وينمو شعر هذا الحيوان عكس الحيوانات الأخرى. وهو يهاجم أقوي الحيوانات ويصطاد الحيوانات الأخرى ولكنه أشد خطراً على قطعان السكان حيث إنه لا يتأثر بطعن الرماح أو السهام. ولهذا لم يتمكن أحد من هزيمته أو ترويضه رغم المحاولات الكثيرة، ولكنه قد يقع في كمين وحينئذ يختنق بسبب غضبه وثورته. والتروجوديتيس يعتبرون هذا الحيوان لا يقل شجاعة عن الأسد، بل إنه يفوقه في القوة والسرعة.

(٧٦/ب) أما الحيوان المدعو Cepus فقد اكتسب هذا الاسم من جمال الشكل ورشاقة الجسد. فوجهه يشبه وجه الأسد وجسده يشبه جسد النمر وحجمه يقترب من حجم الغزال.

(٧٧/ب) أكثر الحيوانات وحشية في هذا الإقليم هو الثور آكل اللحوم والذي يستحيل السيطرة عليه كسائر الوحوش الأخرى. وهو أكبر حجماً من الثيران العادية، بينما لا تقل سرعته وخفة حركته عن تلك التي نعرفها في الجياد، ويتسع فمه ليصل إلي ما بين الأذنين. ولونه أحمر فاتح للغاية (لامع أو زاهٍ)، وعيناه لامعتان أكثر من عيني الأسد، ولها نفس وميض عيون القط في الظلام الدامس. أما قرني هذا الحيوان فهي ذات خاصية غريبة، حيث يهزهما طوال الوقت كما لو كانا في مرونة الأذنين، ولكن عند الاشتباك في معركة يتحول القرنان إلي حالة الانتصاب والصلابة الشديدة. وشعر هذا الثور ينمو في اتجاه معاكس لنمو الشعر في الحيوانات الأخرى. ويتفوق هذا الحيوان على سائر الحيوانات الأخرى في القوة والشجاعة، فهو يهاجم أقوي الحيوانات وأكثرها وحشية ويأكل لحومها. كما يهاجم

أيضاً قوافل السكان وقطعانهم في هذه الأقاليم، ويقال إن جلود هذه الثيران لا تتأثر بالطعنات ولا تصاب بالجراح. ورغم كثرة محاولات الإيقاع بهذه الثيران فإنها قد فشلت كلها، ويمكن فقط وقوع أحد أو بعض هذه الثيران فريسة لكمين، ولكن حتى في هذه الحالة لا يستسلم الثور ولا يقبل مواصلة الحياة في ظل الأسر مثل الحيوانات المفترسة الأخرى، وسرعان ما يقتل نفسه من الغضب والغيظ. ويقول أهل الإقليم إن هذه الثيران تمتاز بشجاعة الأسد، وسرعة الحصان وقوة الثور وصلابة الحديد.

(٧٨/أ) وهناك حيوان في إثيوبيا يطلقون عليه اسم (Crocottas) (الضبع)[٥٩] وهو خليط من الذئب والكلب، وأكثر وحشية من كليهما، وأسنانه وأنيابه أقوي من نظائرها في كل الحيوانات الأخرى، فهو قادر على مضغ أي نوع من العظام وهضمها في معدته وتقول روايات أسطورية إن هذا الحيوان قادر على محاكاة صوت البشر ولغتهم، ولكنه هذه الرواية صعبة الإثبات بل إنهم يقولون إنه يتحدث مع البشر في الليل ويصدر صوتاً مثل صوت الإنسان وعندما يقترب الأخير منه يهجم عليه ويأكله.

(٧٨/ب) أما الحيوان الذي يطلق عليه الإثيوبيون اسم (Crocottas) فإنه طبيعته تمثل خليطاً من الذئب والكلب، ولكنه أكثر وحشية من كليهما، وأسنانه وأنيابه أقوى من نظائرها في كل الحيوانات الأخرى، فهو قادر على كسر أي نوع من العظام وهضمها في معدته وتقول روايات أسطورية إن هذا الحيوان قادر على محاكاة صوت البشر ولغته، بيد أن هذه الرواية صعبة الإثبات.

(٧٩) يقول أجاثارجينديس إن الخنازير في إثيوبيا لها قرون.

(٨٠/أ) ويقول إن هناك ثعابين ذات أحجام ضخمة وخصائص غير مألوفة تعيش في هذا الإقليم وكلها تحيى على افتراس ضحاياها. وأطولَ ما رأيناه منها يصل إلى ثلاثين ذراعاً[٦٠]. ويمكن استئناس هذه الثعابين مهما بلغ طولها عن طريق السيطرة عليها ومنعها عن الطعام، ويتم إطعامها بعد ذلك وفق درجة امتناعها عن المقاومة وإلا عوقبت بالجوع من جديد، وتظل هكذا إلي أن تصبح كائناً أليفاً من خلال نظرية الارتباط الشرطي[٦١].

(٨٠/ب) ويقول سكان هذه الأقاليم إن هناك ثعابين ذات أحجام ضخمة للغاية تعيش في تلك المنطقة. ويقول بعض السكان أنهم شاهدوا ثعابين يبلغ طولها مائة ذراعاً[٦٢]، ولكن هذه المعلومات تبدو مبالغاً فيها كالأساطير، حيث يقولون أيضاً إن هذه الثعابين حين تلتف حول بعضها البعض تبدو كالتلال أو التضاريس الجبلية في هذه الأقاليم السهلي المنبسط. أما ما شاهدناه بالفعل من هذه الثعابين فهو ما جئ به للإسكندرية على متن سفن مخصصة لذا الغرض، وسوف نتحدث فيما يلى بالتفصيل عن كيفية صيدها(*).

(*) يشكك ب.م فريزر في كتابه الإسكندرية في العصر البطلمي الجزء الثاني في أن تكون الفقرة ٨٠ب ضمن كتاب أجاثارخيديس وذلك لسببين:

أ) أن أجاثارخيديس الذي يكتب في القرن الثاني قبل الميلاد لا يمكن أن يكون قد شاهد ثعابين جلبها بطلميوس الثاني.

ب) ليس هناك أية إشارة في المصادر التى نقل عنها أجاثارخيديس إلى طرق صيد هذه الأفاعي .P.M. Fraser II.782.n. 200

ويبدو السبب الثاني وجيهاً بيد أنه غير صحيح لعدة أسباب:

١- إن طول الأفعى البالغ ثلاثين ذراعاً وردت الإشارة إليه في الفقرة ٨٠ب و٨٠أ و٨٠ث وهذا يعني أنها كانت موجودة بالفعل في النص الذي ترجمه فوتيوس.

٢- إن الإشارة إلى الشعر الذي يكسو الثعبان في الفقرة (٨٠أ) وقتل هذا الثعبان بالثيران والفيلة في الفقرة (٨٠ث) كل هذا يؤكد أن هذه الفقرة التى اقتبسها فوتيوس كانت أصلية في النص الخاص بأجاثارخيديس.

٣- يشير Aelian NA. 2.21 إلى أن ثعباناً في إثيوبياً يبلغ طوله ٣٠ Orgious = ١٨٠ قدم وهي تقتل الفيلة.

فقد كان بطلميوس الثاني قد نجح على غير المتوقع في جلب الفيلة المقاتلة وغرائب المخلوقات الأخرى في هذه الأقاليم من الأنواع التي لا يعرفها الإغريق. وقام بعض الصيادين بالسعي للحصول على المكافآت والجوائز السخية التي خصصها الملك لهذا الغرض وغامروا بحياتهم لجلب الحيوانات الحية للملك في الإسكندرية ومنها تلك الثعابين الضخمة.

حيث يبدءون في مراقبة أحد الثعابين الذي يبلغ طوله ٣٠ ذراعاً عند منابع المياه، وعندما يقترب أحد الحيوانات ليروي ظمأه يطبق عليه الثعبان بفمه ويشل حركته ويمنعه من أية محاولة للهروب. وقرر الصيادون استخدام الحبال ففي البداية يحضرون أدوات الصيد اللازمة، بيد أنهم كانوا يرتعدون من الخوف عند الاقتراب منه حيث يرون الشرر يتطاير من عينيه ولسانه الذي يحركه في كل اتجاه كالسهم وصوته المرعد القاتل الذي يحدثه عند زحفه للمرور من فوق الأعشاب وحجم أسنانه غير العادية بالإضافة إلى فمه الضاري وجسده الملفوف المذهل. بسبب كل هذا الرعب فإن الدم يهرب من وجوه هؤلاء الصيادين الذين يحاولون لف ذيل الثعبان في اتجاه فمه، وعلى الفور عندما يحث الثعبان بالحبل يلمس جسده يستدير مع إصدار فحيح رهيب ويتمكن من الإطباق على أقربهم إليه ووضعه في فمه ويرفع رأسه إلي أعلى ثم يفترسه وهو على قيد الحياة. ثم يتمكن من شخص ثان ويطبق عليه من الخلف وهو يحاول الفرار، ويلتف حوله ويبدأ في افتراسه هو الآخر. واستمر الآخرون في محاولة الفرار للنجاة من هذا الوحش الرهيب.

ورغم هذا لم تتوقف محاولات صيد هذا الثعبان والفوز بمكافأة الملك، وصنعوا هذه المرة كميناً محكماً على طريقة شباك صيد الأسماك، وبعد مراقبته لفترة من الوقت ومعرفة أوقات خروجه طلباً للغذاء وأوقات عودته إلى حجره مرة أخرى فيضعون الشباك في كهف الثعبان بعد خروجه لافتراس ضحاياه بحيث يقع فيها عند عودته، وقاموا بوضع الأحجار في مدخل الكهف حتى يضطر الثعبان للوقوع في الشباك. وجمعوا العديد من الفرسان وضاربي الطبول وانتظروا بعيداً عن مسار الثعبان حتى لا يبطش بهم كالمرة السابقة، وانتظر معهم الرماة والكلاب المتوحشة وضاربوا الطبول، وعندما اقترب من الفخ ولم يجد المدخل الذي اعتاد عليه اضطر للاتجاه إلي المدخل الآخر حيث شبكة الصيادين وتمكنوا أخيراً من شل حركته

وقبل أن يتمكن من الالتفاف للخروج يقـوم الصيادون بضرب فمه معاً بالحبـال التـى كانوا قد أعدوها لإنجاز هذه المهمة في أقل وقت ثم يسحبونه خـارج الـشرك حيـث يضعونه تحت قوائم خشبية ويسحبونه إلـى أعلى ويضعونه على الأرض ويطعمونـه عدة طعنات في منطقة قريبة من الذيل ولم يعد يملك سوى الضجيج ومحاولـة قطـع الحبال بأسنانه، وتمكنوا من إحكام السيطرة عليه ويشغلون الثعبان بهذه الطعنات حتـى يتمكنوا من خلع أسنانه وسـط هـذه الآلام وحملوه إلي الإسكندرية وقـدموه للملـك، وتمكنوا هناك مـن ترويـضه بـالتجويع المتواصل ثم تقـديم الطعـام، وقـدم لهـم بطلميوس مكافأة كبيرة، وصار هذا الثعبان الضخم أحد العجائب التي يـشاهدها زوار الإسكندرية ولـم يعـد بوسـعهم تكـذيب الإثيوبيين في روايتهم الأسطورية عن هذه الثعابين حيث كانوا يقولون إن الثعبان يبلـغ من الحجم ما يسمح له بـافتراس الأبقـار والثيران والحيوانات الأخـرى مـن هـذه الأحجام الضخمة، كما كان يدخل قتالاً مـع الفيلة ويلتف حول أقدام الفيل حتـي يـشل حركته ثم يحجب عنه الرؤية عن طريـق سمومه التى ينفثها في عين الفيل، ثم يلقـي به علـى الأرض ويفترسـه فـي قـسوة ووحشية.

الساحل الإفريقي للبحر الأحمر:

(٨١) انتهينا الآن من عرض تفصيلي لإثيوبيا وتروجوديتيس والمنطقة المتاخمة لهما حتى الإقليم الخالي من السكان بسبب شدة الحرارة وساحل البحر الإريثري والمحيط الهندى الذي يواجه الجنوب، وسوف تتناول الآن الخليج العربي وفق المعلومات المتاحة من الأرشيف الملكي Hypomnemata بالإسكندرية ومن شهود عيان.

يتصل الخليج العربي، كما يسميه المؤلف، بالمحيط المتاخم له جنوباً. ويمتد الخليج لاستادات طويلة(*)، وتحده الأقاليم البعيدة من الجزيرة العربية وتروجوديتيس. ويصل عرضه إلي حوالي ١٦ ستاداً[٦٣] والعبور من ميناء بانورموس إلي الساحل المواجه يستغرق يوماً كاملاً على متن إحدى السفن الحربية(**). ويبلغ أقصي اتساع له عند جبل توركايوس Turcaeus وجزيرة ماريا المقابلة، ثم يتقلص الاتساع[٦٤] بانتظام بعد ذلك[٦٥]، وعلى طول الساحل توجد جزر طويلة تفصلها عن بعضها البعض مجموعات من المضايق وتيارات مائية عنيفة مضطربة.

(٨٢/أ) حيث إن هناك الكثير من الأماكن والمواقع الجديرة بالاهتمام والتي تقع على مسافات بعيدة من الطريق المعتاد، فإننا سوف نتناول فيما يلي أكثرها أهمية.

(٨٢/ب) تلك هي الخصائص العامة للخليج، حيث يبدأ من أبعد نقاط أكثر المناطق انخفاضاً، وسوف نصف الرحلة على طول سواحل كلا الجانبين وسوف نتعرض أولاً للجانب

(*) تحدث كثير من الكتّاب الكلاسيكيين عن طول البحر الإريثري بداية من السويس شمالاً إلى مضيق باب المندب جنوباً وكان أقل تقدير لطوله هو ١٠,٤٠٠ ستاداً = ١,٣٠٠ميل وذلك وفقاً لطبلميوس الجغرافي (٥، ١٧) أما أكثر الافتراضات طولاً فهو ١٥,٠٠٠ ستاد = ١,٨٧٥ ميل وذلك وفقاً لاسترابون (١، ٢، ٢٨). أما الطول الفعلى فهو ١,٣٨٠ ميل.

(**) إن تقدير أجاثارخيديس للمسافة بين بانورموس وساحل الجزيرة العربية بأن السفينة الحربية تقطعه في يوم هو غير صحيح وذلك لسببين:

(أ) أن مكان ميناء بانورموس غير معروف إلا إذا افترضنا أنه يساوي ميناء ميوس هورموس.

(ب) ليس لدينا معلومة مؤكدة عن المسافة التى تقطعها السفينة التى تمخر عباب البحر في اليوم، أو بمعنى آخر كم ستاداً تقطعه في اليوم وإن كان بلينيوس يشير إلى أن السفينة تقطع مسافة قدرها ٣٦,٥كم في اليوم في النيل، Pliny, **NH** , **VI.XXVI**.101 (المترجم).

بعد أرسينوي(*) مباشرة بالنسبة لمن يبحر بمحاذاة الساحل في اتجاه الجنوب توجد على الجانب الأيمن أخوار صغيرة ذات مياه دافئة تصب من خلال عدة قنوات في البحر. والقنوات ضيقة ومياهها ليست عذبة ولكنها تميل إلى الملوحة بسبب المصدر الذي تنبع منه. وبعد البحيرة تجد نهر النيل الذي يمر عبر بعض المنخفضات إلى تجويف عميق(٦٦).

الأيمن، وهو الساحل الذي تعيش فيه قبائل التروجوديتيس في المنطقة الصحراوية.

فحين تبحر من أرسينوي سوف تكون اليابسة على يمينك تقابلها جداول مياه كثيرة (لعله يقصد أودية جافة) تنحدر من أماكن عديدة لتصب في البحر ومياهها مرة الطعم شديدة الملوحة.

(٨٣/أ) بالقرب من البحيرة، وفي وسط السهل المتسع، هناك جبل أحمر لا يميزه شئ سوي هذا اللون الذي يؤذي عيون من يحدق فيه طويلاً(٦٧). وبعده مباشرة تجد ميناءً كبيراً كان يسمي "ميوس هورموس"(**)، ثم تحول اسمه

(٨٣/ب) عند المرور بهذه الجداول الصغيرة تصل إلي سهل متسع يرتفع فيه جبل ذو لون أحمر يخطف أبصار من يحدقون فيه لفترة طويلة. وعند سفح هذا الجبل يوجد ميناء ذو مدخل منحني متعرج ويعرف باسم

(*) أخذ هذا الميناء اسمه من الملكة أرسينوي الثانية شقيق بطلميوس الثاني فيلادلفوس وكانت أرسينوي الثانية قد تزوجت مرتين من قبل أخيها فيلادلفوس حيث كانت قد تزوجت من ليسيماخوس حاكم تراقيا وبعد مقتل الأخير على يد سليوقس في معركة ليديا عام ٢٨١ق.م تزوجت أرسينوي من أخيها غير الشقيق بطلميوس الصاعقة الذي قتل هو الآخر على يد الغال فعادت إلى مصر وتزوجت من أخيها بطلميوس فيلادلفوس ملك مصر وتبنت أولاده من أرسينوي الأولى (المترجم).

(**) في الواقع هو ميناء Mussél (ملاوي = ميناء بربرة الحالي أو بندر قاسم أو رأس هنتارا أو كندالا على الساحل)، ورد هذا الميناء عند صاحب كتاب الطواف الفقرة (١٠) PME.10 حيث جاء فيه: «ومن مندو Mundu، ميناء هتيس باتجاه الشرق، بعد إبحار يومين أو ثلاثة أيام، وبالقرب من نتوء جبليّ، يقع ميناء موسايلون (Mosyllon) علي ساحل، وهو ميناء ضحل. وتوجد فيه أيضاً سوق يُتاجر فيا بالبضائع والسلع نفسها المذكورة آنفاً، إضافة إلى كميات قليلة من الأواني الفضية والحديدية، والأحجار الكريمة. ويُصدر من هذه المنطقة كميات هائلة من القرفة، ولهذا فإن الميناء يتطلب استقبال سفناً أكبر، إضافة إلى البهارات والعطور الأخرى، وكميات قليلة من دروع السلاحف، وجذور نباتية من نوع موكروتو (mokrotu)، ولكنه أسوأ من الموجود في موندو، ولبان=

بعد ذلك إلي "أفروديتي"(*) وأمام هذا الميناء توجد ثلاث جزر، اثنتان منها تغطيها أشجار زيتون كثيفة العدد والحجم، أما الثالثة فأقل كثافة، ولكن تتميز عنها بأعداد كبيرة من الطيور المعروفة باسم الدجاج الحبشي(٦٨).

"أفروديتى"، ويطل الميناء على ثلاث جزر، تغطي أشجار الزيتون الكثيفة اثنين منهما، وأما الثالثة فأقل منهما في كثافة الأشجار وعددها ولكنها تتميز بأعداد كبيرة من طائر يدعي "الدجاج الحبشي ".

(٨٤/أ) وبالقرب من هذه المناطق خور يعرفه الناس باسم الخور المتشابه(٦٩) (Foul Bay)، وحين تتجاوزه تجد جزيرة واقعة خارج البحر(**) ويبلغ طولها ٨٠٠ ستاداً(٧٠)، ويطلقون عليها اسم جزيرة الثعبان(٧١) حيث كانت تحتوي على كل أنواع الثعابين من الماضي، ولكنها الآن خالية منهم، ويوجد فيها الحجر المعروف باسم الطوباز(٧٢)، وهو حجر متحول شبيه

(٨٤/ب) بعد هذه الجزر يوجد خور معروف باسم الخور المتشابك Foul Bay، وبالقرب منه توجد شبه جزيرة تمتد لمسافة طويلة، وفي بدايتها الضيقة يقوم السكان بسحب السفن من البحر إلى الاتجاه العكسي(٧٤)، وعند المرور من هذه المنطقة تجد جزيرة تمتد لمسافة ٨٠ ستاداً وتدعي "جزيرة الثعابين" حيث كانت تغص في تاريخها القديم بكل أنواع الثعابين

= الجانب البعيد، والعاج، والمرّ ولكن في أحيان نادرة Casson.L, PME, PP. 126-130، عن ذلك راجع **حمد محمد صراي، العلاقات الحضارية بين شبه الجزيرة العربية** والساحل الشرقي لأفريقيا، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٩، ص٨٢-٨٣. أما عن ميناء مويس هورموس فكان مع ميناء برينيقي يمثلان نهاية طريقين مهمين يبدآن من قفط على النيل إلى البحر الأحمر، عن ميناء ميوس هورموس (قصير القديم) والطريق منها إلى قفط راجع: M.Vander Veen, **"Remains from Roman and Medieval Quseir al-Qadim" in J.C.M. starkey (ed), people of the Red Sea. II 2005 PP: 123-130. Cf, Hélene Cuvigny (ed), La Route de Myos Hormos. *IFAO*. 2003** (المترجم)

(*) هذه هي الإشارة الوحيدة إلى هذا التحول، وربما يكون هذا قد حدث حيث إن أرسينوي كان تشبه دائماً بأفروديتي حامية البحار.

(**) هي جزيرة الزبرجد = جزيرة القديس يوحنا على بعد ٣٢ ميل جنوب شرق رأس باناس، ولا نعرف شيئاً عن تاريخها غير أن أحد بحارة بطلميوس اكتشفها في القرن الثالث ق.م وظلت تحكم من قبل البطالمة والرومان حتى القرن الرابع الميلادي. ثم تحولت إلى ١٢ فرسخاً وأقصى الجنوب الشرقي من الصحراء الشرقية إلى سلطان البليمي = البجة.

بالزجاج وله شكل ذهبي لطيف. ويقوم سكان الجزيرة بجمع الحجر وحراسته تحت إشراف الحكومة وبأوامر ملكية على النحو التالي:

عندما يحل الظلام يجوبون الجزيرة منطقة تلو أخرى بطاسات Bowls من أحجام مختلفة. وفي النهار تصبح رؤية الحجر غير واضحة بين سائر الصخور الأخرى، ولكن بريقه يصير واضحاً عند حلول الظلام. وكلما وجدوا قطعة منه في الليل يقومون بتغطيتها بطاسه مناسبة لحجمها، وفي النهار يقومون بقطع الجزء الذي حددوه ثم يذهبون بالقطعة الصخرية إلي عامل ماهر متخصص يتولي تلميعها(٧٣).

المخيفة ثم تمكن ملوك الإسكندرية بعد ذلك من تطهيرها.

ويرجع سبب اهتمام الملوك بهذه الجزيرة إلى وجود حجر الطوباز فيها. وهو حجر متحول يشبه الزجاج وله شكل جميل ولون ذهبي. ومن هنا منع الناس من زيارة الجزيرة بل إن حراسها كانوا يقتلون أي شخص غريب يقترب منها. وكان عدد هؤلاء الحراس قليلاً ويعيشون في ظروف صعبة حيث يتعين عليهم منع أي قارب من الرسو على شاطئ الجزيرة وذلك حتى يمنعوا سرقة الأحجار منها. وكان الحراس لا يغادرون هذه الجزيرة خوفاً من عقاب الملك. وكانت الجزيرة فقيرة للغاية فيما يمكن أن يقيم أود حياتهم، حيث كان ما لديهم من طعام ينفذ بسرعة. وعندما يحدث ذلك تجد الناس يتحلقون منتظرين السفن التى تحضر لهم إمدادات وفي حالة عدم وصولها فإن هذا يعني فناء هؤلاء القوم.

كان حجر الطوباز ينتشر بين الصخور ولا يمكن العثور عليه أو تمييز مكانه أثناء النهار بسبب أشعة الشمس، ولكن في الليل يبدو لامعاً وتمكن رؤيته من أي مكان، وكان الحراس يجوبون الجزيرة في الليل ويغطون كل جزء من

هذا الحجر بإناء يناسبه في الحجم، وفي الصباح يقومون بجمع هذه الأجزاء بقطع جزء من الصخور يوازي المساحة التي تم تغطيتها في المساء ويعهدون بها إلى حرفيين متخصصين لتلميعها وتنقيتها.

(٨٥/أ) بعد هذه المواقع يتحول البحر إلي درجة من الضحالة لا يصل فيها عمق المياه لأكثر من قامتين وتبدو المياه خضراء في كل مكان بسبب الطحالب والنباتات المائية الأخرى، ولهذا السبب تنتشر أعداد كبيرة من كلب البحر هناك[٧٥]. ويصلح هذا الجزء من البحر للسفن الحربية والقوارب الصغيرة حيث لا توجد أمواج عنيفة فضلاً عن إمكانية الصيد الآمن الوفير.

ويتعرض بحارة سفن نقل الفيلة إلي كوارث كبيرة في هذه المنطقة[٧٦]. فالأمواج المفاجئة قد ترفع السفينة إلي الصخور والمرتفعات الرملية ولا يستطيع البحارة إنقاذ أنفسهم إلا لو أخذتهم الأمواج خلال المد والجزر وألقت بهم في مكان آمن. ولكنهم لا يملكون وسيلة للنجاة حين ينفذ ما يملكون من الغذاء والمؤن ولا يكون أمامهم مصير سوي الموت جوعاً أو الانتحار غرقاً.

(٨٥/ب) بعد الإبحار من هذا المكان تصل إلي جزء من الساحل تسكنه قبائل كثيرة من آكلي الأسماك ومن البدو التروجوديتيس. وتنتشر في هذه الأقاليم كل أنواع الجبال بتضاريس وخصائص متباينة حتى تصل ميناء سوتيريا (سواكن)، والذي أطلق عليه هذا الاسم البحارة الإغريق الذين وصلوا بسلام هناك لأول مرة[٧٧]. وبعد هذه المناطق يبدأ البحر الأحمر في الاتجاه إلي الجزيرة العربية (يقصد إلى الشرق) ويقل عرضه وتتخذ طبيعة الأرض والبحر هنا شكلاً وخصائص جديدة وفق شكل وخصائص الإقليم الجديد. فالأرض منخفضة ومستوية، ومنسوب مياه البحر أيضاً منخفض ولا يزيد عن ثلاث قامات عمقاً ويتميز باللون الأخضر بسبب الطحالب والنباتات المائية. لا يمثل هذا الإقليم خطراً على قوارب الصيادين. حيث إن الأمواج

غير مرتفعة والمنطقة غنية بأصـناف وكميات كبيرة من الأسماك.

وإن كانت سفن نقل الفيلة هي فقط التي تضطر لدخول عرض البحر بسبب وزنها الكبير حيث تواجه أخطاراً واضـطرابات ضخمة فقد تتعرض للاصطدام بالصخور عند الإبحار ليلاً فـي مواجهـة الريـاح الشديدة والأمواج العالية، ويعجز البحـارة عن إنقاذها أو إنقاذ أنفسهم بـسبب عمـق المياه في هذه المناطق، ويتخلصون مـن حمولة السفينة فيما عدا المـواد الغذائيـة حتي يمكن تعويمها ولكنهم قـد يفـشلون أيضاً فيصيبهم اليأس حيث لا يوجد سكان قريبون أو سفن أخرى تمر بجـوارهم أو أي سبيل آخر للنجاة، كما أن الأمواج فـي المد والجزر تقذف السفينة بكميات كبيـرة من الرمال حتي تكاد تدفنها في مكانها.

وقد يتمكن بعض البحارة مـن النجـاة حين تحملهم الأمواج إلي الشاطئ، ولكـن إذا استمروا على السفينة ونفـذت كميـة الطعام فـإن البحـارة الأقويـاء يقـذفون بالبحارة الضعفاء في البحر ذلك أن ما بقى من غذاء لم يعد يكفي لغير بـضعة أيـام. وبعضهم يقذف بنفسه في الماء، وبعـضهم الآخر يموت جوعاً أو انتحـاراً، وتبقـي السفن الجانحة بعـد أن غطتهـا الرمـال

وهلاك طاقمها شاهدة على قسوة الطبيعة وخطورة رحلات صيد ونقل الفيلة في هذه المناطق، وبقرار ملكي يتم الحفاظ على هذه السفن كإشارات لتحذير السفن الأخرى من خطورة هذه المواقع. ويروي سكان هذه المناطق من آكلي الأسماك قصة تراثية ملخصها أن إحدى الموجات الضخمة للمد والجزر جردت الخليج من كل المياه فجعلته وادياً جافاً ولكن مرتفعاً عملاقاً أعاد المياه إلي سابق عهدها.

(٨٦/أ) وقد سبق وصف الأماكن الأخرى التي تصل إلي تاوري[٧٨] وبطلمية[*] بيد أن ما وراءها يختلف بوضوح نظراً لأن الساحل هنا لا يتجه جنوباً ولكنه يتحول جهة الشرق والشمال. كما توجد به أنهار تنبع من جبال[٧٩] "psebaean". والجزء الذي يمتد إلي الداخل تعيش فيه الفيلة

(٨٦/ب) بعد هذه المواقع حتى تاوري والتي سبق وصف رحلات بطلميوس لصيد الفيلة منها، نجد أن الساحل بعد تاوري يتجه إلي الشرق وفي الانقلاب الصيفي يكون اتجاه الظل إلى الجنوب وذلك حتى الساعة الثانية وهو عكس ما نعرفه في بلادنا. وتحتوي المنطقة على عدد من الأنهار التي تنبع من جبال

(*) بطلمية الصيادين أو بطلمية الوحوش التى يشير فوتيوس إلى وجود حقول مزروعة تؤكد أنها كانت مستعمرة ولم تكن نقطة أو محطة صيد فقط وهي غير مدينة بطلمية التى أسسها بطلميوس الأول في صعيد مصر واستمرت حتى العصر الروماني. وقد استمرت بطلمية الصيادين هذه بوابة رئيسية للظهير الأفريقي إلى عدوليس نتيجة لسيطرة مملكة أكسوم إلى المناطق المرتفعة في إثيوبيا في القرن الأول قبل الميلاد Pliny. N.H..I. 175; cf; PME. 4 رغم الإشارة الواضحة إلى أن بطلمية تقع بين سواكن وراس قاصار Kasar إلا أن العلماء مختلفين اختلافاً جديداً فيما بينهم حول مكان بالقرب من ترينيكتات Trinkitat حيث تم اكتشاف مجموعة من البقايا الأثرية وعقيق Aqiq، وربما يكون المكان الأخير هو الموقع الصحيح فيجعلها بلينيوس (NH.2.183) جنوب برينيقي ٦٠٢,٥ ميل أما صاحب كتاب الطواف (PME3) ٤٠٠٠ ستاد = ٥٠٠ ميل جنوب برينيقي أما المسافة الفعلية فهي ٣٥٠ ميل فقط.

بــوفرة وكثافـــة، وكـــذلك الثيـــران والخنازير ووحيد القرن، كما توجـد على امتداد الساحل العديد من الجزر الفاصلة فتربتها عديمـــة الخـــصوبة تربتها ولكنها تمتلئ بأنواع عديدة من الطيور غير المعروفة.

ومن هذه النقطة يزداد عمـق ميـاه البحر بالتالي تزداد صلاحيتها للملاحـــة، وتنتشر فيها الحيتان الضخمة، ولكنها لا تتعرض للبشر فلا تقتل أو تفتــرس أيـاً منهم ذلك أنها تتحول إلي كائنات عميــاء بمجرد أن ترفع رأسها خـارج الميـاه، ومن هنا لا تتمكن من مطاردة البحارة أو السفن.

Psebaean. وينقسم الإقليم إلي ســهول واسعة ذات مساحات كثيفة من النخيـل ونبــات الخبيــزة mallow والرشــاد Cress، وتضم هذه السهول أيضاً كـل أنواع الثمار ذات المذاق الطيب، والتــي لا نعرفها في بلادنا، وإلي الــداخل فــي هذا الإقليم توجد تجمعـــات كثيفــة مــن الفيلة، والثيــران الوحــشية، والأســود وأصناف أخرى من الوحوش المفترسة، والمسار الملاحي بحذاء الساحل تقطعــه العديد من الجــزر ذات الأرض البــور ولكنها مليئة بالطيور الفريــدة التــي لا يوجد نظير لها في أقاليم أخري.

ويزداد البحر عمقاً كلما توغلــت فيــه، وتتواجد بداخله العديد من الوحوش البحرية ذات الأحجام الهائلة، ولكنها لا تؤذي البشر إلا لو أقترب منها أحد ووقع على ظهورها، فهي عاجزة عن رؤية البحارة لأنها لا ترى إذا رفعت رأسها خارج المياه حيث تتحـول في هذه الحالة إلي كائنات عميــاء بــسبب وهج الشمس ومن ثم لا يمكنهــا رؤيــة أو مطاردة أحد وهــذه هــي أبعــد الأمــاكن المعروفة في تروجوديتيس حيث يتاخمهــا شعوب تسمى Pesbaean.

الساحل العربي للبحر الإريثري:

(٨٧) نتحول الآن إلي الاتجاه المقابل والذي تطل عليه الجزيرة العربية[٨٠]، ونبدأ مرة أخري من أقصي البقاع الداخلية حيث "بوسيديون"[٨١] التي أسسها "أريستون" حين كلفه بطلميوس باستكشاف الجزيرة العربية حتي المحيط وأسس هناك هيكلاً لبوسيدون، وسرعان ما تحول هذا الموقع إلي نقطة جاذبة لاهتمام السكان ومصالحهم، فقد أطلق عليه اسم (بستان النخيل) [٨٢] وكان يضم حشوداً كثيفة من هذه النخيل غزير الإنتاج من التمور بذات النوعيات المتميزة للغاية من التمر. ودرجات الحرارة في هذا الإقليم مرتفعة للغاية طوال العام ومن هنا أضفى السكان المحليون نوعاً من القداسة على أشجار النخيل التي تمدهم بالغذاء والظلال رغم وقوعها وسط الصحراء، وهناك العديد من الينابيع والأنهار الصحراوية ذات المياه الباردة والتي صنعت من تلك البقعة واحة خضراء في كل الاتجاهات. وهناك أيضاً هيكل قديم مبني من الحجارة عليه نقوش قديمة غير مفهومة، وكان يعتني به رجل وامرأة يتوليان هذه المهمة المقدسة مدي الحياة، ويمتاز سكان المنطقة بطول العمر ويصنعون أسرّتِهم من الأحجار بسبب الخوف من الحيوانات المفترسة.

(٨٨) ويمتلئ الجزء الداخلي لبستان النخيل بالصخور ذات الارتفاعات المختلفة، بيد أن الجزء الذي يمتد إلي البحر يمتاز بالطول وإن كان ضيقاً.

(٨٩/أ) ويتاخم الساحل المذكور إقليم يطلق عليه الناس اسم "بلد البط[٨٣]" وذلك بسبب كثرة البط هناك. ويقع هذا البلد بالقرب من منطقة كثيفة الأشجار[٨٤]. وإذا نظرت إلى الأرض تجدها وكأن هناك خطاً مستقيماً يمتد خلالها ويصل حتى نقطة معروفة باسم "الصخرة" (البتراء)[*] وفلسطين، وهي المنطقة التي جلب إليها الجراهمة[**]

(٨٩/ب) وبعد الوصول بحراً إلي ما بعد بستان النخيل توجد جزيرة معروفة باسم Seal[I] بسبب تلك الحيوانات التي تعيش هناك وكثرة عددها، وتمتد هذه الأرض في خط مستقيم حتى موقع يدعي الصخرة[II] وفلسطين، وهو الإقليم الذي جلب إليه الجراهمة والمعينيون اللبان والبخور والنباتات العطرية من جنوب الجزيرة العربية.

(*) ستيوارت إريكسين، المدن المنسية في بلاد العرب، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٩ (المترجم).

(**) تأكدت صلة الجراهمة والمعينيون بتجارة البخور في القرن الثالث قبل الميلاد من خلال الإشارة إليها في بردي زينون (PCZ.59536) وإن كانت الإشارة إليهما قد سبقت ذلك عند مؤرخي عصر الإسكندر الأكبر الإغريق وخاصة=

والمعينيون(*) والعرب والذين يقيمون
في تخومها، البخور واللبان والنباتات
العطرية من الجنوب.

(٩٠) وفيما سبق كان المارنتيون Maranitae قد احتلوا الجزء المقابل من الساحل (ساحل سيناء)، بيد أن جيرانهم الجرنديين Garindanes كانوا قد وصلوا هناك وسيطروا على المنطقة. فأثناء الاحتفال الذي كان يقام كل أربع سنوات في مدينة بستان النخيل التى سبق ذكرها، كانت الشعوب المجاورة تأتي من كل حدب وصوب لتقديم القرابين للآلهة، كما كانوا يحصلون على المياه من هناك حيث من المعتقد أن الشرب منها يجلب الصحة لمن اعتاد عليها. لذلك فإن المارنتيين عندما حضروا إلي الاحتفال، قام الجرنديون بقتل من بقي في بلادهم وتربصوا للعائدين في الطريق

=استرابون (XVI. 3.3) وبلينيوس (NH. XIII.9) أما مدينة الجرهاء فقد كانت تعمد على وساطتها التجارية بين منطقة الخليج العربي وسوريا عبر الطريق الذي يمر عبر نهر الفرات Euphrates إلى سابساكوس Thapsacus ثم غرباً إلى سوريا وفلسطين. وليس من المعروف حتى الآن الموقع الحقيقي لمدينة الجرهاء وإن كان هناك مقترحين، الأول هو: أن الجرهاء لم تكن اسم علم بل كانت نقلاً لكلمة قرية العربية بحروف يونانية. الثاني هو: أن الجرهاء لم تكن مجرد ميناء بل كانت دولة في شرق الجزيرة لعربية في مقابل مملكة البحرين وتتاخم حدودها. ومن المؤرخين من يقترح أن تكون الهفوف في واحة الإحساء، عن ذلك راجع حمد محمد بن صراي، تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم، ص١٠٣-٩١؛ وحمد بن صراي، الجرهاء مدينة عربية مفقودة، (الجمعية التاريخية الطلابية – جامعة الإمارات)، العين، ١٩٩١؛ دانيال ت. يوتس، الخليج العربي في العصور القديمة، ترجمة إبراهيم خوري، المجمع الثقافي، أبو ظبي، جـ٢، ص٧٧٢-٧٩١؛ محمد السيد عبد الغني، شبه الجزيرة العربية والتجارة الشرقية القديمة، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص٩٣-١٢٠؛
Hoyland R.G., Arabia and the Arabs, London, 2001, pp. 24ff; Potts, D.T., "Thaj and the Location of Gerrha", ***PSAS***, 14 (1984), PP. 91-97; Salles, J.-F., "The Arab Persian Gulf under the Seleucids", in Hellenism in the East, PP. 75-109.

(*) جاءت أول إشارة إلى مملكة معين (في منطقة الجوف شمال شرق اليمن) وعاصمتها قارنا (قارناوا) عند استرابون (XVI.4.2) الذي ينقل عند إيراتوستثيس في وصفه للجزيرة العربية، وقد ازدهرت هذه المملكة في الفترة من القرن الرابع قبل الميلاد إلى أن سيطرت عليها سبأ عام ١٢٠ق.م وتبدأ هذه المملكة من واحة الجوف في الجنوب الشرقي من حضر موت. وقد سيطرت هذه المملكة على تجارة النباتات العطرية والبخور وذلك عبر الطريق من ظفار Dhufar عبر بلاد الحجاز ثم إلى المدينة المنورة وصولاً إلى ديدان (العُلا) ثم فلسطين وكان معبودهم الرئيسي هو ود.
- H. von Wissman, 'Die Mari Erythraeo', P. 307; Geschichte, PP. 341, 415-21; Groom, Frankincense and Myrrh, PP. 177-8; and David F. Graf, 'Dedanite and Minaean (South Arabian) Inscriptions from the Hisma' Annual of the Department of Antiquities, XXVII (Amman, 1983), pp. 563-5 (المترجم)

(I) يسميها استرابون جزيرة ديا Dia وهي جزيرة تيران في مدخل خليج العقبة. Strabo.XVI.iv.18

(II) لعلها هي العربية الصخرية (البتراء) التى ذكرها بطلميوس، راجع هنري إ. ماك آدم، استرابون بلينيوس الكبير بطلميوس السكندري، ثلاث تصورات عن العربية القديمة وشعوبها، **ترجمة مصطفى العبادي**، رسائل جغرافية رقم ١٤٦، الكويت، ١٩٩٢ (المترجم).

حتى أبادوهم ثم قاموا بتقسيم هذا الإقليم ذي التربة الخصبة والسهول الواسعة وحولوها إلى مراع لقطعانهم. وهذا الساحل قليل المرافئ وكثير من الجبال مختلفة الألوان، ويمثل لوحة بديعة في أعين من يبحرون في هذه المنطقة.

وبعد الإبحار خارج هذه البلدة يدخل الملاح إلى خليج اللحيانيين Laeanites (العقبة)[**] والذي تتناثر حوله كثير من القرى التي تخص العرب الأنباط[*] ويحتلون جزءً كبيراً من الساحل وكذلك الإقليم المتاخم له والذي يمتد إلي الداخل ويضم عدداً كبيراً من السكان وقطعان الماشية والحيوانات التي يبلغ عددها أرقاماً يصعب تصديقها لكثرتها. وفي العصور القديمة كانوا يعيشون هناك على موارد الرعي فقط، ولكن بعد سماح ملك الإسكندرية بالإبحار عبر الخليج صاروا يهاجمون أصحاب السفن الغارقة أو المعطوبة وقاموا بممارسة أنشطة القرصنة ونهب البحارة على طريق الخارجين عن القانون من التاوري Tauri[٨٥] وبلاد بونت Pontus. ولكن بعد ذلك تم القبض عليهم بالسفن الرباعية وعقابهم على هذه الجرائم[٨٦].

(٩١/أ) بعد ما يعرف باسم خليج اللحيانيين Laeanites (العقبة) والذي يعيش العرب حوله، توجد أرض البيثمانيين

(٩١/ب) وبعد هذه المناطق هناك سهل تتوافر فيه مياه الري وخصوبة التربة حيث تنتشر الأنهار الصغيرة ومنابع

(*) يقول بلينيوس (NH. V1. 136) إنه هو الاسم القديم لخليج العقبة أما اسم خليج لايانيتس في الفقرة (٩٠أ) في شمال غرب الجزيرة العربية بداية من القرن الرابع تقريباً إلى القرن الثاني قبل الميلاد فهو يعكس نفوذ مملكة اللحيانيين العربية التى كانت تشغل منتصف واحة العلا. ويرجع أرتيدوروس هذه التسمية إلى آيلانا أو أيلة (إيلات). واختفت مملكة اللحيانيين في عام ١٠٠ق.م تقريباً وربما يكون الأنباط قد سيطروا عليها في القرن الثاني.

(**) ليس من الواضح إن كان الأنباط قبيلة واحدة أم اتحاد من مجموعة قبائل من العرب الذين عاشوا بالقرب من البتراء. وقد أصبحت البتراء ولاية رومانية عام ١٠٦م باسم الولاية العربية وذلك الركن الجنوبي الشرقي من البحر المتوسط حيث تواجه الولاية من جانبها الغربي البحر، وتتقاطع مع صحراء سيناء المقفرة التى تقوم بمهمة الربط بين كل من مصر وشمال أفريقيا من جهة وبين الأراضي التى تقع على جانبي وادي الأردن من جهة أخرى وهي المنطقة التى جرى العرف على تسميتها بفلسطين وشرق الأردن. ويدخل أيضاً في إطار الولاية العربية الرومانية الشريط الساحلي بما في ذلك غزة باعتباره ميناء الولاية الرئيسي. كما تشمل أيضاً صحراء النقب. عن ذلك راجع جلين وارين بورسوك، الأنباط الولاية العربية الرومانية، ترجمة آمال محمد الروبي، مراجعة محمد إبراهيم بكر، المجلس الأعلى للثقافة، عدد ١٠٦٣، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ص ٢١-٢٢.

Bythemaneans[٨٧]. وهي عبارة عن سهل كبير يتمتع بالخصوبة وينتج المحاصيل التي يحتاجها السكان والتي لا تخرج عن نباتات رعوية مثل حشائش (ضرس الكلب) واللوتس و الـ Lucesns (نوع من الحشائش تكون علفاً للماشية) بالإضافة إلى الكثير من الإبل البرية وقطعان الغزلان والبقر الوحشي والماشية، بيد أن السهل كان موطناً أيضاً للأسود والذباب والفهود ووحوش أخري تمثل الثمار السلبية لخصوبة الأرض في هذا الإقليم.

(٩٢/أ) وبعد هذا الجزء من الساحل يوجد خليج[٨٨] يمتد إلي الداخل لمسافة لا تقل عن ٥٠٠ ستاداً. ويعرف سكانه باسم البانيزومينيين Banizomaneis[٨٩] ويشتغلون بصيد الحيوانات.

المياه في كل مكان وتتوافر هناك حشائش ضرس الكلب والأعلاف واللوتس ويصل طولها إلي قامة الإنسان. ونظراً لخصوبة هذه المراعي فقد شهد هذا الإقليم أعداداً ضخمة من الإبل والماشية وكل أنواع الحيوانات بالإضافة إلى الوحوش المفترسة مثل الأسود والذئاب والفهود القادمة من الصحراء. وكان الرعاة مجبرين على القتال صباحاً ومساءً لحماية قطعانهم، أي أن امتيازات هذا الإقليم الإيجابية كانت تمثل في نفس الوقت نقمة على السكان.

(٩٢/ب) وحين تبحر بعد هذه السهول سوف تجد خليجاً ضيقاً يمتد إلي قلب الأرض ويصل طوله إلي ٥٠٠ ستاداً ويحيط به من كل جانب منحدرات ذات أحجام مدهشة. ويتميز بالتواء في بدايته وصخرة تتصدر المدخل وتجعله غير صالح للملاحة فضلاً عن الرياح التي تهب بشدة على الساحل الصخري وتصنع دوامات في كل مكان حول هذه الصخرة. والسكان هناك يعرفون باسم البانيزومينيين Banizomenes ويعيشون على صيد الحيوانات البرية ويأكلون لحومها. وأقيم هناك معبد

مقدس للغاية من جانب كل العرب.

(٩٣/أ) وبعد ذلك ثلاث جزر[٩٠] ذات عديد من الموانى. أولها جزيرة (ضريح إيزيس)، والثانية سوكابيا Soukabya والثالثة ساليدو Salydo، والجزر الثلاث غير أهلة بالسكان ولكنها متخمة بأشجار الزيتون، وهي أشجار لا تشبه تلك التي نعرفها في بلادنا.

(٩٣/ب) بعد هذا القطاع من الساحل توجد ثلاث جزر ذات مواني كثيرة. ويقول المؤرخون إن الأولى كانت موقعاً مقدساً للإلهة إيزيس، ولا يوجد بها سكان ولكن عثر هناك على منازل قديمة وطقوس ذات طابع وخصائص غريبة وغير معروفة. والجزيرتان الأخريان خاليتان أيضا من السكان، ولكن هناك أشجار زيتون كثيفة وكثيرة وإن كانت تختلف عن الأنواع التي نعرفها في بلادنا.

(٩٤/أ) وبعد هذه الجزر هناك امتداد صخري طويل للساحل. ويسيطر على تلك منطقة عرب ثمود[*]. وتمتد الرحلة في هذه المنطقة مع الساحل لأكثر من ألف ستاد، وهي الأكثر صعوبة على الملاحين طول الساحل بأكمله حيث لا توجد موانئ أو خلجان أو نقاط إرشادية ولا مأوي ولا إمدادات مياه ولا مواد تموينية أو لوازم البحارة.

(٩٤/ب) وبعد هذه الجزر يتسم الساحل بالوعورة والمنحدرات الصخرية لمسافة تصل إلى ألف ميل، ولا توجد موانئ أو مناطق صالحة لرسو السفن ولا مياه للشرب أو أماكن لإيواء البحارة وإمدادهم بالحاجات الضرورية.

(*) ثمود: وردت الإشارة إليها في وسط الجزيرة العربية في القرن الثامن قبل الميلاد كإحدى القبائل العرب البدو ودخلت في صراع مع الآشوريين. وكانت ثمود هي رئيسة اتحاد القبائل العربية القاطنة في شمال الحجاز في الفترة من القرن السادس إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

Pliny, HN VI.157; cf. A. Van den Branden, Histoire de Thamoud (Beirut, 1960) 1-30; and David F. Graf, 'The Saracens and the Defense of the Arabian Frontier' ***Bulletin of the American Schools of Oriental Research***, CCXXIX (1978), PP. 10-12.

(٩٥/أ) ويهيمن على هذه المنطقة جبل على قمته صخور عالية وعتيدة على طول هذا الساحل. وعلى السفح توجد الكثير من الصخور الحادة وخلفها وديان متآكلة وملتوية، ونظراً لعمق مياه البحر فإن المد والجزر تصدر عنه أصوات تشبه الرعد، كما يزيد زبد الأمواج بشدة حين تصطدم بالصخور، وترتفع الأمواج بصورة مخيفة تجعل الناس تخشى الاقتراب من هذه المنطقة خوفاً من الهلاك[٩١].

(٩٥/ب) يهيمن على هذا الساحل عرب ثمود، حيث يوجد خليج ذو حجم جيد في مقابل الشاطئ[٩٢] وتتناثر هناك الجزر الشبيهة بالـ Echindes. والجزء التالي من الساحل تتحكم فيه تلال وكثبان سوداء اللون ذات أبعاد لا متناهية. وخلفها توجد شبه جزيرة ومياه يسمى Charmuthas والذي يعد أفضل الموانئ[٩٣] في ذلك العصر. وخلفها حاجز مائي رائع يمتد جهة الغرب حيث تلاحظ خليجاً يفوق غيره في مزاياه يمتد نطاق جبلي ذو غابات كثيفة على طول الساحل ويحيط به من كل اتجاه على مسافة مائة ستاد[٩٤]. ويبلغ عرض مدخله مائة قدم فيه ميناء يتسع لألفي سفينة، كما يتميز الموقع بوفرة المياه حيث يوجد هناك نهر كبير[*]. وفي وسط الخليج توجد جزيرة وفيرة بالمياه والحدائق. وهو بصفة عامة شبيه جداً بميناء قرطاجة المعروف باسم «كوثون»، كما توجد كميات وفيرة من الأسماك بسبب وعذوبة المياه التى تصب فيه.

بعد أن تغادر هذا المكان مبحراً ترى

(*) لا توجد أنهار تصب في البحر الأحمر بل هي أودية جافة كانت تحمل الفيضانات الموسمية إلى مياه البحر (المترجم).

خمسة جبال منفصلة عن بعضها البعض، وتبدو قممها في صورة هضاب مستديرة صخرية تضيق إلى أعلى مثل الأهرامات المصرية. ثم يلي ذلك خليج دائري مغلق[٩٥]، ثم تل شبه منحرف في الوسط على امتداد خط قطري داخل الخليج. وعلى التل توجد ثلاثة معابد ذات ارتفاع ملحوظ، ومخصصة لآلهة لا يعرفها الإغريق ولكنها مقدسة للغاية عند سكان هذه المناطق.

(٩٦/أ) يوجد بعد ذلك قطاع ساحلي وفير المياه ويضم جبلاً يدعى «لايموس» محيطة يمتد لمسافة كبيرة، وتغطيه أشجار من كل الأنواع.

(٩٦/ب) بعد هذا الساحل الدائري بمسافة ليست بالبعيدة هناك بعد ذلك امتداد للساحل تحتشد فيه الأنهار العذبة ومنابع المياه. ويوجد هناك جبل يدعى خابينوس تنمو فيه النباتات من كل الأنواع.

(٩٧/أ) تعيش قبائل الديباي Debae في الإقليم المتاخم للمنطقة الجبلية[٩٦]. بعضهم من البدو والبعض الآخر فلاحون. وفي وسط هذا الإقليم نهر ذو طبيعة ثلاثية. فهو يحمل خامات الذهب التى تبدو واضحة في الطمي. وسكان هذا الإقليم لا يملكون مهارة التعدين أو التعامل مع هذا النوع من المعادن. ولكنهم كرماء للغاية مع الغرباء وبصفة خاصة القادمين من البلوبونيز أو بويوتيديا وذلك بسبب إحدى الأساطير المنسوبة لهيركليس.

(٩٧/ب) على تخوم هذه المنطقة الجبلية يعيش عرب معروفون باسم ديباي وهم قوم يعتمدون على الإبل في معظم جوانب معيشتهم. فهم يحاربون أعداءهم من على ظهور الإبل، ويستخدمونها في التنقل والحركة، ويشربون ألبانها، ويطوفون كل هذا الإقليم على ظهورها. ويجري وسط الإقليم نهر يحمل خامات معدن الذهب الذي يختلط في طمي هذا النهر. وحيث يجهل السكان طرق استخلاص المعدن ويفشلون في استغلاله. ولكنهم

(٩٨/أ) وإلى جوار هذا الشعب يعش الهلالي Alilaei[*] والكساندري Casandries[٩٧] هم، وإن كانوا يعيشون في إقليم يختلف تماماً عن أراضي جيرانهم.

فالطقس هناك ليس بارداً ولا جافاً ولا حاراً ولكنه لطيف تكتنفه السحب الكثيفة الممطرة حتى في الصيف[**]. ومعظم الأرض شديدة الخصوبة ولكنها غير مزروعة بالكامل بسبب نقص خبرة السكان. وهم يعملون في مناجم الذهب واكتشفوا منه كميات كبيرة، وهو ليس الذهب الذي يستخلص من الخام، ولكنه معدن طبيعي واضح يطلق عليه الإغريق اسم «الذهب غير المفصول» وأقل جزء منه يصل إلى حجم حبة الزيتون،

كرماء مع الغرباء وخاصة القادمين من بويتيا والبلوبونيز، وذلك بسبب الأساطير القديمة التى تربطهم بهركليس وتجعلهم من أحفاده.

(٩٨/ب) الإقليم التالي هو ذلك الذي يسكنه عرب الهلالي والجازانيون Gasandi. وهو ذو مناخ أقل حرارة من الأقاليم المجاورة وتغطي سماءه سحب كثيرة وتسقط أمطاره حتى في الصيف فتؤدي إلى تلطيف درجة الحرارة. وتمتاز تربة هذا الإقليم بالخصوبة الشديدة، ولكنها لا تزرع كلها نظراً لعدم مهارة السكان في هذا المجال. ولكنهم يقومون بجمع الذهب الذي يعثرون عليه في باطن الأرض دون حاجة لفصل الخام عن الشوائب، وهو ذهب بدائي يطلق عليه الإغريق «الذهب غير المفصور». ويبلغ حجم القطعة الكبيرة منه ما يعادل حجم ثمرة الجوز. ويستخدمون القطع الذهبية في عمل سلاسل يضعونها حول الخصور

(*) ربما تكون مشتقة من بني هلال وهي منطقة Apitami عبيد آمون وذلك على أساس أن هلال تعني القمر الباذخ أحد الآلهة المعبودة في ثمود، وهم من نسل هلال بن عامر بن صعمعه في محافظة شبوة اليمنية، ولها بطون في حضر موت وهم غير بني هلال أصحاب السيرة الهلالية في شمال تونس وقصة الصراع بينهم وبين عرب الزغابة (المترجم).

(**) لعل هذا يتفق تماماً مع المناخ في اليمن وخاصة في المناطق الساحلية (المترجم).

والأكبر يصل حجمها إلى ثمرة الجوز. ويرتدي السكان سلاسل ذهبية حول الخصر والركبة، كما يبيعونها لجيرانهم بأسعار زهيدة، ويدفعون في البرونز ثلاثة أمثاله من الذهب، ومن الحديد ضعف وزنه ذهباً، أما الفضة فيدفعون عشرة أمثالها ذهباً. فالقيمة الفعلية تعتمد على الحاجة وليس الطبيعة وهي لهذا السبب نسبية تختلف من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر.

والمعاصم والأقدام(*). ونظراً لحاجتهم إلى البرونز والحديد فإنهم يستخدمون الذهب في مقايضة التجار على هذه المعادن التى لا تتوافر لديهم.

(٩٩/أ) الإقليم التالي مباشرة يعيش فيه الكارباي Carbae[٩٨] ويليه ميناء ذو مياه عميقة فيها عدة ينابيع جافة[٩٩] صغيرة ثم تأتي بعد ذلك قبيلة سبأ أكبر الشعوب في الجزيرة العربية والتى تملك كل أسباب الرخاء(**). ففي هذه البلاد يمكن إنتاج

(٩٩/ب) بعد هذه الشعوب يعيش الكارباي وبعدهم السبأيون الذين هم أشهر شعوب الجزيرة العربية. حيث يعيشون في إقليم يعرف باسم جازان Gasandi وطقس هذه المنطقة غير حار مثل البلاد المحيطة بها بل إن ذرات الثلج الصغيرة غالباً ما كانت

(*) لعلها الأحزمة التى يعلقون فيها سلاحهم الآن أو ما يسميه أهل اليمن بالجنبية، أما ما حول المعصم فهي أساور النساء وما فوق القدم فهو الحجال أو الخلخال. (المترجم).

(**) يقول Wissmann, P. 305 إن أجاثارخيديس يفترض أن كل المناطق الواقعة جنوب الجزيرة العربية كانت خاضعة لسلطان سبأ وأن هذه الفترة كانت في القرن الخامس قبل الميلاد ذلك أنه في القرن الرابع قبل الميلاد كانت منطقة باب المندب تحت سلطان مملكة قتبان. عن هذه المملكة راجع: **وندل فيليبس**، مملكتا قتبان وسبأ، ترجمة الفاضل عباس، مراجعة أحمد عبد الرحمن السقاف. المجمع الثقافى أبو ظبى، ٢٠٠٢ .

Theophrastus, HP. IX. 42; Strabo. XVI. 4.2; Pliny NH. XII. 88.

بيد أن هذا الافتراض غير مقنع لثلاثة أسباب: (أ) ليست هناك أدلة عن وجود معرفة إغريقية تخص الظروف السياسية في جنوب الجزيرة العربية قبل رحلة أناكسيكراتيس. (ب) تشير الفقرة (٧٩ب) أن أجاثارخيديس كان مهتماً بالتجمعات السكانية ولم يكن مهتماً بقوة سبأ. (ج) ليس معنى عدم حديث أجاثارخيديس عن قتبان أن سبأ كانت قوية وأنها سيطرت على مضيق باب المندب (المترجم).

كل ضروريات الحياة، وأجسام الناس هناك تبدو جذابة ورشيقة للغاية ويملكون قطعاناً من الماشية ذات أعداد لا تحصى، ويغطي الجليد كل الساحل مقدماً حالة من السعادة والسرور لزائري البلاد بدرجة تفوق الوصف وعلى ساحل البحر نفسه ينمو البلسم والكاسيا[*] ونوع آخر من النباتات يتميز بالعذوبة والجمال، ولكنه لا يعيش طويلاً ويذبل قبل أن يصل إلى الناس.

وفي الداخل توجد غابات كثيفة من أشجار طويلة تنتج الحنظل والبخور[١٠٠] والقرفة والتمر والسوسن الحلو[١٠١] وغيرها مما لا يمكن وصف جودة ثمارها حتى من جانب الذين تذوقوا بأنفسهم هذه الثمار، وهي تختلف قطعاً عن التوابل أو الثمار الجافة التى يتم تخزينها، فالثمار الطبيعية في هذه البلاد تستحق ذكر الروايات الأسطورية التى تقول إن من يتناولها ينتابه إحساس

تغطيها حيث تتساقط الأمطار فتكثر حدة الحرارة في فصل الصيف وتتوافر فيه كل مقومات الحياة في صورتها المثلى. وهناك أيضاً قطعان وفيرة من الحيوانات من كل الأنواع. وروائح جميلة تعطر كل هواء الإقليم، وعلى طول الساحل ينمو نبات البلسم والكاسيا ونباتات أخرى ذات طبيعة خاصة وتتميز بالجمال الشديد ولكنها تذبل بسرعة وفي الداخل توجد أشجار البخور والقرفة والتمر وغيرها مما يستحيل حصره أو وصف خصائصه. فهي ذات وثمار لا يصدقها أحد إلا لو شاهدها وتذوقها بنفسه، وحتى الذين يبحرون بعيداً عن هذا الساحل تصل إليهم النسائم العطرية الرائعة[***] وخاصة في فصل الصيف، وهي نسائم قادمة من نباتات عطرية رائعة وطازجة وليست مجففة أو مخزنة مثلما في البلدان الأخرى. وهذا النسيم الطبيعي الرائع ذو سحر لا يمكن وصفه أو مقاومته، ولا نظير له في

(*) الكاسيا Cassia = القرفة البرية ، والقرفة العادية = Cinnamon وتستخدم القرفة كمادة أساسية فى صناعة المراهم والعطور والأدوية ، ويشير صاحب كتاب الطواف إلى ان المصدر الأساسى للقرفة بنوعيها هو ميناء موسيللوم Mosyllum أو موسيلليون Μοσυλλον فى شرق أفريقيا، (المترجم).

(**) الأمبروسيا والنكتار هما طعام آلهة اليونان (المترجم).

(***) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سورة سبأ: ١٥)

بأنه أصبح ذو طبيعة إلهية وأنه تناول شراب الأمبروسيا(*) وأنه أصبح شخصية غير عادية.

أي مكان آخر في العالم، وهو يصل للناس في قمة نضجه وريعانه ويبدو وكأنه عطر أسطوري مثل الأمبروسيا التى لم يشهد الناس مثيلاً له ولا يستطيع أحد وصفه.

(١٠٠/أ) في غابات النباتات العطرية توجد أنواع خاصة من الثعابين الخطرة(**) وكأنما الأقدار تنظر بعين الحسد إلى هذه المنطقة وتخلط الشر بالخير حتى يتذوق الناس من كلا الكأسين. والثعابين هناك لونها أرجواني، ويصل طولها إلى حوالي الشبر. ولدغتها قاتلة إذا انتزعت الدم فوق الفخذ. وهي تقفز في الهواء عند مهاجمة ضحاياها(***).

(١٠٠/ب) لم يعط الحظ هؤلاء الناس خيراً خالصاً فهناك شرور وأخطار تصيب بعضاً منهم وتحذرهم من إنكار أو احتقار أو إغضاب الآلهة، ففي الغابات توجد أعداد كبيرة من الثعابين، لونها أرجواني، طولها حوالي الشبر، ولدغتها قاتلة، فهي تقفز كلما لدغت ضحيتها، وكلما قفزت إلى أعلى تمكنت من اختراق جلود الضحايا حتى تنزف منها الدماء.

(١٠١/أ) ويصل عبير النباتات العطرية مداه في بلاد سبأ(**)، ولكنه لا يمثل متعة للسكان لأنهم لا يعرفون سواه ولا أقل منه. كما أنهم لا يستطيعون إضفاء التوازن على حياتهم لأن

(١٠١/ب) وثمة شيء غريب يصيب هؤلاء السكان الذين أضعف أبدانهم المرض المزمن. فعندما يتشبع الجسم بمادة طبيعية نقية ونفاذة، فإن هذه المادة تؤدي إلى انسداد المسام مما

(*) الحنش ذو الرأس هو ثعبان قاتل يصل طوله إلى ٦٠سم ويعيش وسط أشجار البخور ولونه مثل لون الرمال التى يحيا فيها.

(**) يذكر بلينيوس أن أهل سبأ كانوا يحرقون صمغ الميعة Storax (الشيح) لطرد الثعابين من حقول البخور Pliny.NH. XII.xl.80

(***) ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (سورة سبأ: ١٦)

أجسادهم تتعرض لذلك التأثير القوي ويزداد تركيزه الطبيعي حتى يصل إلى الحد الأقصى والموازي لفقد الإحساس. ويقومون بتبخير مادة صمغية من ذقن ماعز لتخفيف أثر التركيز القوي للعبير العطري للنباتات والزائد عن الحد المعقول. ومن هذه الظاهرة يتضح أن أية امتيازات لا يمكن أن تؤدي لعائد إيجابي إلا إذا كانت معقولة أو معتدلة، أما لو افتقدت الأبعاد القياسية فإنها تتحول إلى عبء على الناس.

(١٠٢/أ) وتحمل مدينة سبأ(*) اسم الأمة التى تعيش هناك على جبل صغير. وهذه المدينة هي أجمل المدن على الإطلاق في شبه جزيرة العرب ويتمتع حاكم هذه الأمة بشرف رفيع وسلطة مطلقة حيث يحكم كل هؤلاء الناس ويقرر ما يشاء دون أن يتعرض للمساءلة أمام أي شخص أو

يتسبب في حالة من الضعف لا يرجى شفاؤها. ومن هنا كان السكان يقومون بحرق ذقن أحد الماعز ومادة صمغية كدواء لهؤلاء المرضى، وحتى يخففون حدة تأثيرهم بالعبير القوي للغاية للنباتات العطرية من خلال تعريضهم لرائحة كريهة. فالأشياء الطيبة حين توضع في معايير الكم المناسب والنظام المطلوب فإنها تجلب للناس الخير والمنفعة، أما إن زادت عن الحد فإنها تنقلب من نعمة إلى نقمة، أو على الأقل لا تصبح ذات جدوى.

(١٠٢/ب) وعاصمة هذه القبيلة هي مدينة سبأ، وهي مشيدة على أحد الجبال، ويتولى حكمها ملوك يتبادلون المنصب بالوراثة، ويمنحهم العرف حق الحكم المطلق دون مراجعة أو حساب من أحد. ولكنهم في نفس الوقت لا يستطيعون مغادرة القصر

(*) يذكر بلينيوس سكان الجزيرة العربية بقوله: «البدو منهم يعيشون على الألبان، واللحوم الطازجة للحيوانات البرية، ويصنعون الخمر من التمر، كما يفعل أهل الهند، ويحصلون على الزيت من السمسم، والحميريون Homeritas أكبر القبائل عدداً، والمعينيون Minaea أرضهم خصبة بها بساتيل النخيل، وغابات الأشجار وقطعان أغنام كبيرة، ويقاس غنى أحدهم بعدد ما يملكه من رؤوس الحيوانات، والحضرميون يسيطرون على أكثر الأرض خصوبة، بينما السبأيون أكثر ثروة فأرضهم خصبة مزروعة بمحاصيل وغابات البخور وبها مناجم يستخرجون منها الذهب ويرون مزارعهم، وينتجون العسل ويرتدي العرب العمامة وقليل منهم يترك شعره غير مهذب ويهذبون لحاهم ويعفون شواربهم. Pliny, NH. VI. 161-162.

أية هيئة(*). ولكنه في نفس الوقت لا يستطيع مغادرة القصر طوال فترة حكمه، ولو غادره يتعرض على الفور للرجم من كل الناس وفق نبوءة قديمة تلتزم بها هذه الأمة شعباً وحكاماً.

طوال فترة حكمهم، ولو خرج الملك من القصر يتعرض للرجم من كل الشعب إعمالاً لنبوءة قديمة تقضي بذلك.

(١٠٣) الرجال الذين يقضون حياتهم يعملون في الشئون المنزلية يعيشون نمطاً يشبه النساء أما الباقون فيتدربون على شئون الحرب والقتال، ويعملون في كل الأرض، وينتقلون من منازلهم باستخدام الطواف، وينقلون بضائع من كل نوع وبصفة خاصة نبات عطري ينمو في المناطق الداخلية ويطلقون عليه بلغتهم اسم «لاريمنوم» وهو أقوى النباتات العطرية رائحة وعبقاً. ويقال إنه يعالج معظم الأمراض والعلل البدنية.

ولا يملك هذا البلد أي نوع آخر من الوقود، ولذلك لا يجد الناس أمامهم سوى إحراق نبات القرفة والكاسيا للحصول على حاجتهم اليومية من النار والوقود. وهكذا كانت تصاريف القدر مع هذه الشعوب، تمنحهم ما يزيد عن حاجتهم من بعض الخيرات، وتحرمهم من الحد الأدنى في شئون أخرى. وهناك عدد غير قليل من السبأيين يستخدمون قوارب مصنوعة من الجلود. وساعدتهم حركة المد والجزر على استخدامها رغم أنهم يعيشون في بحبوحة.

(١٠٤/أ) ليس ثمة أمة تتمتع بالرضاء أكثر من السبأيين حيث إنهم الشعب الذي يوزع كل شيء ذا قيمة من آسيا وأوروبا. وهم الذين صنعوا ثراء القسم البطلمي من سوريا بمعدن الذهب. وهم أيضاً الذين استحدثوا تجارة رائجة للصناعات الفينيقية وغيرها. وثروتهم لا

(١٠٤/ب) تتفوق هذه القبيلة على كل الأمم الأخرى، العربية وغير العربية، في الثروة والرخاء، فهم يحصلون على أعلى الأسعار مقابل سلعهم التى يتعاملون فيها تجارياً مع الآخرين، ولأنهم يعيشون خارج نطاق الحروب والغزوات بسبب موقعهم البعيد فإن

(*) لا يختلف ذلك كثيراً عن أي نظام حكم ملكي أو غيره في العالم القديم، فالملك إن لم يكن إله فهو يمثل الإله على الأرض وكلمته قانون واجب النفاذ لا يجوز تعديله أو تغييره (المترجم).

تبدو فقط في الأواني الفخمة التي يستخدمونها ولكن في الأثاث الفخم والرفاهية التي يعيشون فيها داخل منازلهم. ويقول الكاتب إنهم كانوا أيضاً يصنعون أعمدة من الذهب والفضة، وكانت أسقف المنازل تزدان بالنقوش واللوحات المصورة. وباختصار كانت هناك مسافة كبيرة بين ثرائهم وموارد البلدان الأخرى. وتلك هي الحقائق فيما يخص أسلوب حياتهم وفق ما وردت إلينا حتى هذه العصر. ولو لم يكونوا قادرين على الحياة في وطن بعيد عن متناول الشعوب المحاربة في كل مكان، ويسيطرون على مواردهم وثرواتهم، ما كان بمقدورهم الاستمرار في الحفاظ على حريتهم، حيث التراخي والركود والرفاهية لا يمكن أن يحتفظوا لشعب من الشعوب بحريته واستقلاله لفترة طويلة.

الذهب والفضة تتوافر عندهم بكميات ضخمة وخاصة في مدينة سبأ حيث يقع القصر الملكي. ويصنعون أواني الشرب من الذهب والفضة، ويزينون بها المباني والأعمدة الضخمة ويزخرفون بها الأسقف، وصناديق ذهبية متجاورة ومرصعة بالأحجار الكريمة، وتنطق كل أركان المنازل بالفخامة والرفاهية ورغد العيش. وبعض أجزائها مصنوعة من الذهب والفضة، والبعض الآخر من العاج والأحجار الكريمة. وقد احتفظوا بهذه الرفاهية لزمن طويل لأنهم كانوا بعيدين عن الحروب والغزاة والشعوب الجائعة أو الطامعة.

(١٠٥/أ) والمنطقة القريبة من هذا البلد تبدو ذات لون أبيض شبيه بالأنهار فإلى جوار هذا الإقليم توجد جزر رأس الرجاء الصالح، والتي تتميز بأن كل الماشية فيها ذات لون أبيض، ولا تنمو لإناثها قرون. وتشاهد في هذه الجزر سفن وأساطيل التجارة القادمة من البلدان المجاورة ومعظمها

(١٠٥/ب) في هذه الأقاليم يبدو البحر في اللون الأبيض مما يثير الدهشة إزاء هذه الظاهرة. وهناك أيضاً جزر ثرية بالقرب منها وبها مدن دون أسوار. وفي هذه الجزر ماشية كلها ذات لون أبيض وأبقارها لا تنمو في رءوسهم قرون. ويبحر التجار لهذه الجزر من كل مكان، وبصفة خاصة من بوتانا

من ميناء الإسكندرية، كما يأتي البعض الآخر من فارس وكارمانيا وكل الأقاليم المجاورة.

التي أسسها الإسكندر بالقرب من نهر الإنديز حيث كان يرغب في تأسيس ميناء على المحيط وفيما يخص الإقليم وسكانه فسوف نتناوله فيما بعد بالتفصيل.

(١٠٦/أ) في هذا البلد تبدو الكائنات السماوية غريبة أيضاً. وأبرز أمثلتها ما يحدث من الدب، فبداية من شهر Maemacterion في التقويم المستخدم لدى الأثينيين(*)، لا يظهر أي نجم من السبعة حتى الأول في لوسيدون وحتى الثاني وفي الشهر التالية تسير الأمور على نفس هذا المنوال. أما بالنسبة للأجرام والنجوم الأخرى، فإن الكواكب يمكن رؤيتها، وبعض النجوم أكبر من الأخرى، وبعضها لا يشرق ويغرب في أوقات منتظمة.

(١٠٦/ب) ولا يجب أن نغفل الظواهر السماوية في هذه الأقاليم. وأهمها ما ورد عن «الدب» الذي أثار دهشة واضطراب البحارة. فالناس يقولون إنه من شهر «مايماكتيريون » لا يمكن رؤية أي من النجوم السبعة في مدار (مجموعة) الدب، وفي بوسيدون حتى الشهر التالي، وفي الشهور التالية على نفس النظام، بحيث لا يراهم البحارة. وبالنسبة للنجوم والكواكب الأخرى فإن بعض الكواكب يبدو أكبر حجماً من الأخرى، وليست لها مواعيد محددة في الظهور والأفول.

(١٠٧/أ) أما عن ظهور الشمس فإن

(١٠٧/ب) وعلى خلاف ما يحدث عندنا،

(*) هو الشهر الخامس في التقويم الأثيني، أما باقي الشهور فهي على النحو التالي: الشهر الأول Hekatombaion والشهر الثاني Metageitnion والشهر الثالث Boedromion والشهر الرابع هو Pyanepsion والشهر الخامس هو Maimakterion والشهر السادس هو بوسيدون Poseideon والشهر السابع هو Gamelion والشهر الثامن هو Anthesterion والشهر التاسع هو Elaphebolion والشهر العاشر هو Mounychion والشهر الحادي عشر هو Thargelion أما الشهر الثاني عشر والأخير فهو Skirophorion. عن هذه الشهور راجع R.S. Bangall and Peter Derow (eds), The Hellenistic Period Blackwell. 2004 P. 291 (المترجم).

الناس يقولون إنها ذات خصوصية مختلفة في الإقليم وراء بطلمية. فليس هناك Twilisht مثلما الحال عندنا قبل الفجر وحتى شروق الشمس. ولكن الظلام يستمر حتى ظهور الشمس فجأة ودون مقدمات. وتشرق الشمس من منتصف البحر. وحين تشرق تنثر ضياءاً وشعاعاً واسعاً بعضه في دائرة الضوء وبعضه وراءه. ويقول الناس أيضاً إن شكل الشمس لا يشبه القرص ولكن يشبه عمود كثيف ذا حجم أكبر عند نهايته. ولا يظهر الشعاع على الأرض أو البحر حتى الساعة الأولى من النهار، ولكن الشمس تظل كالنار عديمة الضوء في الظلام. ومع بداية الساعة الثانية تشرق الشمس بأكملها في شكل درع، ويلقي بظلال هذه الصورة مع ضوئه على الأرض وعلى مياه البحر. ويقول الناس أيضاً إنه لا توجد ظاهرة عكسية تبدو للشمس في وقت الغسق أو العصر، فبعد اختفاء الشمس وراء الأفق، يستمر ضوؤها لما يقرب من ثلاث ساعات بعد غروبها، وهي فترة يعتبرها الناس هناك أجمل أوقات اليوم.

لا تبدأ أشعة الشمس في الظهور قبل وقت الشروق، ولكن الشمس تظهر في هذا الإقليم فجأة وأثناء وجود الظلام الدامس الذي يميز ساعات الليل. ولا يبدأ النهار في هذا الإقليم قبل رؤية الشمس، ويقول الناس هناك إن الشمس تشرق من وسط البحر وتبدو في هيئة قرص شديد اللمعان والتوهج. ولا تبدو في الصورة التي نعرفها، ولكن تشبه العمود الذي يزداد سمكاً كلما اتجه إلى أسفل. ولا ترسل شعاعاً ولا ضوءً قبل الساعة الأولى، وتظل في شكل كرة مظلمة داكنة من النيران. ومع بداية الساعة الثانية تتخذ شكل الدرع الدائري وتبث ضياءً بالغ الإشراق والبريق. وعند غروب الشمس تستمر في إرسال الضياء لمدة لا تقل عن ساعتين، وهذه الفترة يعتبرها الناس أجمل أوقات اليوم حيث تقل درجة الحرارة بسبب غياب الشمس بينما يستمر ضياؤها.

(١٠٨) وتبدو الرياح الشمالية الغربية أو الشمالية الشرقية على نفس شاكلة ما يحدث في البلدان الأخرى، ولكن في إثيوبيا لا توجد رياح جنوبية. وفي تروجوديتاي والجزيرة العربية تتميز الرياح بالحرارة الشديدة لدرجة احتراق الغابات، وتبدو الرياح الشمالية هي الأفضل حيث تصل إلى كل جزء من المعمورة وتحتفظ ببرودتها.

(١٠٩) في سياق تناوله ظاهرة الجزر يسوق الكاتب تفسيرات مختلفة ويرفضها كلها بوصفها غير صحيحة، ويقول إنها تفتقر للترابط وتجافى الحقائق المعروفة ولا تستحق المناقشة، ثم يتساءل بعد ذلك عن سبب ظواهر المد والجزر والزلازل والرياح والرعد وكيف تنصرف عن تفسيرها وتنشغل بكوارثها وتقديم تقرير عنها في حدود المعلومات المؤكدة، ويقول إن طموحنا هو اكتشاف تفسيرات جديدة أو أكثر واقعية حول هذه الموضوعات غير العادية، أما عن التوصل إلى الحقيقة الكاملة، فإن أحداً لا يجرؤ على ذلك في هذا الوقت.

(١١٠) ويقول إن شيئاً غريباً يظهر في شجر الزيتون. ففي وقت المد تغرق هذه الأشجار، ولكنها تزهر أثناء كل فترة الجزر. وهناك نوع من النباتات ينمو تحت الماء في المنطقة المد بجزيرة.... ويطلق عليها السكان المحليون اسم «خصلات إيزيس» في محاولة لإضفاء مصداقية ساذجة على رواية أسطورية. وحين يتعرض هذا النبات لضربات الأمواج فإنه يلتوي في كل اتجاه نظراً لمرونة الساق كما هو الحال في سائر النباتات. ولكن إذا قطعه أحد وعرضه للهواء فإنه يتحول إلى مادة أكثر صلابة من الحديد.

(١١١) هناك أنواع كثيرة أخرى من السمك في هذه الأقاليم وتتميز بخصائصها غير المعتادة. أحد هذه الأنواع سمك ذو لون أسود داكن للغاية، ويصل حجمه إلى حجم الإنسان ويسمى «الإثيوبي» بسبب شكل رأسه ووجهه. وعند بداية صيده كان الناس يخشون بيعه أو أكله بسبب شكله هذا، ولكن مع مرور الوقت اعتادوا بيعه وأكله مثل سائر أنواع الأسماك.

(١١٢) انتهينا الآن من خمسة أجزاء تناولنا فيها أحوال القبائل التى تعيش في الجنوب في عصرنا هذا. ولكننا توقفنا بالكامل عن فكرة تناول الجزر التى تم استكشافها

مؤخراً وشعوبها ونباتاتها العطرية التى تنمو في تروجوديتيس، حيــث إن ســنّي لا يسمح بمثل هذا المجهود، وخاصة بعد أن أنجزت أعمالاً ضخمة عن أوروبا وآسيا، وكذلك فإنني أصبحت عاجزاً عن فحص كامل للأرشيف الملكي Hypomnemata بسبب الاضطرابات في مصر. ولكن ذلك لا يمثل إعاقة لمن يرغب في التعاطي مع هذا الموضوع بالتفصيل، ممداً نفسه بأسلوب جدير بالتأريخ، ومستعداً لبــذل الجهــد مقابل الشهرة.

مصادر ومراجع الكتاب الخامس

(1) تعامل أجاثارخيديس في فقرتين مطولتين عن تدمير هاتين المدينتين حيث دمر فيليب الثاني الأولى وهي أولينثوس Olynthus في شمال اليونان في عام ٣٤٨ق.م ودمر الإسكندر الأكبر طيبة وبوتيجريتا في عام ٣٣٥ق.م على اعتبار أنهما نوع من حكم الطغاة مارسته مقدونيا ضد الإغريق.

(2) هيجيسياس Hegesias خطيب لامع في أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد أحضره ميناندر من ماجنيسيا في آسيا الصغرى George Kennedy, The Art of Persuasion in Greece (Princeton, 1963), PP 301-303.

(3) راجع فقرة ٧

(4) بوبوس Bopos وربما تكون Chenoboskion أحد أقسام ديوسبوليس بارفا وربما تكون Phboos أو Proos وفقا للمصادر القبطية.

(5) هي دندرة الحالية = الإقليم السادس.

(6) كورتيا: تقع على بعد أربعة أميال إلى الشمال من المحرّقة الحديثة وتشكل الحد الجنوبي للدوديكاسخوينوس Dodecaschoenus وذلك في العصر البطلمي أما في العصر الروماني فقد امتدت حدود الدوديكاسخوينوس (١٢ فرسخا) إلى جنوب المحرّقة.

- Ugo Monneret de Villard, La Nubia Romana (Rome, 1941), PP. 32-3; Desages, 'Satut, pp. 141-7).

(7) ربما يكون أجاثارخيديس قد أخطأ في فهم المصادر التى اعتمد عليها وهي تصف الطاولة التي يغسل عليها الذهب حيث كانت مصنوعة من الخشب. وتكون مكونة من ثلاثة أجزاء متصلة ببعضها البعض. الجزء الأول عبارة عن طاولة مستطيلة ضحلة والثاني إناء مربع صغير والثالث حوض عميق على شكل مربع. وقد تم العثور على عدة طاولات منها في أماكن مختلفة بجوار النيل بداية من إخمينيدي Ikhmindi في جنوب مدخل وادي علاقي مباشرة إلى فاراس Faras وعثر على واحدة منها مصنوعة بالكامل من الحجر في النوبة السفلى.

(8) كان الغرض من عملية تكرار غسل خام الذهب بالماء هو فصل ما بقى فيه من شوائب وإن كان أجاثارخيديس لم يشر إلى عدد مرات الغسل فإن استرابون (III 2.10) يشير إلى أن الفضة في أسبانيا تغسل خمس مرات حتى تصبح خالية من الشوائب. وإذا كان أجاثارخيديس يقول بأن عملية غسل الذهب تكون بجوار المنجم فإن Vercoutter, PP. 139-40 يشير إلى وجود مغسلة لخام الذهب مازالت مشيدة حتى الآن في النوبة بجوار نهر النيل وهذا يعني أن خام الذهب كان ينقل إلى نهر النيل حيث المياه الوفيرة لعملية الغسل. بيد أن العثور على طاولات غسيل لخام الذهب بعيداً عن النهر ربما يضعف هذا الافتراض.

Linant de Bellefonds. PP: 27-8.

(9) تشير الأدلة إلى وجود نشاط للفراعنة في وادي العلاقي في عصر الدولة الوسطى في عام ١٩٠٠ق.م واستمر حتى الأسرة العشرين وذلك حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد بيد أن إنتاج الذهب قل في عصر الأسرة الثامنة عشر (١٥٧٥-١٣٠٨ق.م).

(10) يشير أجاثارخيديس إلى العمل في أم روس Umm Rus على بعد أربعة أميال من ميناء على البحر الأحمر يسمى مرسى إمبارك Marsa Imbarak.

(11) هم سكان مملكة مروى.

(12) هناك أدلة على زراعة السمسم في النوبة السفلى، حيث عثر عليه في قصر أبريم Ibrim في قرون مبكرة.

(13) ربما يكون آكلو السمك هم قبائل البجة في السودان والعبابدة في صحراء مصر الشرقية والبشارية في صحراء مصر الشرقية وساحل السودان الشرقي.

Boyce Driskell, Field Report, Qasr Ibrim 1986 Season, American Research Center Newsletter, Number 135 (Fall, 1986), P. 7.

(14) تحدث بلينيوس (NH. VI. 149-51) عن الساحل الشرقي للجزيرة العربية في حين تحدث صاحب كتاب الطواف (PME 20) عن الساحل الغربي وفي الفقرة ٢٧ عن الساحل الجنوبي وتحدث عن الخليج الفارسي في الفقرة ٣٣.

(15) يصل طوله إلى مترين أو يزيد وهو من الأسماك المعروفة لسكان ساحل البحر الأحمر.

(16) يُعد المحار طعاماً أساسياً عند عرب العبابدة.

(17) المينا = أربع أرطال.

(18) كانت حياة الجماعات الخاصة وموتهم واحدة من الأفكار التى تبانها ديكارخوس في كتابة حياة اليونان، فقرة ٤٩.

(19) حفظت إحدى البرديات التى نشرها الرايخ فيلكن عقود بين خمس تجار كانوا يستعدون للرحلة إلى أماكن إنتاج التوابل. عن ذلك راجع U. Wilcken «Funt-Fahrten in der Ptolemäerzeik» *ZÄS* (1925) PP: 86-102.

(20) هذا ما أشار إليه نقش أدوليس المدون في OGIS. 54. 10-13.

(21) يبدو من الفقرة (٤٣ب) أن فوتيوس قد أخطأ في ترجمة الحيتان بالسمك، وقد استخدمت عظام الحيتان من قبل سكان رأس جوردافوي في بناء المنازل وذلك في العصور الوسطى وذلك وفقاً لرحالة صيني.

J.J.L. Duyvendak, China's Discovery of Africa (London, 1949), P. 21; Teobaldo Filesi, China and Afrtica in the 'Analetcta Sino-Africana Recensa', East Africa and the Orient: Cultural Synthesis in Pre-Colonial=

= Times, H. Neville, Chittick and Robert I. Rotberg, editors (London, 1975), pp. 100-1) Nearchus, FGrH, 133 F 1.29. 16= Arrian, Indica 29.16; SAtrabo XV.2.2, C.720.

(22) الشجرة المقصودة هنا هي شجرة المنجروف الأبيض أو الشورى Shora التى تنمو على طول المنطقة الساحلية للمحيط الهندي والخليج الفارسي والبحر الأحمر، قد أشار إليها أبو العباس النباتي في العصور الوسطى بوصفها أبو فروة، وهناك من يفترض أنها شجرة الزيتون مثلما فعل Theophrastus, HP IV.7.2 في القرن الرابع قبل الميلاد.

Theophrastus, HP, ibid., Pliny, HN 12.77; Disocorides, De Materia Medica 1.141). Cf; Agathardiches, Pythagoras (quoted in Athenaeus, Deipnosophists 4.183-4).

(23) لم يتم اكتشاف أي نموذج من هذه المساكن.

(24) Sue Blundell, The origins of civilization in Greek & Roman Thought, pp. 62-5.

(25) أورد أجاثارخيديس وصفاً موجزاً لهؤلاء القوم في كتابه شئون آسيا وقد حفظ هذا الوصف ديدور الصقلي (III.9-10.4) واسترابون (XVII.2.3.) ومكانهم غير محدد ويبدو أنهم كانوا يعيشون في المنطَقة الممتدة بين نهر عطبرة وبحيرة تانا، ومن أحفاد هؤلاء القوم تنحدر قبائل الشناجالا.

J. Spencer Trimingham, Islam in Ethiopia (London, 1952) P.7 Not. 1.

وهي بصفة عامة المنطقة الواقعة بين سينار في الغرب وجبال إثيوبيا في الشرق وكسلا في الشمال وبحيرة تانا في الجنوب.

(26) يكون ذلك في ١٩ يوليو وهو البداية الرسمية لفيضان النيل في التقويم المصري. عن ذلك راجع:

J. Desmond Clark, Prehistoric Populations and pressures Favoring plant domestication, Origins of African Plant Domestication, ed. Jack R. Harlan et al., (Hague, 1976), p. 94. n. 94. 19; Frederick, J. Simoons, 'Some Questions on the Economic Prehistory of Ethipia', Papers in African Prehistory, ed. J. D. Fage and R.A. Oliver (Cambridge, 1970), pp. 117-24).

(27) D.J. Lewis, 'Early Travelers' Accounts of Surret Flies (Tabinidae) in the Anglo-Egyptian Sudan', SNR XXXIII (1952), pp. 276-97.

(28) ربما تكون هذه المجموعة هي نوعـان مـن الـشمبانزي W. Schafer, 'Nubische Ortsnamen bei den Klassikern', ZÄS, 33 (1895) pp. 96-100.

(29) William Coffman McDermott, The Ape in Antiquity (Baltimore, 1938), pp. 69-70, 108.

(30) متوسط عمر القرد ٥٠ عاماً.

(31) تقوم جماعات تسمى الشانجالا Shangalla بصيد مثل هذه الحيوانات عندما يجف النهـر الرئيسي في فصل الصيف حيث تتجمع حول هذه البرك المائية للشرب فيـصبح صـيدها سهلاً.

(32) يعد تحديد هذا المكان ضرباً من المستحيل ذلك أن صاحب كتاب الطواف الفقرة رقم (٤) وبلينيوس، الكتاب السادس الفقرات ١٨٩، ١٩١ وكذلك بطلميوس ٤، ٧، ٣٤ يشيرون إلـى أن صائدو الأفيال كانوا يعيشون في كل المنطقة الممتدة من سينار Sennar إلـى الجبـال الواقعة في غرب إثيوبيا وظل الأمر كذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

(33) كان طول القوس الذي يستخدمه Shangalla سبعة أقدام وذلك في أواخر القرن الثـامن عشر، واستمر صيد الفيلة بهذه السهام المسمومة حتى القرن العشرين.

(34) يشير بطلميوس (الفصل ٧ فقرة ٣١) إلى أن موقع آكلي النعام إلى الغـرب مـن النيـل الأزرق = Astapus في سنار وظل النعام هو الغذاء الرئيـسي للـشانجالا Shangalla الذين يعيشون بالقرب من نهر Gash طوال القرن الثامن عشر كما لاحظ ذلك Bruce II 549.

(35) كانت قبائل البشارية تأكل الجراد فى أواخر القرن التاسع عشر. بيد أنه من الواضـح أن أجاثارخيديس كان مخطئا فى أحد النقاط المهمة ذلك أن أسراب الجراد لا يـزداد عـددها بشكل كبير إلا بعد مرور عدة سنوات. أما جماعات Shangalla التى تعيش إلى الشرق من نهر Tacazze فكان الجراد غذاءً ثانوياً بالنسبة لهم حيث كانوا يجمعونـه فـي الـصيف ويحفظونه جافاً في سلال محكمة وذلك بعد سلقه. Bruce II 547.

(36) ربما تكون هذه المنطقة بين جاباتي Gabaty وشيندي Shendy وهي المنطقة الممتدة من سنار Sennar إلى إثيوبيا وكانت مصدراً للملح في القرن التاسع عشر.

(37) هي منطقة بالقرب من نهر عطبرة وبحيرة تسمى Aoratia أو بالأحرى عند منبع نهـر عطبرة وبحيرة تانا Tana.

(38) هي قبائل من دلماتيا على حدود مقدونيا كان كساندروس حاكم مقدونيا قد أسكنهم هناك في العقد الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد.

(39) تشير كلمة طاغية في النصوص المصرية في العصرين اليوناني والروماني إلى شيخ قبيلة أو رئيس جماعة يخشع لسلطان حاكم آخر PME. 2,14,20,24 and 25 وراجـع كـذلك OGIS 654.8

(40) مازالت هذه الممارسات موجودة في منطقة النوير Nuer والدنكا Denka في جنوب السودان.

Francis Mading Deng, The Dinka of the Sudan (New York, 1972), pp. 39-40.

(41) هي قبائل الميجاباروس Μεγαβαρος وورد اسم هذه القبيلة في مخربشات ترجع إلى عصر بطلميوس الرابع (فيلوباتور) وهي قبيلة نوبية تسمى جوروبو Gurubo وجاءت الإشارة إليها في نقوش الدولة الحديثة، راجع عن ذلك:

Ernest Zhylarz, The Countries of the Ethiopian Empire of Kash (Kush) and Egyptian of Ethiopia in the New Kingdom, Kush, VI (1958), p. 14; Karola= =Zibelius, Afrikanische Orts-und Völkernamen in hieroglyphischen und hieratischen Textan (Wiesbaden, 1972).

(42) أشار المقريزي إلى أن بعض قبائل البجة تمارس عادة الختان وأن بعض جماعات اليهود وخاصة يهود الفلاشا كانوا يختتون بقطع البظر (Labia Majoran) هو تقي الدين أبي العباس أحمد بن على المقريزي المتوفى عام ٨٤٥هـ - ١٤٤٢م وله كتابان، ١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك وهو جزءان، حققه وقدم له، سعيد عاشور، القاهرة ١٩٥٦-١٩٧٣، ٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطب والآثار، والمعروف بالخطط المقريزية أربعة أجزاء، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م.

(43) تعيش هذه القبيلة وفقاً لاسترابون (١٧، ١، ١٢) الذي ينقل عن إيراتوسثنيس، هي قبائل البليمي التى تعيش في المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ، أما بطلميوس (٤، ٧، ٣٠) فيقول إنها هي قبائل مروى في القرن الثالث قبل الميلاد.

(44) هو مصطلح يشير إلى الغرفة المقوسة (ذات السقف الجمالوني) حسب ديودوروس (٣، ١٩، ٢)، وقد تبعه أجاثارخيديس في استخدام هذا المصطلح لوصف الفجوات والممرات التى كان بعض جماعات آكلي السمك ينحتونها. وتشير الفقرة (رقم ٦٢) إلى ممرات شبيهة كان يصنعها التروجوديتيس.

(45) ليكوس ريجيوم Lycus Rhegium له كتابان أحدهما عن تاريخ ليبيا والآخر عن صقلية وكان قد عاش في القرن الرابع وبدايات القرن الثالث قبل الميلاد.

(46) تيميوس Timaues عاش في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد وكانت أعمال عن تاريخ إيطاليا وصقلية والسيرة الذاتية لبيرهوس ملك إبيروس ٢٩٧-٢٧٢ق.م.

(47) ربما يكون هيكاتيوس الإبيديري الذي عاش في الربع الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد والذي يعد أفضل من كتب عن مصر في العصر الهيللينستي.

(48) كتب باسيليس Basilis مؤلفه في القرن الثالث أو القرن الثاني قبل الميلاد وله كتابان أحدهما عن الهند والآخر عن إثيوبيا.

(49) ديفانتوس Diphantus عاش في فترة تسبق منتصف القرن الثاني قبل الميلاد وعرف كتابه باسم Pantica يتحدث فيه عن الشعوب التى تعيش حول البحر الأسود.

(50) ديميتريوس من كالاتيس Demetrius of Calatis وهو من نفس بلد هيراكليديس ليمبوس Heraclides Lembus السيد الذي أعتق أجاثارخيديس، وعاش في أواخر القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد وله كتاب ضخم بعنوان تاريخ آسيا وأوروبا ويقع في ٢٠ مجلداً.

(51) بحر أزوف Azov

(52) تبدو هذه الفقرة وما بعدها غير مكتملة ذلك أن أجاثارخيديس لم يقارن بين الأسود الموجودة في الجزيرة العربية وتلك الموجودة في إثيوبيا. ذلك أن فوتيوس كعادته لم يقم بترجمة إلا ما هو مهتم به. ولم يكن أجاثارخيديس يستند إلى أية قواعد أساسية وهو يقدر حجم الأسود في الجزيرة العربية. وكذلك الحال فإن ديودور الصقلي لم يقدم جديد (٢، ٥٠، ٢) ذلك أنه كان ينقل عن أجاثارخيديس.

(53) تشير الفقرة رقم (٧٠ب) إلى أن أجاثارخيديس قد اعتاد على استخدام مصطلح النمل لوصف نوعٍ معين من الأسود. وسار على دربه الكتّاب المتأخرين متأثرين «النمل الحارس الذهبي» وفقاً للأسطورة الإغريقية، وذلك عند وصفهم لجغرافيا الهند.

Philostratus, Life or Apollonius of Tyana 6.1; Heliodorus, Aithiopika 10.2.6.; cf., J.R. Morgan, 'History, Romance and Realism in the Aithiopika of Heliodoros', Classical Antiquity, I (1982), P. 240.

(54) يبدو أن الفقرة (٧٠أ) لم تكتمل وإن كانت ليكيا وقاريا هما مصدر الفهود في العصر الهيللينستي وبدايات القرون الأولى بعد الميلاد.

(55) يعيش وحيد القرن في مملكة مروي في وسط السودان وبالقرب من شاطئ البحر الأحمر في إريتريا.

(56) لم يكن للإغريق عهد بهذا الحيوان قبل غزو الإسكندر الأكبر للهند في عشرينات القرن الرابع قبل الميلاد، وقد وصلت هذه الحيوانات إلى مصر في عصر البطالمة كهدية دبلوماسية أو ربما عن طريق تجارة الحيوانات وربما كان ذلك عن طريق تجارة الحيوانات وربما كان ذلك عن طريق بلاد الرافدين حيث أكد بعض الرحالة الصينيون وجود وحيد القرن في القرن الأول قبل الميلاد.

E.H. Warmington, The Commerce between the Roman Empire and India, 2nd ed. (London, 1974), p. 151.

(57) وردت إشارات عديدة عن الفيلة ووحيد القرن بداية من القرن الخامس قبل الميلاد.

Pliny, HN 8.71; Aelian, NA 17.44; Solinus 30.21; Oppian, Cynegetica II.551-59; and Timotheus of Gaza, On Animals 45.1.)

(58) رغم الإشارة إلى هذا الحيوان في موسوعة فسيفساء النيل بأنه هو قرد البابون ويوصف بأنه أصفر الرأس والظهر أما وجهه فهو أبيض مع خطوط صفراء حول العنق، والجزء السفلي مع أقدام سوداء وهذا يتفق مع النسناس. وموطنه في أماكن متعددة شرق أفريقيا بالإضافة إلى كوردفان ودارفور. ووفقاً لاسترابون فإنه كان ضمن الآلهة المصرية.

(59) عرف الإغريق نوعين من الضباع وميزوا بينهما، فيعيش الضبع المخطط وهو صغير الحجم في آسيا وأفريقيا (Hyena Hyena) أما الضبع الإريق فهو أشد خطورة Pliny, NH. VIII. 106.

(60) الثعبان الوحيد الذي ينطبق عليه هذا الوصف هو ثعبان الصخور الأفريقية المدعو بيثون Python/Seboe ويبلغ طوله ٣٠ = ٤٥ قدم = ٧,٥.

(61) إن الإشارة إلى الشعر الذي يكسو الثعبان في الفقرة ٨٠أ وقتل هذا الثعبان للثيران والفيلة في الفقرة ٨ث كل هذا يؤكد أن هذه الفقرة التى اقتبسها فوتيوس كانت أصلية في النص الخاص بأجثار اخيديس. ويشير .Aeilan / NA.2.21 إلى أن ثعباناً في إثيوبيا يبلغ طوله ٣٠ Orguios= ١٨٠ قدم وهي تقتل الفيلة.

(62) يشير (Aelian. NA/16.39) إلى أنه رأى خمسة ثعابين كبرى في مدينة الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد كان أحدها طوله ١٤ ذراع =٢١ قدم وكان الثاني طوله ١٣ ذراع =١٩,٥ قدم وذلك خلال عصر بطلميوس فيلادلفوس. أما الثلاثة الأخر فطول أحدهما كان ٩ ذراع يساوي ١٣,٥ قدم والرابع كان طوله ٧ ذراع = ١٠,٥ قدم أما الأخير فكان طوله ٦ ذراع = ٩ قدم وكانت هذه الثعابين قد أحضرت إلى الإسكندرية في عهد بطلميوس الثالث وجميع هذه الثعابين كانت محفوظة في معبد اسكليبليوس في الإسكندرية، وكانت هذه الثعابين تتغذى على القرابين.

(63) العرض الفعلي هو ١٦ ميل وكان ايراتوثنيس قد قدر عرض البحر الأحمر بـ ٦٠ ستاداً = ٧,٥ ميل وكذلك استرابون (XVI.4.4) وصاحب كتاب الطواف PME. 25 بالإضافة إلى Pliny. N.H. XI.170.

(64) هي مصوّع وليست سواكن.

(65) يقول أجاثارخيديس إن هذه الجزيرة قريبة من تاوري Tauri في حين يجعلها بطلميوس ٤، ٧، ٦، في مكان جزيرة مكاريا الحالية أما استرابون (٦، ٤، ٧) فيجعلها شمال بطلمية الوحوش وجزيرة ماربوا في حين إن بينيوس (٦، ١٦٩) يفترض إنها إحدى الجزر الواقعة في شمال خليج برينيقي. ووفقاً لبلينيوس فإن حاكماً من مصر كان يحكمها طوال العصر البطلمي. وربما يرجح ذلك أن يكون هذا المكان هو سواكن.

(66) على الجانب الغربي لخليج السويس الموقع الذي يتفق مع هذا النص هو العين السخنة أو ربما المياه الكبريتية الساخنة أو ربما يكون جبل حمامات فرعون في سيناء على بعد ٣ ميل جنوب رأس ملاقب وهذا ما يؤكد أن أجاثارخيديس قد خلط بين المواقع الموجودة على ساحل البحر الأحمر جنوب السويس وتلك الموجودة على سواحل سيناء.

(67) حيث إن ساحل البحر الأحمر كله جبال فلا يمكن تحديد هذا الجبل وإن كان البعض قد اجتهد فإنه جبل يقع شمال أبو شعير، وقال ثاني إنه جبل الزيات وقال ثالث إنه جبل شايب البنات.

(68) عرف الدجاج الحبشي في منازل الإغريق بداية من القرن الخامس قبل الميلاد.

(69) يشير بلينيوس (NH.1X.6) إلى أن هذا الخليج يقع بين رأس باناس وأبودارا = ٧٥ ميل.

(70) ٨٠٠ ستاد = ١٠ ميل وهذا الرقم خطأ حيث إن كل مساحة الجزيرة هذه الجزيرة هي ٤,٥كم٢.

(71) جزيرة الموتى وربما يعكس ذلك فكرة المصري القديم أن الموتى يعيشون في جزيرة في المحيط.

(72) ليس من الواضح ما المقصود بمصطلح طوباز، فيذكر بلينيوس نقلاً عن جوبا (NH. 37.108) أن الكلمة تعني في لغة التروجوديتيس «يبحث عن» وأن البحارة يبحثون عنه دائماً في الجزر لأنه يكون عاجزاً عن الحركة بسبب الضباب، وهنا من يفرتض أن كلمة الطوباز مشتقة من كلمة نوبية Topazas من تصريف الفعل Tabe يبحث عن.

(73) والجزيرة قاحلة وليس بها مصدر دائم للماء، وربما كان العمال في هذه الجزر هم رجال أحرار يقودون عبئاً أو عملاً إلزامياً أو خدمة عامة. فبعد تنظيفها وتلميعها ترسل هذه الأحجار إلى برينيقي ومنها تنقل إلى فقط ثم إلى الإسكندرية. ويبدو أن تنظيم عملية الاستثمار في جزيرة الزبرجد قد توقف في بداية القرن الأول قبل الميلاد.

(74) جزيرة رأس باناس. كانت عملية سحب السفن ونقلها عبر الجزر الصغيرة أو البرزخ وذلك لتوفير الوقت أو تقصير مسافة الإبحار. وكان هذا الأمر يتم مع السفن المتجهة إلى برينيقي. وهناك مثال واضح حول هذا الأمر في برزخ كورنثة.

J. Wiseman, The Land of the Ancient Corinthians (Goteborg, 1978), P. 45.

(75) بعد هذه الجزيرة توجد قبائل عديدة من آكلي السمك والبدو ثم ميناء سوتيريا Soteria (سواكن)، وقد أسماه بعض القادة أو البحارة بهذا الاسم بعد أن نجوا من الشعاب المرجانية. وبعد هذه المنطقة يحدث تحول كبير في طبيعة الشاطئ والخليج (يقصد البحر الأحمر). وذلك أن الرحلة في البحر بعد هذه المنطقة تصبح سهلة. حيث تصبح المياه ضحلة لا يزيد عمقها عن قامتين. وتنتشر الطحالب والأعشاب الخضراء وفي هذا المكان تنمو الأشجار أيضاً تحت الماء والمضيق نفسه يغص بكلاب البحر.

(76) الإشارة هنا إلى الساحل فيما بعد سوتيرا (سواكن) حيث الميناء ضحل وممتلئ بالرمال كما هو الحال في رأس عزيز ومن ثم فالإبحار في هذه المنطقة يعد ضرباً من المعاصرة المحفوفة بالمخاطر.

(77) ميناء النجاة، ربما يتطابق مع ما ذكره بطلميوس (٤، ٧، ٦٢) باسم ميناء الإلهين المخلصين، وهو اللقب الإلهي الذي حمله كل من بطلميوس الأول وزوجه برينيقي، وكان قد عبدا بهذا الاسم بداية من عصر بطلميوس محتملان لهذا الميناء أولهما هو بور سودان والثاني هو سواكن.

(78) التاوريد= الثيران ربما تكون هي سلسلة الجبال القريبة من سواكن، حيث أن استرابون (16.4.7) وبطلميوس (4.7.6) يشيران إلى أنها بجوار سواكن مباشرة. ولكن لا يمكن أن نحدد سلسلة جبال بعينها.

(79) هي سلسلة جبال تبدأ من شرق نهر البركة وتتجه نحو الجنوب عبر إريتريا وإثيوبيا إلى مضيق باب المندب.

(80) بدأ أجاثارخيديس وصفه للساحل الغربي لشبه الجزيرة سيناء قبل الحديث عن ساحل الجزيرة العربية في الفقرة ٨٩.

(81) لا يمكن تحديد مكانها رغم أنها تقع في شمال غرب ساحل شبه جزيرة سيناء ويرجع إنشاؤها إلى بوسيدون بيلاجاوس Poseidon Pelagaus وهو واحد من البحارة المشهورين في رحلة أريستون.

(82) ربما تكون واحة بالقرب من الطور وليست فيران كما افترض البعض.

(83) جزيرة Seal هي جزيرة تيران Tiran.

(84) هي منطقة شرق فلسطين في مواجهة تيران وربما تكون هي رأس القصبة التي تحدها سلسلة جبال تمتد مع الساحل الشرقي لخليج العقبة ورأس محمد في أقصى جنوب سيناء.

(85) هم مواطنون غير إغريق يعيشون في الساحل الجنوبي لكريميا وكانت مهمتهم القرصنة البحرية.

E. E. Minns, Scythians and Greeks (London, 1973), P. 100; Cf; V.F. Gaidukevič, Das Bosparanische Reich (berlin, 1971), P. 303, n.1.

(86) ربما كان ذلك في عصر بطلميوس الثاني فيلادلفوس الذي قام بحملة ضدهم في سبعينيات القرن الثالث قبل الميلاد.

(87) الإشارة هنا إلى الجزء المنخفض من وادي الحجاز الذي يسمى وادي الإيلاف وهو شرق خليج العقبة مباشرة.

(88) ربما يكون هو وادي أينونا Aynuna والذي يمتلئ بالصخور والشعاب المرجانة ويمكن دخوله عن طريق قناة متعرجة من الجنوب.

(89) بمعنى بني زوميان وهو مارسيمانوت بارسيمانوت وكانت هدفاً للآشوريين في القرن الثامن قبل الميلاد.

(90) هذه الجزر هي سِينافير Sinafir، وجزيرة شوشة وجزيرة بركان، وإذا كان هذا الافتراض صحيحاً فإن جزيرة زيوس المشار إليها في الفقرة (٩١ث) ربما تكون هي سينافير ومن ثم تكون الجزيرة الثالثة إما جزيرة الرايمان أو جزيرة المقصود.

(91) هي المنطقة من رأس كاركاما (٢٥,٥٤° شمالاً و٣٦,٣٩° درجة شرقاً) ورأس أبو مـــدد ٢٤,٥٠° شمالاً ٣٧,٠٨° درجة شرقاً.

(92) هي منطقة من البازلت الأسود تمتد بطول المنطقة بين جدة وبحيرة الشريفة.

H. Von Wissmann, 'Zaabram', RE, Sup., XI (1968) col. 1310.

(93) يفترض مولر (Müller. P. 182) أثر شر موساس مكونة من مقطعين Cherm = شرم + Mudd = ثمود وهي بالقرب من ميناء رأس أبو مدد.

(94) ١٠٠ ستادات = ١٢,٥ ميل.

(95) ربما تكون هي الجبال الواقعة بين جبال الليث ووادي هالي Hali.

(96) هي المنطقة الممتدة من القنفدة Al.Qunfudha إلى وادي بياش Baysh ووســطها وادي قانونا Qanauna ويشير بلينيوس إلى أنها كانت مصدراً مهماً للذهب فــي العــالم القــديم (NH. VI. 150) واسمها القديم ما مالي واسمها العربي ماثلاً

H. Van Wissmann, 'De Mari Erythraeo', pp. 299-301; 'Ophir und Hawila', RE, Supp., XII (1970) cols. 907-8; Geschichte' P. 391).

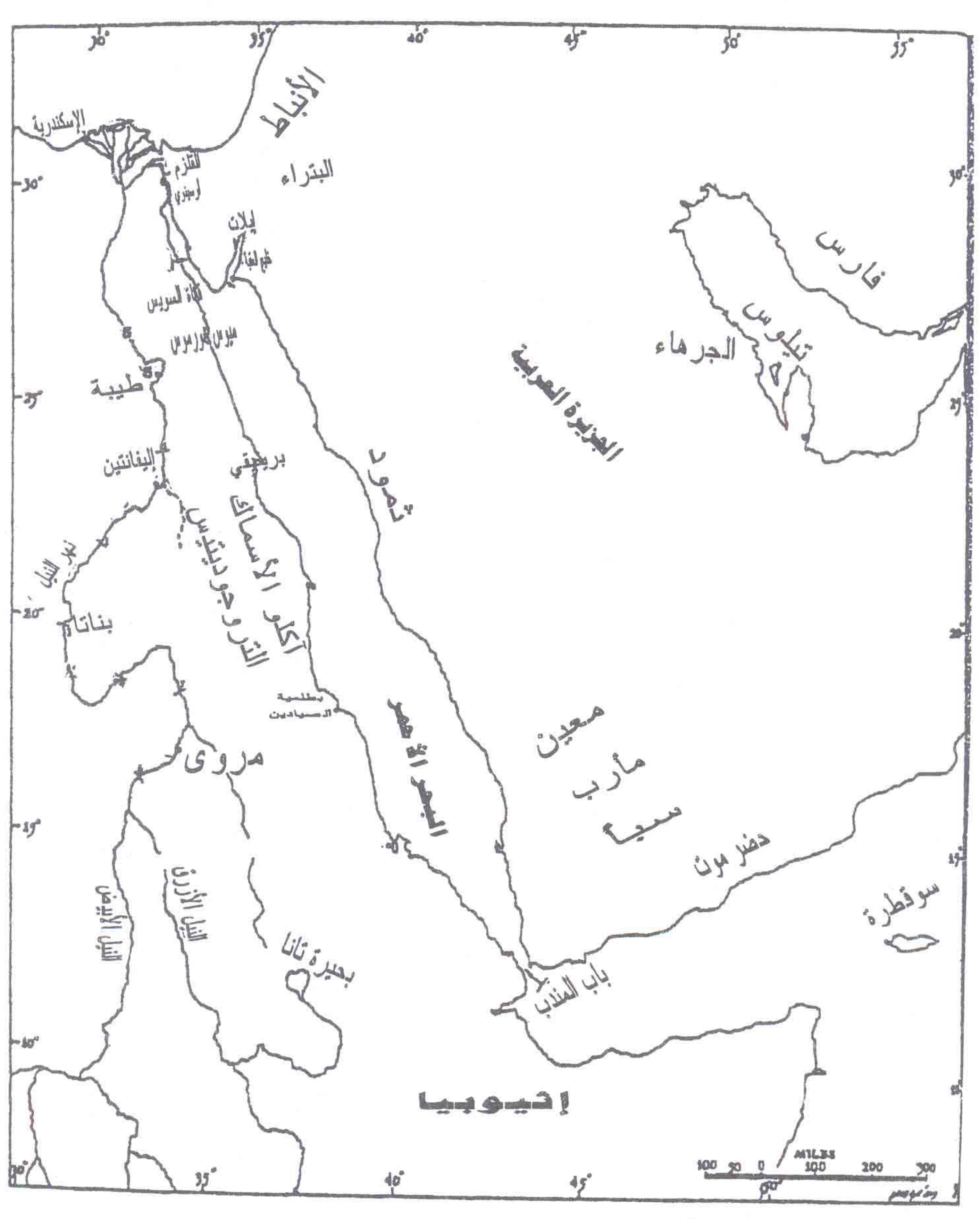
(97) ربما يشير إلى قبائل الجازاندي التى أشار إليها بلينيــوس (NH.VI. 150) والجــازانيين Cassanitae التى أشار إليها بطلميوس (VI.7.6) وإلى سكان وادي جازان (جنوب غرب= =السعودية) الذي يصل إلى مناجم الذهب فــي منطقــة خــولان فــي الــيمن H. Von Wissmann, «De Mari Erythraeo pp: 289-290, Ophir, Col. 922.

(98) ربما تكون Carphati (NH.V. 150)

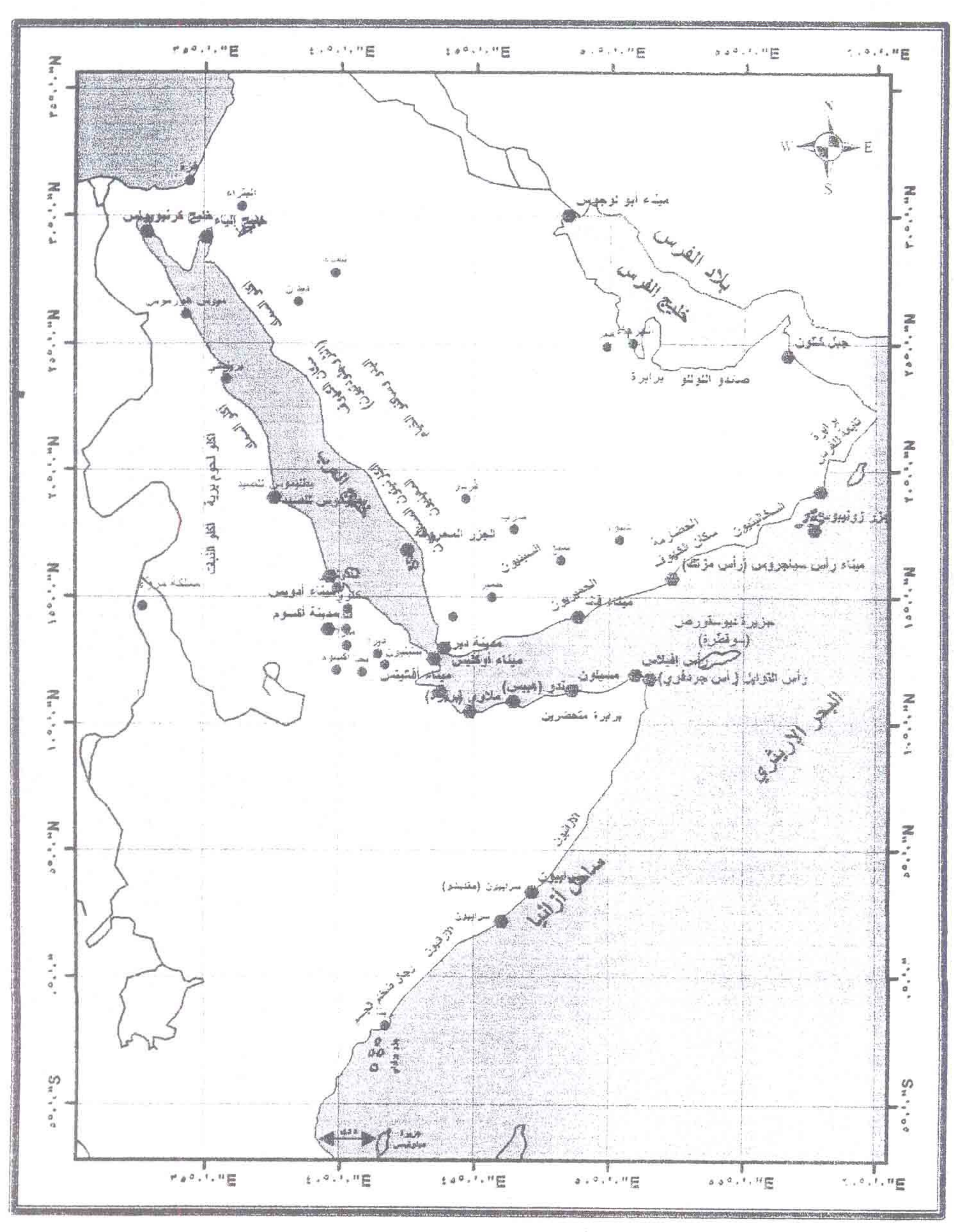
(99) خور الوحلة (١٦,٤٤° شمالاً و ٤٢,٤٠° شرقاً) وربما تكون هي Fans Coralis التــى أشار إليها بلينيوس (NH.V1. 150) أو كوراليا في .(NH. V. 154)

(100) لم يعثر على السوسن الحلو في الجزيرة العربية أو في شرق أفريقيا.

(101) Groom, Frankincens and Myrrh, P. 72, cf. A. Lucas, Notes on Myrrh and Stacte', ***JEA***, XXIII (1937), PP. 27-33; Van Beek, Frankincense and Myrrh; PP. 141-51; J. Innes Miller, The spice Trade of the Roman Empire: 29B.C. to A.D. 641 (Oxford, 1969); Raschke, PP. 603-1361; Cf; Groom, Frankincense and Myrrh; Lionel Casson, 'Cinnamon and Cassia in the Ancient World', Ancient Trade and Society (Detroit, 1984), pp. 225-46



البحر الأحمر وظهيره كما ورد عند أجاثارخيديس



الجزيرة العربية وشرق أفريقيا في دليل الملاحة في البحر الإريثري